
دعوة الحق
مجلة تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط المغرب
عيد مبارك سعيد
وعمر مديد
عدد خاص بمناسبة عيد الشباب المجيد
• دعوة الحق • العدد 257 • شوال - ذو القعدة 1406 / يونيو - يوليوز 1986

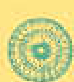


ديوان دعوة الحق

وفاء وولاء

باقات شعرية مهداة إلى رمز الأمة المغربية،
وباني وحدتها الترابية، سليل الدوحة النبوية الشريفة
وجوهرة عقد الدولة العلوية المجيدة صاحب الجلالة
أمير المومنين الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه.

1381   1405
1961   1985



تهنئة

تحتفل الأمة المغربية قاطبة بالذكرى السابعة والخمسين لميلاد أمير المؤمنين سبط النبوة جلالة الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه، وأعز أمره.

وبهذه المناسبة العزيزة، يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تتقدم إلى حضرة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بأزكى الأماني، وأطيب التهاني، داعية الله تعالى أن يطيل عمر جلالته، حتى يحقق لشعبه المتعلق بأهداب عرشه ما يصبو إليه من عز وسؤدد، وأن يحفظه لهذه الأمة ذخراً وملاذاً، ويقر عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المحبوب الأمير السعيد المولى الرشيد وسائر أفراد الأسرة الشريفة،

إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.





شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

كلمة العدد

يوم الميلاد

للأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم تاسع يوليوز من كل سنة، يطل من سماء الغيب وجه طفل كريم نبيل، عمره عمر ذلك اليوم، يتراءى للعين في ألوان الأحلام، تارة في قلب زهرة من شقائق النعمان بمزارع الأطلس الخضراء، تشرق ابتسامته الذهبية وسط الحمرة والخضرة فتنعكس على بلور الندى وتملأ السماء بالألوان.

وتارة أخرى في صفرة عرجون، يهدهده نسيم أصباح الخريف في قمم النخيل وخضرة الواحة من حوله، والهواء مضمخ بحلاوة التمر، وترقرق ابتسامته فضة وذهبا تسمع رنينها مع حركات جريد النخل من تافلالت.

ويتراءى في صور ورؤى لا تكاد تحيط بها عين الحلم أو ملكة الخيال، تختزنها ذاكرتك وتحاول أن ترسم لها بعدا في الزمان والمكان لتجد علاقة الحلم بالحقيقة.

☆ ☆ ☆

ذات يوم من الأيام الطويلة التي تحسب بها أعمار الشعوب، خيم على بلادي ليل دامس فيه رعد وبرق وإعصار وزلازل وظلمات، بعضها فوق بعض - كنت لا تسمع في ذلك الليل إلا أنين المنكوبين يتناغم مع أصوات المستضعفين المحتشدين في المساجد لقراءة اللطيف. وكان الوطن قد أمسى البحر يحيط به من كل الجهات، وغدا جزيرة تذوب كالسكر في الفنجان.

والراية الحمراء سالت في الدروب دماء، وفي المزارع لهيبا وفي قمم الجبال حمما من براكين الغضب.

لم تعد الشمس ترى ما يدعو إلى إشراقها على هذا البلد في غده، وباتت الطيور تستعد للرحيل.

ظهر وجه ذلك الطفل الكريم في الأفق لا يستطيع أحد أن يؤكد لك أنه رآه بعين الحلم أم بعين اليقظة، كل ما يذكر أنه رآه.

وفجأة كسر صمت ذلك الليل صوت مؤذن يؤذن في الناس :

- ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.
- ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾.
- ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾.

لم يفارق خيال الأمة وجه ذلك الطفل الكريم الذي آنس وحشتها وما تزال ترقب وجهه البريء في كل تاسع يوليوز، إنه الفأل الحسن تتفاءل الأمة بذكراه.

☆ ☆ ☆

لا شك أن ميلاد الجمال أجمل من الجمال نفسه، وكذلك ميلاد الزرقة في الأفق، والاحمرار في الشفق، والماء في النبع، والتغريدة في حناجر الطير، وكثيرا ما يهتم الناس بالربيع ولا يهتمون بميلاده، وكذلك شأنهم بالنسبة للإنسان نفسه، لا يذكرون يوم ميلاده إلا رقما جامدا لا حياة فيه، مع أن يوم الميلاد هو اليوم الذي يبقى على مدى الدهر غضا طريا مغسولا بندى البراءة والطهر، وملفوفا في أسرار الخلق الموصولة بجلال الخالق وآية قدرته.

عندما يذكر الأب يوم ميلاد طفله يستشعر جمال الخلق والإبداع وعظمة الخالق، ويذوق طعم الحياة يوم ميلادها، ويشم رائحتها، ويحس بطراوتها، ويمسك البراءة والطهر بأنامله، وينظر بعينيه المجردة إلى حقيقة الإنسان في فطرته. وكذلك عندما يمسك الإنسان عصفورا بمجرد خروجه من البيضة، أو عندما يرقب فسيلة وهي تخرج من الحبة وتشق التراب لتعلن عن ميلادها.

ما أجمل يوم الميلاد وما أجدره أن يكون عيدا لكل إنسان يحبيه فيحيي ما فيه من المعاني والأسرار.

ونحن نحتفل اليوم بعيد ميلاد أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين الذي ما هو إلا رمز لميلاد المغرب الجديد، لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى الخالق المبدع مبتهلين إليه أن يحفظه فينا رمزا حيا، وفألا حسنا، وطلعة يمن وخير وبركة.

والحمد لله رب العالمين

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

عيد الشباب من منظور إسلامي

للأستاذ عبد الله كنون
عضو أكاديمية المملكة المغربية
والأمين العام لرابطة علماء المغرب

كان الملك الصالح محمد الخامس قدس الله روحه ونور ضريحه، هو الذي أسس عيد الشباب، لمعرفته بما للشباب من أهمية في بناء الاستقلال والدفاع عن البلاد، وقد قرنه بعيد ميلاد جلالة الملك الحسن الثاني، ولي العهد حينذاك، وهو يوم تاسع يوليوز ليكون حافزا للشباب إلى سلوك سبيل النهضة وطلب الكمال، وقدوة حسنة للآباء الذين عليهم أن يسهروا على تربية أبنائهم التربية المثلى التي كان محمد الخامس يربي بها ولي عهده، وفلذة كبده، حتى أهله لولاية الملك من بعده، والنهوض بأعباء المسؤولية التي تقتضيها الإمامة العظمى لشعبه الكبير.

فليكن هذا العيد مناسبة للنظر في مستقبل النشء، ومراجعة أساليب التربية العلمية والعملية لأبناء اليوم ورجال الغد، كل عام، حتى نبلغ بهم أعلى المستويات ونحقق أقصى الغايات من أسباب التقدم والازدهار لبلادنا المغربية، وأمتنا الإسلامية التي كنا فيها وما نزال بفضل الله قلعة شامخة في حماية بيضة هذا الدين الحنيف والحفاظ على حضارته الرائدة.

وإذا كانت الناحية العلمية والفنية تأخذ من مؤسساتنا التعليمية والتربوية أوفر حظ، بحيث أصبحت مدارسنا ومعاهدنا على اختلاف درجاتها وتخصصاتها تحتوي على أكثر من ثلاثة ملايين تلميذا وطالبا، وقد كانت بالأمس القريب في عهد الحماية الكريه، لا تزيد على أربعين ألفا ما بين تلاميذ وطلاب متوسطين، فإننا نشعر بأن الناحية الروحية في تعليمنا العمومي ضعيفة جدا، ومعاملها في الامتحانات لا قيمة له، فهي بحاجة ماسة إلى العناية والتقوية بما لا حد له، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن الصبابة القليلة مما يمكن أن يسمى بالتربية الخلقية أو الدينية هي إلى النظريات أقرب منها إلى الممارسات، بدليل إسنادها في الغالب إلى غير الملتزمين بخلق أو دين، وكذلك الشعب الإسلامية التي كثيرا ما يتولاها غير المتخصصين.

وبقدر ما كان التعليم عندنا على مدى قرون مصطبغا بالصبغة الدينية، سواء كان تعليما فلسفيا أو طبيعيا أو رياضيا أو لغويا، فهذا لفهم نصوص الدين، وهذا للرد على شبه الملحدين، وهذا لمعرفة قدرة الخالق، وهذا للتوسع في آفاق المعرفة للعمل على صلاح المعاش والمعاد إلى غير ذاك، صرنا والغاية من التعليم هي المادة ولا شيء غير المادة، مما قلب مفاهيم الحياة في مجتمعنا وخاصة في الوسط الشبابي، حتى كدنا نشك في مصداقية نهضتنا التعليمية لما بدأ من التذمر عند إقفال باب الوظيفة العمومية، وردود الفعل من الآباء والأبناء على السواء، التي تبرز نتيجة لخيبة الآمال في نتيجة التعليم والحصول على الشهادات، إلى حد الظن أن لو كان كتب على أبواب

المعاهد التعليمية، أنها لا تخرج موظفين، لما كان الإقبال عليها بما رأيناه من الحماس والسباق.

إذن فلنعط للجانب الروحي في تعليمنا حقه، ولنجعل طلب العلم للعلم ذاته، ولنلقن أبناءنا أن العلم وحده ثروة لا تطال، وأنه غنى يفوق غنى المال، إذا وجدت القناعة، ولنذكرهم بقول الإمام الغزالي رحمه الله : «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله» والعالم الحق الذي يستغني بالعلم لا يموت إلا غنيا، لأن المال يتبع العلم، والعلم لا يتبع المال، بل كثيرا ما يزهد العالم في المال لأنه لا يسد من نفسه الفراغ الذي يسده العلم، ولا نطيل الكلام في هذا المقام لئلا نخرج من حيز التوجيه إلى حيز الوعظ.

وحسبنا أن يقرن الرسول ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله، الإمام العادل بالشاب الذي ينشأ في عبادة الله، ويجعله ثانيه قبل بقية السبعة فيرفع من مقام الشاب الصالح إلى أن يجعله تاليا للسلطان العادل.

والشاب الذي يصون شبابه ولا يضيعه فيما لا يعني، إنما يحفظ نفسه، فإن السلامة والعافية في الشيخوخة على قدر التحفظ في الشباب، لذالك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس : «اغتنم خمسا قبل خمس»، وذكر منها : «شبابك قبل هرمك» في بقية الخمس الأخرى.

ومعلوم أن الشباب مطية الجهل، فمن تخلص فيه من نزوات النفس الأمارة بالسوء، وتنزه عن المساوي والعيوب، فهو الشاب الذي يحق له أن يفتخر بأنه قهر الشيطان وربح شبابه ولم يخسره، والشبان من هذا النوع هم الذين يبنون مجد بلادهم ويرفعون ذكر أممهم، وشباب الإسلام لا ينبغي أن يكونوا إلا هكذا، لأن عليهم مسؤولية عظمى، وهي نصرة الرسالة المحمدية والنهوض بها ونشرها في العالم بأقوالهم وأعمالهم وسلوكهم كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ وقد كانوا شبابا في أغلبيتهم.

وقد تحدث أبو حمزة الشاوي عن شباب الصحابة رضي الله عنهم حين دخل مكة فعيره أهل مكة بأن أصحابه وأتباعه إنما هم شباب، فقال في خطبته الشهيرة : «يا أهل مكة أتعيرونني بأن أصحابي شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا ؟ شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهر، فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة، بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار، شهق شهقة خوفا منها، حتى إذا رأوا السهام قد قومت، والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انتضيت، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضت بالدماء محاسن وجهه» إلى آخرها.

فهؤلاء هم شباب الإسلام الذين فتحوا الأمصار، وقهروا الاعداء، وأنشأوا الدولة الإسلامية التي حكمت القارات الثلاث التي كانت معروفة آنذاك، وصنعوا الحضارة التي ما يزال العالم ينعم في ظلالها بفتوحاتها العلمية ومبتكراتها الفنية، فأين منهم الشباب الذي يظل يومه يتسكع في الدروب، ويتمطى في المقاهي، ويملأ الملاعب الرياضية والقاعات السينمائية، في حين تخلو منه رحاب المساجد، وحلقات العلم، وما يقال في الشبان يقال في الشابات اللاتي أصبح همهن منحصرا في المساحق الماكياجية، والحلاقة النموذجية، وإبداء زينتهن في الشوارع، ومنافسة الرجال في التدخين، والمرأة الأجنبية في مختلف التقالع، فهل بمثل هؤلاء ينتصر الإسلام، ويعود القدس، وتقوم دولة الخلافة أو ما يضاهيها من جديد، فتفرج الغمة عن الأمة، ويفرح المومنون بنصر الله ؟

إننا لا نيأس من روح الله، ولا نطالب شبابنا بما ليس في مقدوره، ولكننا نؤمل في فيئته، واهتمامه بأمر المسلمين، وتناظره في مستقبل الرسالة التي هو مطوق بها، لا في الماركسية أو الاشتراكية أو اليمين أو اليسار، فإن لهذه المذاهب أهلها وأنصارها الذين لا يعوزهم ظهير من غيرهم، وهم في غنى عنه، ولكن الإسلام والعرب، وحالتهما هي ما يعلمه الجميع، لا يستغنيان عن أهلهما وأنصارهما وخصوصا من الشباب فليبارك الله في شبابنا العامل المجد المستقيم، وليلهمه الرشد والصلاح، وكل ما فيه الخير والنجاح لبلاده وملته.

مسؤولية الشباب في بناء المغرب طبقا للتوجيهات الملكية السامية :

دورُ المجتمع في خدمة الشباب ودَورُ الشباب في خدمة المجتمع

للأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري
عضو أكاديمية المملكة المغربية
رئيس المجلس العلمي لولاية الرباط وسلا والأقاليم المجاورة

عندما يقوم الشباب ـ أيّ شباب كان وفي أيّ بلد وجد ـ بعملية «النقد الذاتي» ويحاسب نفسه، ويستعرض بنزاهة وموضوعية، ما له وما عليه، يجد نفسه مدينا للمجتمع الذي نشأ فيه بديون ثقيلة لا يستطيع أداءها ولا ردها إلا عندما يصبح بدوره عضوا نافعا فيه، ومندمجا في خدمته كل الاندماج.

ذلك أن المجتمع الذي يمارس الشباب حياتهم اليومية في ظله وتحت رعايته ـ منذ أن تفتحت أعينهم على نور الشمس ـ هو الذي أخذ على عاتقه تنشئتهم وتربيتهم وقيادتهم خطوة خطوة، فالمجتمع هو الذي فتح في وجوههم أبواب الحياة، وقدم في سبيلهم أجل التضحيات، عندما عمل بكل إخلاص، وبحسن نية، على إنجاب الأطفال أولا، ثم على حضانتهم ثانيا، ثم على تربيتهم ثالثا، ثم على تعليمهم وتدريبهم في مختلف العلوم والمهن والمهارات رابعا، ثم على إدماجهم في صميم حياته أخيرا.

وما من شاب شاب إلا وهو مدين للمجتمع على الخصوص بعمليتين أساسيتين لا غنى عنهما لتكوين شخصيته، وصقل مواهبه، وتكييفه التكييف المناسب والملائم لنوع الحياة السائد في مجتمعه على وجه العموم.

فالعملية الأولى : هي عملية «الوراثة الاجتماعية» التي ينتقل عن طريقها من جيل إلى جيل ما تجمع من تراث البشرية عبر القرون، وبفضلها يرث كل جيل عن الجيل الذي سبقه كل ما عنده من لغة وعادات وتقاليد ومعتقدات، وفنون وعلوم، وأنظمة اجتماعية واقتصادية وسياسية.

والعملية الثانية : هي عملية «التشكيل الاجتماعي» للضيوف الطارئين على المجتمع من أبنائه وفلذات أكباده، وهذا التشكيل يتم بصورة أو أخرى عن طريق «المحاكاة والتقليد» من جانب الصغار للكبار، إذ الإنسان بطبيعته «حيوان مقلد» يتأثر بما يرى عليه غيره من أبناء جنسه، فيحاكيه ليكون مثله، كما يتم نفس التشكيل الاجتماعي عن طريق التلقين والتوجيه من طرف الكبار للصغار، ولا سيما في الوسط العائلي والوسط المدرسي، وما حولهما من الوسط القروي أو المدني، وما أظن أنه يوجد شاب متصف يحلل شخصيته بتجرد وموضوعية ليردها إلى عناصرها الأولى، ثم يحاول أن ينكر في قليل أو كثير ما أثرته في نفسه وتربيته وحياته اليومية عملية «الوراثة الاجتماعية» وعملية «التشكيل الاجتماعي»، والإجماع قائم بين الباحثين في هذا الموضوع على أن جميع القوى الحضارية على اختلاف أنواعها، بما فيها أطيب وأجود ما أثمرته الثقافة الإنسانية، إنما تم نقلها من جيل إلى جيل بفضل هاتين العمليتين، وأنه لولا أن الله ألهم الإنسان إليهما لما أمكن للإنسان أن يحافظ على رصيده

الفكري والخلقي الذي توصل إليه خلال عشرات القرون، بعد كفاح مرير، ونضال عنيف، بذل فيه كثيرا من العرق والدمع والدم.

فتأثير المجتمع، القويّ والعميق، على الأجيال الصاعدة، أمر لا جدال فيه، وشيء لا مفر منه، ومهما ادعى البعض أنه «عصامي» المئة في المئة، وأنه كون نفسه من «لا شيء»، بعيدا عن تأثير المجتمع الذي نشأ فيه، وأنه لا يدين لمجتمعه بقليل ولا كثير، فإن أكثر ملامحه وجوارحه، وأغلب انطباعاته وتصرفاته، تبطل دعواه، وتؤكد أنه مرآة صادقة لمجتمعه كيفما كان ذلك المجتمع، صحيحا أو سقيما، منحرفا أو مستقيما.

والمجتمع عندما يندفع إلى تقديم خدماته للجيل الصاعد، إنما يقدم له تلك الخدمات، منتظرا منه أن يقدم هو بدوره للمجتمع أحسن منها أو مثلها. والشأن في المجتمعات كلها أن تعلق كثيرا من آمالها العريضة على أجيالها الصاعدة، وأن تنتظر منها تحقيق تلك الآمال، في مجال الوقائع والأعمال، ومن حقها أن تنظر إلى الأجيال الصاعدة، كما ينظر «صاحب السيارة» إلى «قطع الغيار» اللازمة لسير سيارته واستمرارها، كلما أصاب قطعة من قطعها عطب، أو تلف، أو ضياع، وإلا تعطلت سيارته عن العمل، لأول عطب يقع في قطعة من قطعها، وهكذا تتلف وتتعطل جميع السيارات عن السير، الواحدة بعد الأخرى، لفقدان قطع الغيار الصالحة، التي تعوّض ما تلف منها في الحين.

على أن الشباب الذين بلغوا درجة طيبة من الوعي والشعور بالكرامة، والاعتزاز بها، لا يرضون لأنفسهم أن تكون وظيفتهم في المجتمع قاصرة على «الاستهلاك» دون «الإنتاج»، ولا أن يكون عملهم الوحيد هو مجرد امتصاص جهود الغير، واستغلال مواهب الآخرين، واستنزاف طاقاتهم وتضحياتهم دون أي مقابل.

بل الشأن في الشباب الحي - على العكس من ذلك - أن يعد نفسه ليكون خير خلف لخير سلف، وأن يختار - عن بينة وكفاءة واستعداد - الدور الذي عليه أن يلعبه لصالح المجتمع، وأن يبادر - دون تردد ولا تسويف - إلى القيام بذلك الدور، فالمجتمع أحرص ما يكون على أن يلقح أجهزته بدم جديد، هو دم الإصلاح والتجديد، ومن أجل ذلك عمل المجتمع ويعمل دائما على تكوين شباب طموح منتج ومبدع يومن بأن «طريق السعادة» الوحيد هو طريق العمل والكدّ، والنشاط والجدّ، وبذلك يضيف الشباب إلى تركة المجتمع المادية والأدبية عنصرا جديدا، ويسجل في رصيده الخاص مساهمة عملية، مطبوعة بطابعه الشخصي، يستحق من أجلها التقدير والاحترام، ويسجلها له التاريخ بأحرف من نور في مستقبل الأيام.

وما من مجتمع مجتمع كبر شأنه أو صغر، إلا وهو يعترف بأن فيه «فراغا» يجب أن يملأ، وبأن فيه «ثغرات» يجب أن تسد، وهذا الفراغ يكون أحيانا في مجالات «العلم» على اختلاف أنواعه، ويكون أحيانا في مجالات «الفن» على اختلاف أشكاله، ويكون أحيانا في مجالات «المهن والصنائع» على تعدد أصنافها، ويكون أحيانا في «إطارات الدولة وأجهزتها» على تنوع اختصاصاتها، ويكون أحيانا في «إطارات المجتمع» الاجتماعية نفسها، وملء هذا الفراغ، لتكميل نواقص المجتمع في العلم، والفن، والصناعة، والمهن الحرة، وأجهزة الدولة والمجتمع، هو العمل الأكبر، والمجهود الأعظم، الذي ينتظره المجتمع من أبنائه وفلذات أكباده، الذين يبذل في سبيلهم النفس والنفيس، وهو السبيل الوحيد إلى أن يثبت الشباب وجودهم، وينالوا ثقة المجتمع واحترامه، وهو السبيل الوحيد إلى أن يخلدوا أسماءهم في التاريخ، دون أن يكون ظهورهم على مسرح الحياة ظهور «عابر السبيل» الذي لم يعرف أحد هويته ولا شخصيته، فعاش ومات دون أن يشعر بوجوده أحد.

وخير ما نختم به هذا المقال فقرات ملكية سامية توج بها أمير المومنين الحسن الثاني خطابه في عيد الشباب سنة 1982 حيث قال حفظه الله مخاطبا شعبه، وموليا وجهه نحو شباب البلاد بالخصوص، معلقا عليهم أكبر الآمال :

((اعلم وفقك الله أن حياة الشعوب كحياة الأفراد تبدأ بالشباب، ويتلو الشباب الكهولة، ويتلو الكهولة الشيخوخة، ولكن هذا في أطوار يتلاحق بعضها ببعض، أما بعض

الشعوب ـ وخاصة منها التي أنعم الله عليها بالخيرات المادية والمعنوية ـ فانها تجمع في أن واحد بين «الشباب» وقوته وعزيمته، و«الكهولة» واستمراريتها وتحليلها وتقويمها للأمور، و«الشيخوخة» بما تعرفه من تجربة في الماضي والتاريخ وما عمله الأقدمون)).

«إننا نحمد الله على أننا «شعب شيخ»، لأن تاريخنا مليء بالأمجاد، ومليء بالمكارم، ومليء بملاحم الآباء والأجداد و«شعب كهل»، لأننا نقوّم الأوضاع حق تقويمها، ونحللها التحليل اللازم لها، وحينما نتخذ قرارنا نتخذه عن روية وحكمة، إذ أن طور الكهولة هو طور المسؤولية، والتمادي في الخطة بعد تحليلها وتقويمها، ونحن في آن واحد **«شعب شاب»**، لنا من **الإقدام**، ومن **العزيمة**، ومن **قوة الابتكار**، ما يجعلنا **مستعدين** للقيام **بكل** عمل **جليل، ومستعدين** لتلقي أيّ **تحد من التحديات، ومستعدين** لأنْ نقوم **بمسيرات** على رأس **كل** عشر سنوات، مسيرات **نحو** الخير، ومسيرات نحو **النمو الاقتصادى والبشرى، ومسيرات** نحو **الأخوة البشرية**».

وقال جلالته في فاتحة خطابه يوم عيد الشباب للسنة الماضية (1985) بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لميلاد جلالته :

((شعبي العزيز : ألفنا كل سنة أن نلتقي في مثل هذا اليوم، لنتبادل التهاني، ولنؤكد عزمنا على تحقيق المطامح والأماني، حتى نسير دائما في ذلك النهج المطمئن والقوي، لبناء **مغربنا يوم بعد يوم، وسنة بعد سنة**، لنكون مطمئنين مع آخر هذا القرن، ولنؤكد عزمنا على بلوغ مطامحنا وأهدافنا، ولنترك للأجيال المقبلة ما تحمد عليه ونشكر من أعمال وتشييد وتخطيط)).

أطال الله حياة أمير المومنين، ونفع بتوجيهاته شباب المغرب الأمين.



من مراكز التراث العلمي المحفوظ:

الخزانة الحسنية للكتب والوثائق

للأستاذ محمد العربي الخطابي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

إن الخزانة الحسنية، بما تحفظه من نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة والوثائق التاريخية هي ثمرة جهود متواصلة بذلها ملوك الدولة العلوية الشريفة، جيلا بعد جيل، منذ أقام دعائمها السلطان مولاي محمد بن الشريف عام 1050 هـ، بل يمكن القول إن الخزانة الحسنية برصيدها الحالي هي صورة حية لهمة جميع الأسر الملكية التي تعاقبت على حكم المغرب منذ عهد الأدارسة إلى الآن، فقد سَعَى كل ملك في توسيعها وإثرائها وتضخيم رصيدها من طريق اقتناء الكتب واستنساخها وبما يقدمه لها العلماء والأدباء المؤلفون من كتب يصنفونها ويهدونها لخزانة القصر الملكي. وكان الملوك أنفسهم يقفون على خزانات الجوامع والمدارس المصنفات العديدة ليستفيد منها الشيوخ وطلاب العلم ويرجعوا إليها في دروسهم ومطالعاتهم. ولولا ذلك لضاقت اليوم رحاب القصر الملكي بكتبها التي ضاع منها الكثير بما نهبه القراصنة الأجانب كما وقع لخزانة السلطان السعدي مولاي زيدان التي استقرت بدير الاسكوريال ولم يبق منها اليوم إلا القليل.

إن عدد المصنفات المخطوطة المحفوظة بالخزانة الحسنية يجاوز ستة عشر ألف مجلد، وبين هذه المجلدات مجاميع كثيرة يضم كل منها عددا من المؤلفات يصل أحيانا إلى عشرين وأكثر.

أما عدد الوثائق التاريخية فإنه يربو على مائة وخمسين ألف وثيقة. وسيزيد عددها - كما وكيفا - بعد أن أمر صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني - حفظه الله - بضم محفوظات مديرية الوثائق الملكية إلى الخزانة الحسنية.

ومن المعلوم أن هذه الخزانة مِلْكٌ خاص يتوارثه ملوك الدولة العلوية الشريفة ويحافظون عليه كما يحافظون على أعزّ ممتلكاتهم، وقد ظلت في الحفظ والصون بالقصر الملكي بفاس طيلة مدّة الحماية الأجنبية وشطراً من عهد الاستقلال إلى أن قرّر صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نقلها إلى القصر الملكي بالرباط، حيث أذن - حفظه الله - عام 1962 بأن تُفتح أبوابها للأساتذة والباحثين وطلاب الجامعات ليكرعوا من حياضها ويستفيدوا من ذخائرها فيما يعدونه من بحوث ودراسات، فأضاف بذلك مكرمة جديدة إلى مكرماته العديدة في سبيل نشر العلم وتيسير مصادره وموارده. والخزانة الحسنية تحظى بإشرافه السامي عليها ورعايته الدائمة لها، وقد عين للقيام على شؤونها محافظا وموظفين فنيين وإداريين ومعاونين ورصد لها اعتمادات من ميزانية البلاط الملكي، وبنى لها مقرا جديدا تتوافر فيه الشروط الوظيفية والفنية المطلوب توافرها في المكتبات العصرية فضلا عما يمتاز به

مبنى هذه الخزانة من جمال معماري يبرز مهارة الصناعة التقليدية الوطنية.

☆ ☆ ☆

تتألف الخزانة الحسنية من أربعة أقسام :

1) قسم المخطوطات، وهو العمدة والأساس، وقوامه آلاف الكتب الخطية في جميع فروع المعرفة ومن بينها كثير من النّوادر والنفائس التي ترجع إلى أقدم العصور من القرن الثاني الهجري إلى ما والاه من قرون، ومنها مصنفات بخط يد مؤلفيها كأبي جعفر ابن الزبير وابن خلدون، أو بخط يد أعلام بارزين كعبد المهيمن الحضرمي السبتي والأمير الحفصي أبي زكرياء بن أبي محمد ابن أبي حفص، وكلاهما كتب بخط يده نسخة من رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري، وهاتان النسختان فريدتان لا نظير لهما.

على أن الميزة البارزة لمخطوطات الخزانة الحسنية تتجلى في ما هو محفوظ بها من كتب أندلسية ومغربية كثيرة العدد، فضلا عن المخطوطات المشرقية التي كان الملوك يتبارون في اقتنائها وجلبها من مصادرها، حتى إن السلطان الأكرم مولاي الحسن الأول كان له مندوب خاص مقيم بمصر يقتني له الكتب الخطية أو يستنسخها على يد وراقي العصر، والعديد من هذه المؤلفات قد استنسخ من المخطوطات التي كانت محفوظة بالكتبخانة الخديوية في مقرها القديم بدرب الجماميز في القاهرة المعزية.

وقد كان استنساخ نوادر الكتب الخطية من جملة اهتمامات الملوك العلويين الأشراف منذ عهد مولاي إسماعيل الذي أسند لبعض العلماء من ذوي الخطوط الجميلة استنساخ نوادر المؤلفات، ونذكر من هؤلاء المعطي بن عبد الله اللمطي الذي نسخ بأمر من مولاي إسماعيل عددا من الكتب منها شرح ألفية ابن سينا في الطب لأبي الوليد ابن رشيد القرطبي الحفيد، وهو من ذخائر الخزانة الحسنية.

ومن الجدير بالذكر أن السلطان مولاي الحسن كانت له - إلى جانب الخزانة القارة في باب النمورة بفاس - مكتبة متنقلة تصاحب ركابه أينما حل وارتحل، ومن هذه المجموعة مصنفات كتب عليها قيم الخزانة عبارة «من الكتب المصاحبة للركاب الشريف» وقد أشرنا إلى بعضها في الفهارس التي أصدرناها.

هذا ومن المخطوطات ما يحمل تقاييد خارجة عن المتن ذات قيمة علمية أو تاريخية ملحوظة كسماعات العلماء وطررهم، ومنها مخطوطات قيد عليها اسم من كانت في نوبته من الملوك والرؤساء كالسلطان أبي سعيد المريني الذي كانت في حوزته نسخة عتيقة أندلسية من كتاب «الأحكام السلطانية» لأبي الحسن علي الماوردي، والسلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي الذي كتب بخطه الجميل تعليقاً على نسخة من مقدمة ابن خلدون، وكالسلطان مولاي سليمان العلوي الذي كتب بخطه عقد تحبيس لكتاب في علم القراءات (حاشية على حرز الأماني لأبي عمرو الداني) من تأليف محمد بن عبد السلام الفاسي وبخطه، وقفه مولاي سليمان على أبنائه وأحفاده المعتنين بهذا الفرع من علوم القرآن.

ومن مميزات قسم المخطوطات اشتماله على عدة نسخ من كثير من المؤلفات الهامة مما ييسر للطالب والباحث مهمة التحقيق والتوثيق.

وفضلا عن ذلك فإن بالخزانة نفائس من فن التجليد والتذهيب والزخارف الملونة والخطوط الجميلة المغربية والمشرقية، ومن الروائع في هذا الباب نسخة فريدة من كتاب التنزيل في هجاء المصاحف لسليمان بن نجاح الأموي الأندلسي (496 هـ)، ونسخة مصورة من كليلة ودمنة - ترجمة ابن المقفع - كتبت في القرن الخامس الهجري، وهي مزدانة بعدد من اللوحات المصورة التي أثارت فضول بعض الباحثين الغربيين والعرب، ومن ذلك أيضاً نسخة نادرة مصورة من كتاب الأغاني للأصبهاني.

2) قسم الوثائق، ومحفوظاته كلها راجعة إلى عهد الدولة العلوية الشريفة، وفيها المعاهدات وعقود البيعة

وسجلات الدولة ودفاتر الحسابات وحركة الموانئ والمكاتبات الرسمية والخاصة.

3) قسم المطبوعات، وفيه عدد من النوادر المطبوعة في فاس والقاهرة وبيروت والهند، وبعض المطبوعات التي أنجزت في روما، بحروف عربية ولاتينية، في القرن السادس عشر، ككتاب القانون لابن سينا، وترجمة لاتينية للقرآن الكريم. ومعظم مطبوعات الخزانة من الكتب المتخصصة في التراث العلمي الإسلامي، ومنها فهارس مخطوطات كبريات المكتبات العالمية. وتتوافر الخزانة على اعتمادات مالية لاقتناء الكتب الجديدة فضلا عما يصلها من طريق التبادل والإهداء.

4) قسم الإحصاء، الذي يترصد نشاط الخزانة وحركة القراء الوافدين عليها وما تقدمه من خدمات على سبيل التبادل والتعاون وتيسير عمل الطلاب والباحثين، ويصدر القسم نشرة إحصائية شهرية وأخرى سنوية، وقد بدأ هذا القسم نشاطه عام 1980.

5) القسم الإداري الذي يتولى أيضا الأعمال الخاصة بالتبادل وتوزيع مطبوعات الخزانة وتلبية طلبات المؤسسات العلمية وتزويدها بصور المخطوطات. وفي هذا السبيل أصدر صاحب الجلالة الملك أمره بتجهيز الخزانة بما تحتاج إليه من الآلات الدقيقة للتصوير وقراءة الشرائح المصورة وغير ذلك، ولاشك أن تجهيزا فنيا من هذا النوع سوف يزيد في تحسين الخدمات التي تقدمها المكتبة للباحثين وللهيئات العلمية.

مطبوعات الخزانة وفهارسها الوصفية

أصدرت الخزانة الحسنية عدة مطبوعات فهرسية، وهي :

1) مقتبسات من نوادر المخطوطات ـ الخزانة الملكية 1398 ـ 1978، اختيار الأستاذ محمد المنوني وتقديم الأستاذ عبد الرحمن الفاسي.

2) فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف، الجزء الأول، تصنيف الأستاذ المنوني 1403 ـ 1983.

3) فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات، تصنيف الأستاذ محمد عبد الله عنان.

4) الفهرس الوصفي لمخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، تصنيف محمد العربي الخطابي.

5) الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات والفلك والجغرافيا وأحكام النجوم، تصنيف محمد العربي الخطابي.

6) الفهرس الوصفي لمخطوطات المنطق وآداب البحث والموسيقى ونظم الدولة والفنون الحربية وجوامع العلوم، تصنيف محمد العربي الخطابي.

7) الفهرس الوصفي لمخطوطات الكيمياء والمرائي والعلوم الخفية، تصنيف محمد العربي الخطابي.

8) الفهرس الوصفي لمخطوطات علوم القرآن (القراءات والتجويد وضبط الرسم القرآني والتفسير) تصنيف محمد العربي الخطابي. وهذا المجلد موجود تحت الطبع.

9) فهرس الوثائق المحفوظة بالخزانة الحسنية، المجلد الأول (الكنانيش) إعداد عمر عمُّور.

10) فهرس الوثائق، المجلد الثاني (المراسلات) إعداد أمينة التاير وحميد مومو، وهو تحت الطبع.

وسوف تصدر بقية الفهارس تباعا، بحول الله، على الترتيب التالي :

- السنَّة ومصطلح الحديث والسيرة.
- أصول الدين وعلم الكلام.
- أصول الفقه.
- الفقه.
- الزهد والتصوف والرقائق والحكمة والأخلاق.
- اللغة والمعاجم.
- النحو والصرف.
- البلاغة والبيان وعلم المعاني والبديع.
- العروض والقوافي.

ـ الأدب والنقد الأدبي.

ـ عيون كتب التراث، وهو مجلد سيتضمن ـ بحول الله ـ وصفاً موسعاً للنفائس والنوادر من المخطوطات المحفوظة بالخزانة الحسنية.

هذا وبالإضافة إلى ما تقدم حقق محافظ الخزانة الحسنية، كاتب هذا المقال، كتابين من النوادر الخطية المحفوظة بها، وهما :

1) حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، (في الطب والأعشاب) لأبي القاسم الغساني الشهير بالوزير (القرن العاشر الهجري)، صدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت، عام 1406 ـ 1986.

2) كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال) لعبد الله ابن جزي الغرناطي الكلبي (القرن التاسع الهجري) صدر عن دار الغرب الإسلامي بيروت، عام 1406 ـ 1986.

ويوجد تحت الطبع بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كتاب «علم المواقيت : موضوعه ومناهجه» وهو يضم عددا من الرسائل التي لم يسبق نشرها في هذا الفن أعدها وحققها وقدم لها كاتب هذا المقال.

وقد نشر عدد من الباحثين بتحقيقهم وتعليقاتهم كثيرا من نفائس المؤلفات القديمة اعتماداً على نسخ نادرة محفوظة بالخزانة الحسنية، ويكفي أن نذكر من ذلك «رسالة الصاهل والشاحج» للمعري الذي سبقت الإشارة إليه، وقد صدرت منه طبعتان عن دار المعارف بالقاهرة بتحقيق أستاذتنا العالمة الجليلة الدكتورة عائشة عبد الرحمن أمد الله في عمرها، وكتاب المقتبس في تاريخ الأندلس (الجزء الخامس) الذي حققه بيدرو تشالميطا ومحمد صبح اعتماداً على النسخة الفريدة في العالم المحفوظة بالخزانة الحسنية وقد صدر عن المعهد الإسباني العربي للثقافة عام 1979، ومعظم كتب التراث التي تنشرها ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ ككتاب التمهيد لابن عبد البر، وترتيب المدارك للقاضي عياض، والمحرر الوجيز لابن عطية ـ يعتمد محققوها على نسخ محفوظة بالخزانة الحسنية وبغيرها من خزانات الكتب المغربية؛ ومن جهة أخرى يوجد تحت الطبع كتاب أصول الأحكام لأبي الوليد سليمان الباجي بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ـ من العراق، اعتمادا على نسختين فريدتين إحداهما بالخزانة الحسنية وأخرى بخزانة القرويين. وهذا الكتاب فريد في بابه ومنهجه، وهو من أصول المالكية.

هذا وقد أعد كثير من الطلاب المغاربة والأجانب أطروحاتهم الجامعية مستعينين بمخطوطات الخزانة ووثائقها، ومن ذلك أطروحة نال بها الطالب الإنجليزي دانيال جوناثان شرويتر درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة مانشستر، وموضوعها التاريخ الاجتماعي لمدينة الصويرة وأهميتها التجارية في القرن التاسع عشر الميلادي.

☆ ☆ ☆

لقد أقيم بردهات الخزانة الحسنية معرض للنفائس المحفوظة بها من المخطوطات والوثائق التاريخية، وهو متعة الزوار يعرب عن مكونات تراثنا العلمي والإبداعي بأجلى بيان، والهمة منصرفة إلى تجديد النظام التصنيفي والفهرسي والبيبليوغرافي للخزانة وصيانة موجوداتها وفقاً للأساليب التي يتيحها عصرنا ليزداد إشعاعها وتتعزز مكانتها في ميدان خدمة العلم وأهله.

وتتميما للفائدة نختم هذا المقال بملحق إحصائي وهو ملخص لتقرير سنة 1985، أعده عبد الحميد مومو المسؤول عن مصلحة الإحصاء بالخزانة.

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 1
توزيع مستعملي الخزانة حسب الجنس
1 ـ الذكور

الشهــور	داخل المغرب	خارج المغرب	المجموع	النسبة المئوية
يناير	08	01	09	5,36
فبراير	05	01	06	3,57
مارس	03	02	05	2,98
أبريل	06	03	09	5,36
ماي	04	03	07	4,16
يونيو	03	01	04	2,38
يوليوز	11	06	17	0,11
شتنبر	07	04	11	6,55
أكتوبر	22	04	26	15,48
نونبر	13	02	15	8,93
دجنبر	14	—	14	8,33
المجموع	96	27	123	73,21

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 1 (تابع)

توزيع مستعملي الخزانة حسب الجنس

2 - الإناث

الشهـــور	داخل المغرب	خارج المغرب	المجموع	النسبة المئوية
يناير	03	00	03	1,79
فبراير	02	00	02	1,19
مارس	00	01	01	0,59
أبريل	01	01	02	1,19
ماي	01	00	01	0,59
يونيو	00	00	00	—
يوليوز	03	00	03	1,79
شتنبر	02	01	03	1,79
أكتوبر	16	00	16	9,52
نونبر.........	05	00	05	2,98
دجنبر	09	00	09	5,36
المجموع	42	03	45	26,78

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 2
توزيع مستعملي الخزانة حسب المهنة
1 ـ داخل المغرب

الشهور / المهنة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
الطلبة	07	05	00	01	01	02	04	03	27	17	20	87	51,78
المدرسون	04	02	03	05	02	01	08	06	10	01	03	45	26,78
الموظفون الإداريون	—	—	—	—	02	—	02	—	—	—	—	04	2,38
مفتشو التعليم	—	—	—	—	—	—	—	—	01	—	—	01	0,60
الصحفيون	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	—	01	0,60
المجموع	11	07	03	07	05	03	14	09	38	18	23	138	82,14

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 2
توزيع مستعملي الخزانة حسب المهنة
2 ـ خارج المغرب

الشهور / المهنة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
الطلبة	01	—	03	03	01	02	02	02	04	01	—	18	10,71
المدرسون	—	01	—	01	02	—	02	03	—	—	—	10	5,95
الموظفون الإداريون	—	—	—	—	—	—	02	—	—	—	—	02	1,19
المجموع	01	01	03	04	03	01	16	05	04	01	—	30	17,85

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 3

توزيع مستعملي الخزانة حسب التخصص

1 - داخل المغرب

الشهور / التخصص	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
التاريخ	02	01	—	02	01	01	06	01	17	06	11	48	28,58
الدراسات الإسلامية	03	05	01	01	—	02	02	08	12	04	09	47	27,98
الأدب العربي	02	01	02	01	—	—	04	—	09	06	01	26	15,48
العلوم الإدارية	—	—	—	—	01	—	01	—	—	—	—	02	1,19
القانون الخاص	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	02	1,19
القانون العام	—	—	—	01	—	—	—	—	—	01	—	02	1,19
الصحافة	02	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
علم النفس	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
الخط العربي	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
العلوم السياسية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	01	0,59
الجغرافية	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
المجموع	09	07	03	06	04	03	14	09	38	17	23	133	79,16

ملاحظة :
5 قراء لم يبينوا التخصص :
اثنان بالنسبة لشهر يناير
واحد بالنسبة لشهر أبريل
واحد بالنسبة لشهر ماي
واحد بالنسبة لشهر نونبر

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 3 (تابع)
توزيع مستعملي الخزانة حسب التخصص

2 - خارج المغرب

الشهور / التخصص	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
التاريخ	01	01	03	03	01	—	—	—	02	01	—	12	7,14
الأدب العربي	—	—	—	—	01	01	02	02	12	01	—	09	5,36
الدارسات الإسلامية	—	—	—	01	01	—	03	—	—	—	—	05	2,98
الفلسفة	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
علوم التربية	—	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	01	0,59
المجموع	01	01	03	04	03	01	06	03	04	02	—	28	6,66

ملاحظة :
قارئان لم يبينا التخصص (شهر شتنبر)

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 4
توزيع مستعملي الخزانة حسب المؤسسة والمدينة

1 - داخل المغرب

المؤسسة	المدينة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
كلية الآداب	الرباط	03	04	01	—	02	01	07	04	21	09	12	64	38,09
كلية الآداب	فاس	—	01	—	01	—	01	02	04	09	02	01	21	12,50
كلية الآداب عين الشق	البيضاء	01	02	—	—	—	—	—	—	04	05	02	14	8,33
دار الحديث الحسنية .	الرباط	—	—	01	01	—	01	02	01	02	—	06	14	8,33
كلية الحقوق	الرباط	—	—	—	02	—	—	—	—	—	02	01	05	2,97
كلية الآداب	وجدة	—	—	—	—	—	—	01	—	02	—	—	03	1,78
المعهد العلمي	الرباط	02	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
المعهد العالي للصحافة	الرباط	02	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
كلية الشريعة	فاس	02	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
كلية الآداب	تطوان	—	—	01	01	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
كلية الحقوق	البيضاء	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	02	1,19
المدرسة الإدارية	الرباط	—	—	—	—	01	—	01	—	—	—	—	02	1,19
كلية علوم التربية . .	الرباط	01	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
المركز الوطني للبحث العلمي	الرباط	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
معهد التعريب	الرباط	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
الأمانة العامة للحكومة	الرباط	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
خزانة تمكروت	تمكروت	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
المجموع		11	07	03	07	05	03	14	09	38	18	23	138	2,14

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 4 (تابع)

توزيع مستعملي الخزانة حسب المؤسسة والمدينة

2 - خارج المغرب

المؤسسة	المدينة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
جامعة الصربون . . .	باريز	—	—	02	01	—	—	01	—	—	—	—	04	2,39
جامعة تولوز	تولوز	01	—	01	01	—	—	—	—	—	—	—	03	1,79
كلية التربية	طرابلس	—	—	—	—	01	—	—	—	02	—	—	03	1,79
كلية الآداب	القاهرة	—	—	—	—	—	—	—	01	01	01	—	03	1,79
كلية الشريعة	الرياض	—	—	—	—	—	—	02	—	—	—	—	02	1,20
دار المعلمين العليا . . .	بنزرت	—	—	—	—	—	—	—	02	—	—	—	02	1,20
معهد التاريخ	الجزائر	—	01	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
كلية الآداب	تونس	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
كلية الشريعة	أم القرى	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
جامعة مدريد	مدريد	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
كلية أصول الدين . .	الرياض	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	—	01	0,59
جامعة اكس ان بروفانص	اكس ان بروفانص	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	—	01	0,59
معهد الأدب	وهران	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
جامعة الأزهر	القاهرة	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
كلية الآداب	غرناطة	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
كلية التربية	سبها	—	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	01	0,59
جامعة باريز 5	باريز	—	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	01	0,59
جامعة قاريونس . . .	بنغازي	—	—	—	—	—	—	—	—	01	—	—	01	0,59
جامعة أوتا	الولايات المتحدة الأمريكية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	—	01	0,59
المجموع		01	01	03	04	03	01	06	05	04	02	—	30	17,85

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 5
توزيع مستعملي الخزانة حسب الشهادة المحضرة

1 - داخل المغرب

الشهور / الشهادة المحضرة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
الإجازة	05	04	—	—	—	—	03	04	26	17	10	69	41,07
دبلوم الدراسات العليا	03	03	03	04	02	03	08	05	12	01	13	57	33,93
دكتوراه الدولة	—	—	—	02	01	—	01	—	—	—	—	04	02,38
شهادة الأهلية	01	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	0,59
شهادة نهاية الدروس	—	—	—	—	—	—	01	—	—	—	—	01	0,59
المجموع	09	07	03	06	03	03	13	09	38	18	23	132	78,57

ملاحظة :
ستة قراء لم يبينوا نوع الشهادة المحضرة :
قارئان بالنسبة لشهر يناير.
قارئان بالنسبة لشهر ماي.
قارئ بالنسبة لشهر أبريل.
قارئ بالنسبة لشهر يوليوز.

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 5 (تابع)
توزيع مستعملي الخزانة حسب الشهادة المحضرة
2 ـ خارج المغرب

الشهور / الشهادة المحضرة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع	النسبة المئوية
دبلوم الدراسات العليا	—	01	03	03	03	01	05	02	04	01	—	23	13,69
دبلوم الدراسات المعمقة	01	—	—	01	—	—	—	—	—	—	—	02	1,19
دكتوراه الدولة	—	—	—	—	—	—	—	—	—	01	—	01	0,59
المجموع	01	01	03	04	03	01	05	02	04	02	—	26	15,47

ملاحظة :
أربعة قراء لم يبينوا نوع الشهادة المحضرة :
قارئ بالنسبة لشهر يوليوز.
ثلاثة قراء بالنسبة لشهر شتنبر.

الجدول الإحصائي الإجمالي رقم 6
المخطوطات المصورة

الشهور / المخطوطات المصورة	يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر	المجموع
عدد العناوين	03	07	01	02	01	—	07	—	—	—	—	21

تكريم الأمة المغربية في عهد الحسن الثاني

للأستاذ أحمد مجيد بنجلون
مستشار قانوني بالديوان الملكي

ليس قصدي ولا في نيتي التعريف بمنجزات وعبقرية ومواهب ملكنا الصالح نصره الله لأنها غنية عن كل تعريف، ولا أن أدلي بشهادة، لأنه، وهو القائد الملهم، يشهد له الحب العميق الذي يكنه له شعبه الشكور والتعلق المتين الذي تخص به أُمته عرشه الصامد، وتوجيهاته النيرة التي حققت المعجزات، وأبهرت العالم، وأربكت الخصم والعدو.

وإنما سأقصر كلمتي هذه على جانب خاص من تلك الملحمة الخالدة التي قادها ملكنا العظيم بوطنية خالصة، وعبقرية هادفة، وعاطفة دفاقة، وشغف لاينقطع، وطموح مقدس لأنه موجه لفائدة الأمة قصد تحقيق أهداف الأمة.

لقد اتفق رجال القانون على أن مهمة الدولة، أي وسيلة الحكم، تنحصر في ثلاثة ميادين : التنظيم، والتشريع، والقضاء، وطبعا، فإن لكل من هذه الميادين مميزاته وخصائصه وأخلاقه. وتمتاز الأنظمة الديمقراطية الحقة بالتوازن الذي تحققه بين هذه المهام.

هذا التوازن المنشود، جعل منه جلالة الحسن الثاني حقيقة ملموسة، وذلك بالاستناد على قواعد الجوهر، لا على قواعد الشكل.

إن النظام الذي نعيش في ظله يخضع قبل كل شيء إلى قاعدة أساسية في كل مجتمع متحضر وهي قاعدة تكريم المواطن مصداقا لقوله تعالى : ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾.

وهذا التكريم يتجلى بكيفية إيجابية في الحفاظ على حقوق المرء، والسهر على حرياته، والذود عن كرامته، وصيانة حريته، والدفاع عن مكتسباته.

توجد عدة دول لجأت في تحديد قواعدها الدستورية إلى التقنيات المعروفة فنسقت ونظمت، وأباحت وفرضت، ومنعت وراقبت، استنادا إلى ما يفرضه التعايش السليم بين مختلف مؤسساتها السياسية. إلا أن ما يمتاز به نظامنا الدستوري هو أن جميع القواعد تأخذ بعين الاعتبار ما يفرضه احترام الكرامة البشرية.

لقد صرح جلالته حفظه الله، جواباً على سؤال أحد الصحفيين، بأن أعز ما يتذكره حدثان، أحدهما يوم أن وفر دستورا لشعبه. ولنفس السبب، يمكن لكل مواطن أن يؤكد

بأن ذلك اليوم يكون حجرا أساسيا في البناء الضخم الذي شيده عاهلنا المفدى لفائدة شعبه، لأنه كان مناسبة أبرز فيها التلاحم الموجود بين القاعدة والقمة، ولأنه يوم خلد تثبت الملكية بحقوق كل فرد من أفراد أمتها، خلقية كانت أم مادية.

إن المواطن المغربي يتوفر في هذا الميدان على رصيد من القوانين قل نظيره، بل إن صيانة حرية الفرد نظمت بكيفية دقيقة احتاجت إلى عشرات البنود من قانون المسطرة الجنائية، تلك البنود التي يتطلب شرحها وتحليلها مؤلفات ومجلدات.

وكل ميدان من الميادين التي تعنى بالكرامة الفردية يتوفر على ما يعزز جوانبه من النصوص التشريعية : فالحريات العامة أي حرية التجول وحرية التفكير وإبداء الرأي وحرية تكوين الجمعيات، تخضع لتقنين محكم بمقتضى ظهير 15 نونبر 1958 المكون لقانون الحريات العامة.

وجاءت دساتيرنا الثلاثة، فأصرت على التصريح بالمبادئ المتعلقة بمجال حياة الفرد. وهكذا أكدت بكل وضوح :

أنه لا يلقى القبض على أحد ولا يعتقل ولا يعاقب إلا في الأحوال وحسب الإجراءات المنصوص عليها في القانون.

- وأن المنزل لا تنتهك حرمته، ولا تفتيش ولا تحقيق إلا طبق شروط القانون.
- وأن سرية المراسلات لا تنتهك.

وإذا كانت الحرية بجميع معانيها تكون حجر الزاوية في دساتيرنا، فإنه يوجد مبدأ آخر، لا يقل أهمية عن هذه الحرية، بل يعتبر في رأينا أجدى وأنفع منها، وهو مبدأ المساواة، وقد أعطته دساتيرنا وقوانينا معناه الصحيح وأبعاده الإيجابية، مصداقاً لقول النبي الأعظم صلوات الله عليه : «الناس سواسية كأسنان المشط». وفي هذا التعبير ما يغني عن كل تعليق.

وقد أكد دستورنا على الخصوص :

- أنه يمكن جميع المواطنين أن يتقلدوا الوظائف والمناصب العمومية، وهم سواء فيما يرجع للشروط المطلوبة لنيلها.
- وأن التربية والشغل حق للمواطن على السواء.
- وأنه من واجب جميع المواطنين أن يساهموا في الدفاع عن الوطن.
- وأنه من واجبهم أيضا أن يتحملوا، كل على قدر استطاعته، التكاليف العمومية.
- وأنه من واجبهم كذلك أن يتحملوا متضامنين التكاليف الناتجة عن الكوارث التي تصيب البلاد.

وإذا ما نحن أمعنا النظر في المدلول الذي أعطاه دستورنا لمبدإ المساواة فإننا نلاحظ أنه أثراه وأغناه. ذلك أنه لم يكتف بفرض المساواة المتعلقة بالحقوق، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث فرض المساواة فيما يتعلق بالواجبات، وبذلك أكد وجوب وجود التضامن بين أفراد الوطن، ذلك التضامن الذي يكون شرطاً لاغنى عنه، إذا ما نحن أردنا أن تكون أمة بمعناها الديني والاجتماعي والسياسي لا مجرد شعب، يكون طبعا مجموعة سياسية، تربطها روابط المصلحة، ولكن لا تربطها روابط المحبة والإخاء، وقبول التضحية الفردية في سبيل صيانة الجماعة، وقديما عرفت الأمة بأنها حلم بمستقبل مشترك.

أما فيما يخص نظام المجتمع، فقد جاء الدستور بقاعدتين أساسيتين تكون منطلقا لازما لضمان الاستقرار النفساني للفرد والجماعة. ذلك أنه أكد :

- أن حق الإضراب مضمون، وهو مبدأ يصون كرامة العامل.
- وأن حق الملك مضمون، وهو مبدأ يقوي الطموح ويعزز المبادرات والمنجزات.

واحتراما وتزكية لمبدإ التضامن، أضاف الدستور بأنه يمكن للقانون أن يحد من مدى حق الملك، إذا دعت إلى ذلك ضرورة النمو الاقتصادي والاجتماعي المخطط للبلاد.

وتوجد طبعا عدة قوانين تستند على هذه المبادئ فتفرض تطبيقهـــا في مختلف الميـــادين وعلى كـل المستويات.

لقد بذل ملكنا المصلح، أطال الله عمره، مجهوداً جباراً، منذ تسلمه مقاليد الحكم، فرسم وخطط، وبنى وشيد، حتى أصبح مغربنا والحمد لله مثالا يقتدى، وعزز شخصيتنا في الداخل كما فرض احترامنا في الخارج، وأصبح رايتنا التي تثير الإعجاب، كما لم يفتأ أن يكون منارنا الذي أنار وما أنفك ينير طريقنا.

ولكنه، أدام الله عزه وسؤدده، زرع فينا كذلك بذور الإخاء، وركز بيننا تلك المبادئ المثلى التي أصبحت طبيعة لا يتسرب إليها الضعف، وميزة خليقة بالتحبيذ والتأييد.

وإذا كانت منجزاتنا المادية تستحق كل تنويه، فإن منجزات ملكنا الخلقية تحتل الصدارة لأنها أساس كل نعمة ومنبع كل خير.

فلك منا، أيها القائد العظيم، كل شكر، وليحفظنا الله فيك، أنت الرائد الملهم، والملك الصالح المصلح، والأب العطوف والحامي الأمين، والمفكر القويم، والزعيم المسلم الذي أعلى كلمة الله، فكان جزاؤه رضى الله، وتلاحم شعبه الشكور وعرشه المجيد.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

• عليكم أن تعلموا أنه فيما يخص الحسن الثاني، الذي سن سنن الحرية والديمقراطية في هذه البلاد، أن الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن قد فقد حريته منذ أن أصبح أسير قسمه.

الثقافة المغربية

في ظل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

للدكتور عباس الجراري
عضو أكاديمية المملكة المغربية

محاضرة ألقيت بكلية الطب بالرباط مساء الأربعاء 16 أبريل 1986 بمناسبة الأيام الجامعية التي نظمتها في 14 ـ 15 ـ 16 أبريل جامعة محمد الخامس تخليدا للذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين.

سيدي رئيس جامعة محمد الخامس
سيادة رئيس المجلس العلمي للعدوتين
السادة العمداء
أيها الإخوة الزملاء
حضرات السيدات والسادة

بسعادة كبيرة وابتهاج غامر أشارك في الأيام الجامعية التي تنظمها جامعتنا الفتية، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لجلوس حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه الأماجد المنعمين، هذه الذكرى العطرة الميمونة التي حلت تحمل ـ كسابقاتها وأكثر ـ مزيدا من البشائر المجددة للآمال والحافزة للتطلعات والباعثة على مضاعفة الجهود لتحقيق ما يصبو إليه صاحب الذكرى ومعه الشعب المغربي في مضمار التقدم والرقي.

وإنه ليطيب لي أن أتحدث بهذه المناسبة عن موضوع يمس جانبا، هو واحد من الجوانب العديدة التي عرفت الانطلاق والازدهار في العهد الحسني الزاهر، والتي لا مجال لحصرها، فهي تشمل جميع مرافق بناء مغرب ينعم بالحرية والوحدة والقوة والطمأنينة والرفاهية.

الموضوع هو : «الثقافة المغربية في ظل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني».

في البدء أود أن أطرح الإطار البيئي الذي انطلقت منه هذه الثقافة في مسيرتها على امتداد ربع قرن، إذ لا أرى الثقافة إلا مرتبطة بالبيئة التي ظهرت فيها وما يتحكم

فيها من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، وهو إطار متحرك ينبثق منه نمطان : أحدهما عام والآخر خاص، إلا أنهما متداخلان ومتكاملان لوجود ملامح مشتركة وأخرى مميزة يتفرد بها المغرب، كما يتميز غيره بخصوصيات غير متوافرة فيه.

أما العام فمتعلق بالمشرق العربي الذي عاش منذ القرن الماضي وطوال النصف الأول من القرن الحالي حركة ثقافية متنامية، أتاحتها له طبيعة الفترة والعوامل الفاعلة فيها، على الرغم من الاستعمار الذي عرفته بلدانه، والذي كان بنوعيته وسلوكه لا يحول كثيرا دون هذه الحركة، وقد أفاد المغرب منها غير قليل.

إلا أن بعض تلك البلدان لم تلبث منذ أوائل سنوات الخمسين أن تعرضت لهزات أحدثت فيها ارتجاجا كانت له بعض النتائج التي انعكست على نهضتها الثقافية بالسلب، حين حولت اتجاهها الحر المتفتح لتكيفه مع معطيات المرحلة الجديدة.

ثم حلت هزيمة سبع وستين (1967) وما أعقبها، إلى أحداث لبنان وحرب الخليج، فوقع الاضطراب واتسع نطاق التمزق، وتقوقعت الثقافة، وحبس المثقفون أنفسهم أو وجدوا أنفسهم محبوسين داخل دائرة مغلقة تحكمها وتتحكم فيها المؤثرات العسكرية والسياسية بكل ما يعمل فيها من تناقضات لم تؤد إلى غير التشاؤم، إن لم أقل إلى اليأس الذي لم يلبث أن انعكس على طرحهم لقضايا الثقافة وأثر عليها؛ وهم الذين لم تكن لهم أية مسؤولية فيما حدث من وقائع، وإن تحملوا عناء مواجهة ما نتج عنها بعد.

وأما النمط الخاص ـ ويتعلق بالمغرب ـ فتكاد تكون الصورة فيه معكوسة، إذ عانى منذ منتصف القرن الماضي ظروفا متأزمة لم تفرز غير ثقافة اجترارية زاد عهد الحماية قطوفها إلى حد الاختناق، مما ولد في نطاق هذه الثقافة تيارا نضاليا قاوم الاستعمار بروح جهادي كان يرفض جميع مخططات سياسته، تلك السياسة التي كانت تسعى جاهدة إلى محاربة كل تحرك ثقافي أو تعليمي مهما كان بسيطا، ولو في إطار لغة المستعمر وثقافته.

واسترجع المغرب سيادته، فخفت ذلك الروح، وانصرف المتعلمون ـ وهم يومئذ قلة ـ إلى العمل في مؤسسات الحكومة وأجهزتها الإدارية، وتسرب شعور عام بالانتشاء لم يفق المغاربة منه إلا بعد سنوات من ممارسة الاستقلال وظهور بعض أخطاء هذه الممارسة.

وليس من قبيل المصادفة أن تكون هذه الصحوة قد وافقت تولي جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله سنة إحدى وستين، بعد أن استأثر الله تعالى بالسلطان المكافح بطل التحرير سيدنا محمد الخامس قدس الله روحه.

ودخل المغرب في عهد جديد بدأت معه مسيرة واعية مسؤولة وجادة حازمة لم تلبث أن أنتجت ثقافة متطورة ومزدهرة مواكبة للنمو الاقتصادي والاجتماعي، إذ هيىء لها مناخ تنفست في أجوائه نسمات الخصب والنماء، وارتبطت في أرضه بواقع المجتمع وما يعمل فيه من ظروف وشروط ويؤثر فيه من قضايا ومواقف.

☆ ☆ ☆

وإن لهذا المناخ أسبابا فعلت فيه لا مناص من ذكرها، وأهمها في اعتقادي ثلاثة :

أولا : وجود قيادة على رأس الأمة تتميز بمكانة ثقافية قل لها نظير، إن لم أقل إنها متفردة ـ مهما كان المقياس المنظور منه ـ سواء على مستوى العصر والتاريخ أو على صعيد المغرب والعالم.

وليس يخفى أن ملوك المغرب الكبار كانوا دائما من ذوي المعرفة والعلم؛ وهي ظاهرة وقف عندها المؤرخون باعتبارها ملازمة لنوعية الحكم وطبيعته في هذا البلد، إلى حد جعلهم يستغربون حين لم يصادفوها، وإن في حالات نادرة لعل أبرزها حالة يوسف بن تاشفين الذي أزعج كثيرا من دارسيه بسبب قلة زاده في العلوم.

إلا أن ثقافة جلالة الحسن الثاني فاقت كل ما هو معهود، بشموليتها وتنوعها، وأصالتها وتفتحها، وبما يصحبها من وعي عميق، ورؤيا نافذة، وطاقة استيعابية، وقدرة إبداعية في مختلف مجالاتها وفنون تعبيرها وبشتى الأدوات.

ثانيا : الحرية، وتعتبر اختيارا لاشك أنه في طليعة الاختيارات الحسنية، وإذا كانت الحرية تتمثل من حيث الشكل في التوجه الديموقراطي الذي يسير المغرب عليه، بناء على دستور وحريات عامة وتعددية حزبية وبرلمان ومجالس منتخبة في مستويات متعددة وأصعدة مختلفة، فإنها من حيث العمق تتبلور في الجو العام الذي يتنفسه كل مواطن، والذي قد يعيه أو لا يعيه، ولكنه حتما يحسه ويدرك قيمته حين ينقله السفر - ولو عابرا - إلى بيئة أخرى ينعدم فيها هذا الجو.

والحرية التي تفيد منها الثقافة تنطلق من هذا المجال لتكتسب مفهوما يجعلها وثيقة الصلة بالوجود الاجتماعي القائم على التساكن، بما يقتضي من حرية ذاتية وجماعية، أو حرية الذات في نطاق حرية الجماعة. وهذا هو المفهوم الذي يتيح انطلاق الفكر وإمكان التعبير عن الرأي وإبداء الموقف وقدرة الاختيار وتحقيق الإرادة والشعور بالمسؤولية وتحملها بعد ذلك.

ولاشك أن الحرية بهذه الأبعاد وعي وممارسة وإحساس بالغير لقبوله والتعايش معه، باعتبار هذا التعايش يصبح واجبا داخل كيان يحمي فيه كل طرف نفسه ويحمي الآخر في ذات الوقت ليس فقط من عناصر التسلط والاغتصاب الخارجية، ولكن من عوامل التحطيم والتدمير الداخلية كذلك.

ثالثا : انتشار التعليم باعتباره رديف الثقافة أو ربيبها ورافدها الأول ومجال تحركها الأساسي والمباشر. وكانت نسبة هذا الانتشار ضئيلة في عهد الحماية لا تذكر؛ ولو شئت الإشارة لسقت مثالا واحدا هو أن إدارة التعليم لم تنشىء طوال هذا العهد سوى ثانويات يقل عددها عن أصابع اليد الواحدة. ولولا أن الرمق ظل مشدودا بمؤسسات التعليم العربي الحر والتعليم الأصيل الذي حافظت عليه جامعة القرويين وما يماثلها في مختلف مساجد المغرب وزواياه، لما وجد المغرب غداة الاستقلال أداة ولو أولية لبناء هذا الاستقلال.

وإذا كان الملك المغفور له محمد الخامس قد أسس الجامعة في الرباط سنة سبع وخمسين - وقد استمعنا في كلمة سيادة رئيسها أول أمس إلى ما عرفته من ازدهار في عهد جلالة الحسن الثاني حفظه الله - فإن لبنتها لم تلبث في هذا العهد أن نمت وترعرعت إلى حد أصبحت مؤسسات التعليم العالي تصل اليوم إلى خمس وأربعين كلية موزعة على ست جامعات لها فروع في إحدى عشرة مدينة، دون التحدث عن مراكز البحث العلمي ومدارس التكوين والمعاهد المتخصصة التابعة لوزارات مختلفة. وقدتحدث معالي نائب الوزير الأول ووزير التربية الوطنية في خطاب افتتاح هذه الأيام أول أمس عن النمو الحادث في التعليم الجامعي بما يغني عن كل تكرار. ولمعرفة التطور الهائل الذي عرفه قطاع التعليم العالي في المغرب - وهو مقياس لاشك لقوة روافده من الابتدائي والثانوي - يكفي أن أسوق أرقاما تمثل عدد الطلبة الجامعيين. ففي سنة ستين كان عددهم اثنين وستين وخمسمائة وأربعة آلاف طالب، وفي عام أربعة وثمانين بلغ عشرين وتسعمائة وتسعة عشر ومائة ألف. وقد وصل العدد في العام الحالي إلى نحو أربعة وثلاثين ألفا ومائة ألف، يضاف إليه خمسة وعشرون ألف طالب يدرسون في الجامعات بالخارج.

وعلى الرغم من الكم الضاغط ظرفيا على سير التعليم الجامعي والمؤثر على نوعيته، فإن من بين هذا الكم نبغت وتنبغ أجيال من المثقفين سعوا ويسعون بمعارفهم العلمية وخبراتهم العملية ومالهم من قدرات ذهنية وطاقات إبداعية، إلى تنمية البلاد وتطويرها في مختلف المجالات، مومنين برسالتهم ومسؤوليتهم، وواعين بواقعهم وبالمبادىء والاختيارات والأهداف، ومستعدين لأخذ زمام المبادرة والنهوض بأعباء التطور والتقدم.

إلى هذه الأسباب الثلاثة، لابد من التحدث عن بعض المظاهر التي تعد عوامل تحريك للثقافة ونتائج لهذا التحريك في نفس الوقت، وهي عديدة أكتفي بالإشارة إلى أبرزها، وهي :

أولا : إقامة أجهزة للثقافة، في طليعتها وزارة الشؤون الثقافية، وأكاديمية المملكة المغربية، والمجالس العلمية الإقليمية. ومعها أذكر بعض المؤسسات التي تعنى أيضا بالثقافة كوزارات التربية الوطنية، والشبيبة والرياضة، والأوقاف والشؤون الإسلامية، والصناعة التقليدية والشؤون الاجتماعية. ولعلي أن أذكر مرافق أخرى كالمكتبات، ولا سيما الخزانة الحسنية التي فتح جلالة الملك أبوابها لعموم الباحثين والدارسين في مارس من سنة اثنتين وستين، وهي تحافظ على ثروة هائلة من المخطوطات والوثائق تكمل ما تزخر به الخزائن المغربية كخزانة القرويين التي كان جلالته في كلمة سامية ألقاها في حفل إحياء ذكرى وفاة والده المغفور له محمد الخامس مساء عاشر رمضان عام أربعة وأربعمائة وألف الموافق عاشر يونيو سنة أربع وثمانين قد وعد بإلحاقها بالقصر الملكي في فاس وإعادة تنظيمها لتؤدي رسالتها على أكمل وجه. وإن المكتبة العامة بالرباط لتنتظر مثل هذه العناية بعد أن تعثر للأسف تطويرها إلى مكتبة وطنية عصرية. كذلك أذكر «اللجنة الوطنية للثقافة» التي تعد شبه مجلس أعلى لشؤونها، وهي مكتسب كبير أخشى عليه أن يضيع وتضيع فرصة الاستفادة منه إذا طال منه موقف التجميد. وأود بعد هذا أن أشير إلى الجوائز الثقافية، ولا سيما جائزة المغرب وجائزة الحسن الثاني للمخطوطات. وفي نطاق هذا العمل المرتبط بالمؤسسات، يشار إلى اتحاد كتاب المغرب وما إليه من اتحادات ورابطات وجمعيات تنشط المجال الثقافي، سواء على الصعيد الوطني أو الإقليمي المحلي، رغم ما يعانيه بعضها من تأزم.

ثانيا : تعدد وسائل نشر الثقافة، بدءا من الكتاب واللوحة إلى المسرح فأجهزة الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة. وكمثال على تطور هذه الوسائل ونمو فاعليتها، يمكن الإشارة إلى أنه في سنوات الستين كانت تمر سنة أو أكثر قبل أن يصدر مؤلف مغربي واحد، في حين بلغ ما صدر في السنة الماضية نحو خمسمائة عنوان ما بين كتب ومجلات وما تصدره الجهات الرسمية من منشورات، وهو رقم دال حتى على ما يكمن خلف إخراج هذه الأعمال من وسائل وإمكانات للطبع والنشر والتوزيع، وإن كان التوزيع ما زال متعثرا مما يجعل تلك الأعمال لا تجد طريقها للقراء خارج المغرب، على الرغم من تعطشهم لها، بل ربما يجعلها تبقى حبيسة مدينة المؤلف أو الناشر.

☆ ☆ ☆

كان طبيعيا إذن والثقافة المغربية تعيش هذا المناخ، أن ينبثق عنها مضمون ينسجم مع السياق الذي اختارت السير فيه. ولعل أبرز ما يميز هذا المضمون أمران أو همّان اثنان :

الأول : البحث عن الذات والكيان وعن طبيعة الشخصية والمجتمع، أقصد البحث ليس عن شيء لم يكن موجودا، ولكن عن شيء كان موجودا ضاع أو أفلت زمامه، فالسعي حثيث إلى إعادة لقائه أو تجديد تكوينه. إلا أن عملية البحث هذه ـ وهي مستمرة ـ لا تتم بدون مواجهة واقع حضاري يبدو مشدودا إلى عالم خارجي عن الذات بكل ما يواجه هذه املية البحث هذه ـ وهي مستمرة ـ لا تتم بدون مواجهة واقع حضاري يبدو مشدودا إلى عالم خارجي عن الذات بكل ما يواجه هذه العلاقة أو يتحكم فيها من عوامل داخلية وخارجية هي في الغالب ذات طابع سياسي واقتصادي واجتماعي.

وارتباط الأمة بعناصر ذاتها من جهة، ثم بتلك العوامل من جهة أخرى، كون نزاعا ثقافيا يتجلى في ألوان من الصراعات الخفية والظاهرة التي لا انفكاك منها، أي لا حل لها إلا بالانتهاء إلى اختيارات تفضي إليها الأمة باقتناع.

ولم يكن الأمر سهلا على الإطلاق، لأنه غير موقوف على رغبة الذات وتوقانها وما تشعر به من حنين وحاجة، ولكن لأنه لا مناص له من مراعاة المؤثرات المختلفة التي تفعل في المجتمع، سواء منها ما كان داخليا أو خارجيا. وهي معادلة لا تفك إلا بفتح الحوار الصريح والواضح بين المقومات الثابتة والجهود الرامية إلى التطوير والتجديد برؤية لا ينفصل فيها الواقع عن النظر إلى الماضي والتطلع للمستقبل، مع نبذ التقليد ونقد التبعية كذلك.

الثاني : الاندماج في العالم ومع الآخرين. والآخرون هنا فئتان مختلفتان :

1 ـ فئة تمثل الشعوب العربية والإسلامية والإفريقية التي يلتقي المغرب معها في كثير من الظروف والأحوال وعديد من الخصائص والمميزات، وكذا بعض المشاكل والهموم، بما فيها حل المعادلة الحضارية الثقافية. وهذه فئة لا شك أنها قريبة إلى الذات المغربية إن لم أقل إنها جزء منها أو تكاد. ومن ثم لا مجال للاندماج فيها أو معها إلا بالاعتماد على العناصر المشتركة التي تكمن بالدرجة الأولى في الأصالة، دون إهمال عوامل الواقع المتحرك والتطلعات لتحقيق أهداف هي بدون ريب واحدة أو متقاربة. ومن الحق القول بأن الأمر لم يكن سهلا، وهو ليس سهلا بالفعل، على الرغم من محافظتنا على الكثير من مظاهر الأصالة واعتزازنا بها. ذلكم أن المغرب ـ بحكم أسباب كثيرة لعل من بينها وجوده على رأس القارة الإفريقية وفي أقصى العالم العربي والإسلامي وعلى مقربة من أوربا وفي أدنى نقطة منها وإحساسه نتيجة ذلك بمسؤولية عليه أن يتحملها ـ يسعى كما فعل دائما إلى أن يصون ما اجتمع فيه مما هو متفرق في غيره، وإلى أن ينهض بالرسالة في شموليتها وتكاملها وباستمرار، وإن اضطلع بها أشتاؤه موزعة أو بالتناوب.

2 ـ فئة تمثلها الأمم والشعوب الأخرى، وفي طليعتها الغرب الذي يختلف عنا، ولكنه حاضر يفرض وجوده علينا. وهو وجود مر بمرحلتين :

الأولى : مرحلة استعمارية اتسم فيها دوره بمحاربة الثقافة المغربية في مختلف ظواهرها ومظاهرها والعناصر المؤدية إلى تكوينها وخاصة منها التعليم. وقد انتهت هذه المرحلة باسترجاع الاستقلال، إلا أن آثارها لم تنمح بعد، وأحسبها ستظل في الذاكرة مرسومة ومطبوعة إن على مستوى الفرد أو الجماعة.

الثانية : مرحلة التعاون والتبادل، ولكن ميزان القوى فيها مختل بحكم تفوق الغرب في مجال العلوم والتكنولوجيا، والحاجة المستمرة والمتزايدة إلى خبرته وإنتاجه في هذا المجال.

وعلى الرغم من الموقف المتأرجح في الأعماق بين الرفض والقبول، فإن هذه الحاجة ومايتولد عنها من استهلاك جعل الطريق أقرب إلى القبول، وإن في اعتمال باطني يزيد في حدة الإشكالية وصعوبة المعادلة. وقد ساعد على تقريب الطريق كذلك كون النمط الحضاري والثقافي الغربي أصبح شيئا فشيئا يكتسب صبغة العالمية.

ومع ذلك، فإن هذه الظاهرة أوجدت لنا مع الغرب علاقات وظيفة لم تلبث بدورها ـ ونتيجة ذلك ـ أن أتاحت روابط حوار، بل أتاحت في الحقيقة تجديد هذه الروابط، لأن الحوار كان دائما موجودا في التاريخ، سواء حين كان ميزان القوى راجحا نحونا أو نحو الغرب. إلا أن حوارنا اليوم معه دخل طورا آخر نحاول فيه تعدي جميع الحواجز التي تفصل بين التقدم والتخلف، لنلتقي به في وسط الدائرة أو الحلبة التي يتحرك فيهاهو. وهذا حوار لا يمكن أن يتم لمجرد استعدادنا نحن له، ولكن لابد فيه من مجهود يبذله الغرب لإلغاء مفاهيم السيطرة والهيمنة، أي لمحاولة اندماجه هو كذلك فينا، باعتبار أن ما اكتسبه ليس من حقه وحده، وباعتبار كذلك أن هذا الذي اكتسبه كان لنا فيه دور وتأثير؛ بل ما زلنا نساهم فيه ولو من موقع هامشي، أو بالأحرى موقع لا يعترف لنا فيه. وتتم هذه المساهمة عن طريق تصدير المواد الخام واليد العاملة وكذلك الأدمغة المهاجرة، ثم عن طريق استيراد إنتاجه وترويجه وتوظيفه في حياتنا، مهما كان منسجما مع طبيعة هذه الحياة أو غير منسجم. على أن هذا النوع الجديد من الحوار هو ليس في صالحنا فحسب، ولكنه في صالح الغرب أيضا إذا أراد أن يستمر

محافظا على حضارته وثقافته. فإن أصابه الغرور وتمكنت منه عقدة التفوق، أي إذا لم يراجع نفسه ومقاييس حكمه وتعامله، بل إذا لم يعد النظر في ذاته وشروط تقدمه، فإنه سيقع في أحادية قد تفقده اجتماعيته وإنسانيته وتؤدي به إلى الانهيار.

خلف هذين الهمّين يكمن روح الثقافة المغربية في سياقها الممتد عبر ربع قرن، أي روح مضامينها التي تلخصها إشكالية الثقافة الوطنية بكل ما تثيره من قضايا ما انفك المثقفون على اختلاف مشاربهم وأجيالهم يبحثونها، ساعين إلى إيجاد تصور ملائم يوفقون فيه بين الرؤى النظرية المختلفة وما يمارسونه في الساحة بالفعل.

ولعل مفهوم الثقافة كان أولى هذه القضايا، من حيث أن الثقافة تجربة نابعة من العقل والوجدان والسلوك، يعيشها كل فرد يملك القدرة الواعية للتحرك في نفسه ومجتمعه، ومن حيث أنها كذلك إنتاج لتبادل حي ووثيق بين هذا المجتمع والطبيعة يتبلور في إبداعات معرفية وفنية وشعورية، ويتمثل في قيم تكيف الضمير وتتحكم في التصرف وتوجه الحياة عامة، لتنشىء منها نمطا صالحا للنمو والتطور وقادرا على المعايشة والمساكنة وفي مستوى تبادل الأخذ والعطاء.

وهذه رؤية جديدة للثقافة لاشك، تعتمد الإيمان بها وبدورها والنظر إليها، ليس من خلال تصور خاص أو هدف ذاتي على أنها رفاه أو امتياز، ولكن من خلال التطور الاجتماعي التغييري ودور الثقافة في هذا التطور، باعتبارها حقا للجميع وعاملا أساسيا في تنمية المجتمع وفي إحداث التحولات التي من شأنها أن تغير واقع التخلف وتخلص منه.

في نطاق هذا المضمار الشمولي المتسم بالاتساع، طرح جلالة الحسن الثاني تصوره للثقافة حين قال في خطاب العرش لسنة تسع وستين :

«لقد رأينا واجبا علينا أن نصرف جانبا كبيرا من اهتمامنا لشؤون متفرقة متعددة ولكن بعضها مرتبط ببعض، يؤلف كلا منظوما وإن كان عقد أجزائه منثورا. وهذه الشؤون على اختلافها هي شؤون الثقافة بما يدل عليه هذا اللفظ من معنى شائع معلوم في وقتنا الحاضر، ينصرف إلى الفكر المعاصر وما يبدعه، وإلى الفكر الغابر وما خلفه من آثار، وإلى الشعور والوجدان، وإلى الذوق والعرفان، وإلى العادات والتقاليد، وما هو بين أيدينا من تعبير وتصوير للمشاعر ومبتكرات الخيال».

وفي الخطاب الذي ألقاه جلالته في الطلبة المتفوقين خريجي المؤسسات الجامعية يوم سابع نونبر عام خمسة وثمانين، ربط أيده الله هذه الشمولية بالعمق الثقافي والقدرة على التجاوب وربط الاتصال مع الآخرين حين قال :

«فيجب عليكم معشر الطلاب والطالبات والأدباء والقانونيين من جهة والجيسوبيين من جهة أخرى أن تخضرموا وأن ينال كل منكم في هذه المدة التي تفرق بينه وبين بدء عمله أكثر ما يمكن من المعرفة والعلوم. فكل إنسان يتخصص ولا تكون ثقافته شمولية وعامة يكون دون عمق. وحتى إذا كان عميقا يكون عمقه لا ينفعه إلا في مادة من المواد أو في ميدان من الميادين. وآنذاك يصبح من الصعب عليه التجاوب مع العناصر الأخرى التي لم تعرف تقنيته وتخصصه بكيفية أدق. أريد أن يكون الشاب المغربي والشابة المغربية رجال ونساء الغد وآباء وأمهات الغد على قدرة دائمة لاتصال البعض بالبعض داخل المغرب ولخلق شبكة اتصالات بشرية بينهم وبين جميع شباب العالم كيفما كانت دياناتهم ولغتهم وقارتهم ولونهم وليس ذلك عليكم بعزيز».

انطلاقا من مثل هذا التصور برزت السمة أو السمات الوطنية التي تجعل للثقافة تجربتها التي تعتمد فيها على التاريخ والواقع والنظرة للمستقبل، والتي تميزها بخصائص تنفرد ببعضها وتلتقي مع

الغير في بعضها الآخر. ومن خلال تلك الخصائص تتحدد ملامح الإنسان المغربي وتطلعاته وقدرته على صياغة الوعي الوطني والقومي، وكذا على تبليغه والتبشير به على صعيد الجماهير العريضة.

وهذه سمات لا يمكن توافرها إلا في ثقافة تنطلق في تركيبتها من الدين واللغة والتراث، وتضع في رؤياها الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتستجيب بالتالي وبطريقة علمية وعملية لبناء مغرب جديد، أي في ثقافة أصيلة ومعاصرة.

أما ملمح المعاصرة فأثير مرتبطا بالتفتح على العالم والآخرين، وبالدرجة الأولى على الغرب المتفوق، مع كل ما يثيره في مجال الاندماج الذي سبقت الإشارة آنفا إليه، والذي ترتبط به قضية الازدواجية بجميع مالها من أبعاد، دار ومازال يدور حولها نقاش طويل بين مؤيديها والمعارضين. على أن الاختلاف لم يمس مبدأ التفتح من حيث هو يعني الارتباط بالعصر والاعتماد على العقل والأخذ بالعلم والاستفادة من مختلف التيارات الإنسانية الإيجابية؛ لأنه - أي التفتح - غدا ضرورة يحتمها على المغرب موقعه وما يفرضه عليه من اتصال وهو - كما قال جلالة الملك بمناسبة افتتاح الدورة التأسيسية لأكاديمية المملكة المغربية في واحد وعشري أبريل عام ثمانين - :

«موقع أراد الله أن يكون في مفترق قارات فرسم وجهة المغرب التاريخية وفرض على بلادنا أن تقوم باستمرار بدور أداة للربط والاتصال والتأليف بين الشعوب والحضارات. وإذا كنا قد آثرنا أن يلتقي في رحاب أكاديميتنا أقطاب يردون من جهات متباعدة فإن مرد ذلك إلى أن جهود بلادنا وحدها لا تؤدي إلى أغراضنا المنشودة ولا تحقق مطامحنا المقصودة. ولذا فقد ألحت علينا الرغبة في مد مؤسستنا بأبعاد تجعل منها مسترادا فسيحا تتضافر في رحابه جهود سامية لا للتباحث والتبادل في شؤون فكرية وعلمية فحسب، ولكن لإيجاد ذلك التقارب وذلك التفاهم الخليقين بالاتساع والامتداد. فالأمل معقود بأكاديمية المملكة المغربية الجامعة لمغربية الجامعة لألوان من التفكير وأصناف من الإحساس وأفانين من التخصص والعرفان أن تطوى المسافات وتوثق أواصر الاتصال والتعارف بين مفكرين وحماة للفكر يتمسكون بقيم روحية واحدة وإن اختلفت العقائد والأديان، ويهتمون اهتماما مشتركا بكل ما يتحت خطى الحضارة ويؤمن المصير الآمن المشرق للإنسان».

وكان جلالته لأول عهده الميمون قد تنبه إلى هذا التفتح وربطه بتعلم اللغات كأداة وصل وإغناء وتجديد وإشعاع، على حد ما ورد في الخطاب الذي ألقاه في اجتماع المجلس الأعلى للتربية يوم ثامن عشر أكتوبر سنة اثنتين وستين، حين أبرز «أن إتقان اللغات الأجنبية ليفتح أمامنا آفاقا ستظل بدونها مغلقة، ويجعلنا على اتصال مباشر بالعالم، ويمهد لنا السبيل للاستفادة المباشرة من مقتنياته في الحضارة والتجديد، ويغذي العربية نفسها بعناصر تضمن لها الحيوية والنشاط. كما أن إتقان تلك اللغات يساعدنا على التكوين السريع للفنيين الوطنيين الذين سيضطلعون بإدارة دواليب النهضة العلمية والصناعية مثلما يساعدنا على الاحتفاظ بمركزنا كصلة وصل بين الشرق والغرب ومد إشعاعات المغرب الفكرية إلى الأقطار الإفريقية».

وعند جلالته أن ذلك جزء من العبقرية المغربية التي حلل مميزاتها في خطاب افتتاح حملة الكتاتيب القرآنية يوم عاشر أكتوبر عام ثمانية وستين، فجعلها نصره الله «تتكون أولا من قدرة ومن طاقة هائلة على الاستيعاب نحمد الله عليها، على استيعاب كل شيء كل لغة وكل تثقيف وكل تكوين. والظاهرة الثانية للعبقرية المغربية أنها لا تنطبع بانطباعات خارجية، بل لما تنطبع بها وتهضمها

تسكبها في قالب جديد وتخرجها في حلة جديدة وتقدمها للعالم كما أعطتها بواسطة الأندلس وبواسطة كتبها وبواسطة علمائها وأطبائها في ثوب جديد. فهي شخصية قوية الهضم والاستيعاب، قادرة على التحويل وعلى الابتكار. وأخيرا فإن عبقرية المغاربة تتسم بقوة الحفظ، والحفظ شيء مهم بالنسبة للتكوين البشري».

من مثل هذه الرؤى التنظيرية، لم تلبث قضية المعاصرة في ارتباطها بالتفتح أن انطلقت لتدخل مجال الممارسة في جميع أنماط الإبداع الأدبي والفني، مما تكشف عنه الحركة المتجددة للشعر والقصة والرواية والمقالة والتأليف ومختلف أنماط التعبير الكتابي، كما تكشف عنه الاتجاهات المتطورة للمسرح نصا وإخراجا وأداء؛ وتكشف عنه كذلك الانطلاقة التي تشهدها بقية الفنون الاستعراضية، وكذا الفنون التشكيلية التي تأبى إلا أن تبقى مرتبطة بالهوية، مهما كانت الإشارات والرموز والألوان التي يتوسل بها في التعبير. أما في ميدان التقدم العلمي والتكنولوجي فقد حقق المغرب نتائج حميدة تحدث عنها الزميل الأستاذ إدريس خليل في محاضرته أمس.

وأما ملمح الأصالة فال حوله مداد كثير، ليس من حيث مبدأها الذي يربطها بالمقومات الفكرية والقيم الروحية والمؤسسات الوطنية وواقع الأمة وما تتطلبه مسؤوليات المستقبل، ولكن من حيث مضمونها وكيفية الانطلاق لتحقيقه، مما عمق النقاش حول قضية جمت كل الآراء تجاه هذا الملمح: تلكم هي قضية التراث التي اختلفت حولها المواقف في اتجاهات ثلاثة :

الأول : مثله المتحمسون للتراث العربي الإسلامي، وهو موقف صادق وأصيل ولا غبار عليه، إلا ما يشوبه عند بعض من يغالون فيقدسون هذا التراث ويرون أنه كل شيء، وأن ما عداه خال من كل قيمة، بما في ذلك الواقع الذي هم غير راضين عنه، فضلا عن أن يدخلوه في الاعتبار.

الثاني : تجلى عند الذين يعتبرون أنه لا مناص من الرجوع إلى التراث، ولكن ليس العربي الإسلامي فهم لا يعترفون به، وإنما الأروبي الذي هو وحده القادر - في نظرهم - على أن يفتح باب النهضة الحقيقية كما فتحها لأروبا. وهذا موقف لا تجادل إيجابية جانبيه الذي يحث على الاستفادة من إبداعات الغرب العلمية، وعلى التعرف إلى الأسباب التي جعلته ينهض والأساليب التي توسل بها وتوصل، إلا أن له جانبا أو جوانب سلبية لم تراع بعض المعطيات التي تكفي الإشارة منها إلى أن التراث الأروبي لا يمكن أن يكون بديلا لأمة هي صاحبة تراث، وإلى أن غير قليل من المجالات العلمية والمبدعات الفكرية الغربية تطورت عند أصحابها وأصبحت متجاوزة، وإن ما زال الذين لم يدركوها يقفون أمامها معجبين مشدوهين. يضاف إلى ذلك أن نهضة الغرب مصحوبة بأزمة روحية ونفسية هي وليدة التساهل في القيم والتفريط في المقومات.

الثالث : اتخذه الرافضون للتراث والداعون إلى نبذه والبدء من الصفر. وهذا موقف لم تكن له فعالية على الرغم من بريقه وصداه، لأنه بوعي أو بدون وعي يسعى إلى تصفية الذات، غير منتبه إلى حقيقة الحاضر الذي يريد أن ينطلق منه، ليس من حيث هو غير مرض في كثير من جوانبه، ولكن كذلك لأنه في حساب الزمن لا يشكل إلا لحظة خاطفة مرتبطة بالماضي والمستقبل، باعتبارهما قطبين في صراع الحياة أي في الوجود؛ ومن ثم يكون تصنيم الحاضر إلغاء لهما. وحتى الإبداع، فإنه لا يبدأ من الفراغ، لأنه ليس عملية مجردة أو طارئة، ولكنه مشروط بالمبدعات السابقة. بل إن التاريخ الذي يصنعه الإنسان في فترة ما يكون مرهونا بشروط محدودة

وموروثة من الماضي. وهذا كله يعطي مدلولا للزمن يفرق فيه بين ما هو منه مرتبط بالأشياء ويكون محدودا، وما هو منه متصل بالإنسان ولا يكون إلا ممتدا، إلى حد إمكان القول بأنه لا زمن للإنسان، أو أنه لا حدود لزمانه.

على أن هذه المواقف لم تحل دون الاقتناع في النهاية بالتراث المغربي في أبعاده العربية الإسلامية، وبوجوب الاعتماد عليه باعتباره يمثل ذلك الامتداد ويشكل أداة حاسمة في الصراع والمواجهة ظهرت فاعليتها أيام المحنة والكفاح، وما زالت هذه الفاعلية قادرة على التأثير، باعتبار التراث ملاذا تؤول إليه الأمة عند الشدائد، يضم صفوفها ويوحد هدفها ويشحنها بالطاقات اللازمة عند التعبئة. ثم هو بعد هذا ملك جماهير الأمة وخيط الاتصال بها على الدوام، ولا حق لأحد في أن يسلبها إياه.

من أجل هذا، تلزم معرفته والوعي به واستيعابه واستخدامه، وما إلى ذلك من مظاهر العناية والإحياء التي تبدأ - بالنسبة لما هو مكتوب - من حصره وتسجيله وفهرسته وتحقيقه ودراسته والاستيحاء منه في مختلف مجالات الإبداع. وما كان من هذا التراث صامتا وماثلا في الآثار والمباني التاريخية، فيحتاج بدوره إلى أن يحصر ويعرف ويعرَّف به ويدرس لتتمثل من خلاله حقيقة التاريخ وتجلى جوانب الأصالة فيه وملامح الشخصية الوطنية.

ولا ينبغي أن تقل عن ذلك رعاية التراث الشعبي الذي ينبغي معرفة أماكنه ومصادره وتحديد مختلف أنواعه وتدوينها وتسجيلها بشتى الوسائل، وإقامة مراكز له ومتاحف، وإصدار مجلات ودوريات، ثم دراسته في نشأة ظواهره ومظاهره وما طرأ عليها من تغيير لمعرفة مدى أصالتها ولتحديد خصائصها وأثرها في تطوير الثقافة.

وفي كل هذه الأنماط التراثية يتخير الصالح النافع والقوي الصحيح والإيجابي النافع، أي ذلك الذي يمكن اعتماده أساسا في البناء وعنصرا للتوفيق مع العصر في معطياته الواقعية والمستقبلية.

وإن جلالة الملك ما فتئ يلح على هذه الرؤية الصحيحة للأصالة ويوجه الأنظار إليها منذ أول عهده الزاهر. فقد قال في خطاب العرش عام اثنين وستين متحدثا عن النهوض والتقدم في ارتباطه بالقيم الإسلامية :

«إذا كنا جادين في خلق نهوض شامل يتفيأ رعايانا ظلاله الوارفة فإنه يجب أن يكون هذا النهوض مسايرا لتقاليدنا السليمة وقيمنا الروحية ومبادىء ديننا الإسلامي الحنيف، إذ ما كان ولن يكون الأخذ بأسباب الحضارة والرقي منافيا للمحافظة على القيم الأخلاقية والروحية وعلى الفضيلة بوجه عام. ولهذا يجب أن تكون شخصيتنا الإسلامية بارزة في جميع مظاهر هذه النهضة. وأن تاريخ المغرب نفسه ليشهد بأن أزهى عصورنا هي العصور التي كان التمسك بالإسلام فيها من أبرز المميزات، وأن كل حركة تحريرية إصلاحية إنما قامت على أسس القيم الروحية».

وقال جلالته في عيد الشباب سنة أربع وستين، مبرزا أهمية التمسك بالأصالة في مواجهة تيارات العصر والتحصين من جوانبها السلبية :

«ليحتفظ شبابنا بتعلقه بمؤسساته القومية والمحافظة على تعاليم دينه الحنيف وباعتزاز بقيمه الروحية التي لا يؤثر ولن يؤثر في أصالتها ونبلها التطور العصري مهما قوي تياره فهي ثابتة باقية بقاء الأصلح. وليتذكر الشباب أن المغرب الذي اعترضته في سيره عبر التاريخ تيارات واختيارات قد آثر دائما ما ارتآه منها أقرب لعبقريته وأنسب لأسلوبه وأكثر انسجاما مع طابعه. فمهما تكن المذاهب والنظريات التي يزخر بها هذا القرن فإن أرشدها وأقومها ما لا يذيب كياننا أو يمسخ ذاتيتنا أو يرهن حرية تصرفنا أو يقطع الصلة بيننا وبين ماضينا الزاهر الذي يحق لنا أن نفتخر به ونعتز ونربط دائما حلقة الوصل به دون أن نتأخر عن السير حثيثا في ركب قافلة التقدم التي لا تنتظر المتعثرين ولا المتخلفين».

وفي خطابه السامي الذي ألقاه بمناسبة افتتاح المجلس الأعلى للإنعاش الوطني والتخطيط يوم سابع عشر يونيو عام خمسة وسبعين، تناول جلالة الملك أساليب التحصين، فذكر الجيش الملكي، والدفاع الواجب على كل مواطن، ثم دور الفكر، وقال :

«إن التحصين يعني أن نحصن أبناءنا ونسلحهم بمراجعة أساليب التعليم والتلقين، وبالأخص من الناحية التاريخية للمغرب حتى يكونوا على أهبة دائمة للدفاع عن وطنهم. نعم سوف تقولون إنه ليس لدينا من الأساتذة ما يكفي للتعليم، وهنا أقول لكم هذه ضرورية، أفضل أن يتعلم ابني وفلذة كبدي أن يتعلم ويعلم تاريخ بلاده ولو عن طريق أجنبية ولا يلقن تاريخ جندارك باللغة العربية».

ولقد مست توجيهات جلالة الملك مختلف مجالات الأصالة المغربية، مما لا إمكان لاستعراضه، بما في ذلك جمال العمارة والبيئة. وقد تحدث عنه حفظه الله في خطاب ملكي ألقاه بمناسبة استقبال أعضاء المجلس البلدي لمدينة فاس في الواحد والعشرين من دجنبر عام ستة وسبعين فقال :

«إن مدينة فاس في حاجة إلى عدة أشياء، أولا في حاجة إلى تخطيط معماري؛ فالمدينة هي قبل كل شيء مظهر تفكير سكانها وذوق سكانها. وكانت فاس معروفة بالذوق، وأريد أن تبقى معروفة بهذا الذوق. أريد إذن للزائر قبل أن يعرف الفاسيين أن يشم من وراء المعمار والبناء رائحة الطيب، وأن يتعرف على سكان فاس قبل أن يعرفهم أو يلتقي بهم...».

وتناول جلالته هذا الموضوع في اجتماع ترأسه بمقر ولاية الدار البيضاء الكبرى في خامس عشر مارس سنة اثنتين وثمانين فقال :

«أريد أن تصبح الدار البيضاء بعد سنتين أو ثلاث سنوات عاصمة يضرب بها المثل من عواصم الدنيا، وليس هذا بعزيز علينا كمغاربة وكأعلام للحضارة والبناء والتقدم والتعمير. أريد أن يتمتع كل بيضاوي بمسكن أو سكن لائق به محترم ولائق بالكرامة التي أكدها القرآن عندما قال : ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾. أريد أن يعيش كل شاب وشابة في مناخ يجعله سعيدا ويجعله يطمح إلى سعادة أفضل. أريد أن يفتح أبناؤنا وأبناء أبنائنا أعينهم على جنات وحدائق، وعلى ملاعب وعلى طرق نقية وعلى بنايات مشرفة. لا أريد أن يفتحوا أعينهم في مجال ضيق لا يجيب على فلسفة الإسلام ولا يجيب كذلك إلى غيرتنا وغيرة جميع المغاربة، على أن يكون المغربي كيفما كانت طبقته الاجتماعية رجلا ذا بال وذا حرمة واحترام. وهذا لا يتأتى إلا إذا نحن قررنا أن نضع حدا للفوضى البنائية ولا أقول الفوضى التعميرية، بل هي فوضى تخريبية».

في ظل مثل هذه التوجيهات الملكية المستمرة والمتلاحقة، بذلت وتبذل جهود مهما كانت كبيرة فإنها تبقى دون التطلع والطموح، وما تهدف إليه تلك التوجيهات السامية. ولعله لا مجال لإنكار الخطوات الثابتة التي قطعها المغرب بحثا عن معالم الأصالة الحق، وقد مرت الإشارة إلى بعضها. وإن للجامعات المغربية ومختلف المؤسسات الثقافية في تقريب تلك الخطوات والدفع بها إلى الأمام دورا كبيرا تلخصه المنجزات العديدة التي لا حصر لها، ويهمني أن ألفت الانتباه إلى الرسائل والأطروحات الكثيرة التي هيأها ويهيئها الطلاب والباحثون في شتى مجالات البحث المتعلقة بالعلوم الإنسانية والطبيعية والتطبيقية، وخاصة ماله صلة بالثقافة المغربية قديمها وحديثها والمعاصر. ولجامعة محمد الخامس في ذلك سبق وريادة تسير على هديهما بقية الجهات المعنية؛ وهو ما يكشف عنه المعرض المقام بيهو هذه الكلية موازيا لأيامنا الجامعية.

ثم إن هذا البحث في نطاق الأصالة لم يظل مقصورا على إحياء التراث المخطوط، ولكنه تعداه

إلى التراث الفني، سواء على مستوى الفنون الشعبية القائمة على الإيقاع الموسيقي والأداء بالإشارة والحركة، أو الصناعات اليدوية الدقيقة وما إليها من الأنماط والأشكال التي بعثت في صيغة حية جعلتها تعود إلى الحياة من جديد وتندمج في المشاهدات والممارسات اليومية العادية.

☆☆☆

على أن البعد الوطني للثقافة لا يمكن أن يتحقق بدون توافر شروط، أبرزها اثنان :

أولا : التعميم النابع من أن الثقافة حق مشروع وغذاء أساسي وإحدى الخدمات الاجتماعية التي يجب توفيرها للجميع، وأنها لذلك ليست ترفا أو رفاها أو احتكارا واقتصارا على أحد أو فئة. وهذا ما يجعلها أداة لإصلاح الفرد في المجتمع، إذ تتيح له أن يفهم واجباته وحقوقه ويتحمل مسؤوليته. وقبل ذلك وبعد، ترفع عنه الأمية التي لا شك أنها أبرز مظهر للتخلف وأهم عائق دون أي تقدم اقتصادي واجتماعي. ولا يتسنى ذلك بغير التعبئة لمواجهتها بمختلف الأدوات الثقافية، ولا سيما بالاتصال العضوي مع الجماهير والالتحام بها، أي بإيصال الثقافة إلى المواطن في مختلف بيئاته التي يوجد بها مدينة أو قرية، ومهما كان التجمع البشري الذي تضمه محدودا أو نائيا في جبل أو بادية أو صحراء.

وغير خاف أن مثل هذا الاتصال يفيد مبلغ الثقافة كذلك، لأن للشعب ثقافته، لأن حياته غنية بالإبداع، ولأن ترويج الإنتاج الثقافي على مستوى عريض يبعث فيه الروح ويمده بدم جديد، بالإضافة إلى أن الاحتكاك المباشر يخفف وطأة التنظير والتجريد ويفتح مجال التطبيق والممارسة. ومن الإنصاف القول بأنه قد تحقق الكثير من ذلك عن طريق اللا مركزية الثقافية المنسجمة مع اللا مركزية الإدارية، بفضل الجمعيات التي بلغ عدد المسجل منها رسميا نحو الخمسمائة، والتي تنهض بدور كبير في تنشيط الثقافة وتوسيع دائرة انتشارها، بالإضافة إلى أنها تثير الشهوة والنهم في جماهير مختلف الأقاليم، وتزيل عنها الدهشة الفكرية إذا صح التعبير، وتكسر الحواجز وتحدث صلة مباشرة لها مع الثقافة، وتدفعها إلى اكتشافها والاحتكاك معها، وتمحو في النهاية الوهم بأن الثقافة رفاه لا يوجد إلا في العاصمة أو في حواضر بعينها؛ علما بأن الثقافة المغربية على امتداد التاريخ لم تكن محصورة في مدينة أو مركز ما، ولكنها كانت عن طريق الجامع والزاوية والكتاب القرآني واصلة إلى كل مكان.

وكثيرا ما ألح جلالة الملك على هذه الحقيقة، داعيا إلى التثقيف الشعبي وضرورة استمراره عن طريق دروس المساجد وما تتيحه من متابعة التثقيف الدائم وإيجاد علاقة عضوية دائمة بين الجماهير ومبلغي الثقافة. ففي كلمته السامية بمناسبة اختتام أشغال الدورة الأولى للمجالس العلمية يوم سادس عشر يوليوز عام اثنين وثمانين، خاطب العلماء بقوله محملا إياهم هذه المسؤولية :

«عليكم أن تنظروا قبل كل شيء في حقيقة وكنه وسر المرامي، القريب منها والبعيد، مرامي المهمة المقدسة التي هي منوطة بكم. إننا نعتقد أنه يجب أولا أن يعود المغرب في هذا الباب إلى سالف عصره، لأن العلم وإنشاء العلم لا ينقطع ولا يقف في أي وقت من الأوقات ولا يوضع أي حد من الحدود للسن. فالعالم يجب عليه أن يفشي العلم بين الناس ما دام قادرا، عليه أن يدرس ويبين للناس دينهم. وإلا فإذا كتم علمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة. **ولذا يجب أن تبقى مساجدنا مفتوحة بين العشاءين حتى يتمكن كل مسلم ومسلمة أن يسأل عن شؤون دينه ويوسع دائرة معرفته**».

بل إن جلالته يرى أن هذا النمط من الثقافة وما يكون له من مفعول تربوي ـ ولا سيما في مجال المعارف الدينية ـ ينبغي أن يتيسر للمغربي منذ مرحلة طفولته الأولى وقبل التحاقه بالمدرسة، على حد ما ورد في خطاب العرش لسنة تسع وستين :

«إن عنايتنا بأمر التعليم لم تنحصر في مراحله الثلاث، بل اتجهت كذلك إلى مرحلة رابعة وهي مرحلة تكوين الطفل قبل بلوغه السنة السابعة من عمره؛ فقررنا **أن يستظهر أبناؤنا في هذا الطور من أطوار حياتهم وقبل التحاقهم بالتعليم الابتدائي سورا من الكتاب المبين، ويلقنوا مبادىء الدين الحنيف، ويشبوا على الآداب المحمدية، وينشأوا عارفين للشعائر الدينية حتى إذا التحقوا بالتعليم الابتدائي كانت العقيدة الإسلامية قد انطبعت في نفوسهم والإيمان قد ملأ رحاب قلوبهم».**

وفي اعتقادي أن تعميم الثقافة لا يستجيب لهذه الحاجة فحسب، ولكنه كذلك يغذي هذه الثقافة وينميها، ذلكم أن التعامل مع الثقافة خارج العواصم بواسطة الجمعيات ودور الشباب، وكذا دور الثقافة لو وجدت، يكون أكثر حفزا للتطوير والتجديد، إن في مجال الإبداع أو التلقي، لسبب بسيط هو عدم توافر الرصيد الثقافي الذي غالبا ما تكون طاغية عليه ثوابت معرفية وتقاليد علمية. من هنا يغدو باطلا كل زعم بأن التعميم ينزل بالمستوى، خاصة إذا كانت الثقافة تسير في اتجاهين متكاملين :

- عمودي يسعى إلى التعميق والإتقان والتجويد،
- وأفقي يهدف إلى التسطيح والتبسيط والتبليغ الواسع.

ثانيا : التوحيد، وهو لا يعني أحادية تفرض نمطا تلغي به غيره، فذلك يتنافى واختيارات المغرب في مجال الحرية واللا مركزية وما تتميز به بيئته من تعدد وتنوع، ولكن يعني محو الفروق الثقافية في المجتمع، وتقريب الهوة بين المواطنين؛ وهو هدف لا يتحقق إلا حين يوجد جيل صهرته بوتقة التجانس وطبيعة أدوات الثقافة الوطنية من لغة ودين وتراث ومعايشة للواقع بكل ما يحتمل فيه ومعاناة التطلع للمستقبل.

وهذا لا شك مظهر للأمن الثقافي، باعتباره أمنا وقائيا يحتاج إلى عناصر ومقومات تعرض لها جلالة الملك في الخطاب الذي فاه به لدى استقبال وزراء الداخلية العرب يوم خامس عشر دجنبر عام اثنين وثمانين :

«منها اعتزاز الرجل بانتسابه إلى المجموعة الوطنية التي ينتسب إليها. فإذا لم يعتز الرجل أو المرأة بوطنيته وبمواطنيه، فلن يكون حريصا، لن يكون حذرا ليقي بلده وتاريخها ومستقبلها من الشغب والفوضى... علينا أن نعلم أبناءنا التاريخ، وأقول هذا علما مني أننا جميعا نمثل مجموعة من الدول لها من التاريخ الحافل ومن الأصالة المتينة المتمكنة ما يجعلها تضاهي الأمم والحضارات».

ولا عجب أن يتحقق التوحيد في هذه المرحلة التي حقق المغرب فيها وحدته الترابية باسترجاع الصحراء، فقد كان ذلك التوحيد خلف إجماع الأمة على المسيرة التحريرية التي انتظمت تحت راية القرآن، هاتفة خلف قائدها المبدع بشعار أصيل نودي به في صفوفها فاهتز لأصدائه الوطن بأكمله، ذلكم هو شعار «الله أكبر».

على أن استكمال الوحدة الترابية لم يلبث أن حفز إلى استكمال الوحدة الثقافية بطرح عناصر فكرية جديدة، انطلاقا من الخيوط التي لم تنقطع قط، حتى في أحلك الظروف الاستعمارية. وقد تم ذلك ليس فقط بما استرجعته الصحراء، بعد تحريرها من مظاهر حضارية وملامح فكرية، ولكن كذلك بما أضافته إلى الثقافة الوطنية من جوانب غير قليلة أغنتها بها في مجالات متعددة، ولا سيما مجال التعبير الشعري والفنون الشعبية.

وإذا كانت الإضافة الفنية قد تجلت من خلال الاستماع إلى الإيقاعات الموسيقية ومشاهدة رقصة الكَدرة على سبيل المثال، فإن أهمية الإبداع الشعري في الصحراء ما زالت في حاجة إلى عناية الدارسين للكشف عنها؛ وكنت قد نبهت إليها في بعض أبحاثي المنشورة ودعوت إلى ضرورة الالتفات إليها لأهميتها. وهي أهمية لا تتمثل فقط في إغناء ساحة الإبداع بنصوص وأسماء جديدة، ولكنها

تتعدى هذا النطاق إلى ما يحث على إعادة النظر في بعض الأحكام التي ارتبطت باتجاهات الشعر الحديث على مستوى المغرب، وكذلك على مستوى العالم العربي عامة. فقد كشفت دراسة إبداع الشعراء الصحراويين أنهم كانوا سابقين في إحياء الشعر القديم على شعراء حركة البعث في مصر، وأنهم كانوا أكثر منهم قادرين على ذلك الإحياء بسبب عوامل ثقافية ونفسية لم تكن متوافرة لمبدعي أرض الكنانة.

☆☆☆

إن إثارة هذه القضايا وما يحيط بها أو يتفرع عنها أعطى للثقافة المغربية طابعا لعل من أبرز سماته أنها ثقافة التحدي لجميع ما يواجهها من سلبيات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، سواء ما كان من هذه السلبيات نابعا من الذات أو متعلقا بالغير. تضاف إليها - بسبب ذلك أو نتيجته - سمة الالتزام في مفهومه الشامل الذي يجعله رديف الوطنية، وإن ارتبط عند البعض بنطاق ضيق يحكمه الانتظام في هيئة سياسية أو نقابية. وقد جعلت هذه الظاهرة من المثقف شخصا مسؤولا يحمي القيم ويصمد للأزمات ويواجهها ويسعى لحل المشاكل، في ميل إلى التصحيح والتقويم وما يقتضيان من انتقاد. وهو موقف أفضى إلى ملمح آخر يتجلى في إقبال الأجيال على الثقافة، ولا سيما الشباب، انطلاقا من الثقة بها ومن الإحساس بأنها في توجهها المعاصر أصبحت حية وقادرة على إسعافهم في تطلعاتهم ومتطلباتهم وإشباع رغباتهم والحاجات التي كانوا من قبل - لتحقيقها - يرتمون بحماس وعشوائية في أحضان كل ما يصادفونه من ألوان فكرية أجنبية، غير منتبهين إلى ما تخفيه أو تظهره من دس وتحريف، ومن عناصر الإبعاد عن الذات وربما تدمير هذه الذات على صعيد الفرد والمجتمع. وهو إقبال مقترن بالبحث عن كل ما هو أصيل، لإحيائه كما هو، أو تطويره وتجديده والانطلاق منه في إبداع جديد - ثم إنه يعكس ظاهرة تطورية في المجتمع جعلت منه مستهلكا للثقافة ومنتجا لها في نفس الآن؛ ولم يكن من قبل كذلك، حين كان يستهلك فحسب، مكتفيا - على سبيل المثال - بالقراءة دون الكتابة، وإن وجدته هذه فبمقدار ضئيل كما مرت الإشارة إلى ذلك.

وإن مثل هذا الإقبال هو الضمان أن الثقافة تستطيع أن تنهض بدور إيجابي في المجتمع باستقطاب الجماهير والالتحام معها في ساحة الجهاد والبناء.

وعلى الرغم من جميع الصعوبات والعوائق، فإن الثقافة المغربية تبدو غير متشائمة إن لم أقل إنها تحث على التفاؤل وتدعو إليه، بما هي عليه من وعي عميق ورؤية ناضجة وممارسة إيجابية. وهذا لا شك عنصر مهم، إذ لا ينفي التأمل ومحاولة بلورة التصور والتنظير، ولكن دون الإغراق في التجريد والابتعاد عن الواقع.

أيها الإخوة :

هذه لاشك عناصر ازدهار ثقافي، وإن لم يتح لهذا الازدهار أن يعطي جميع ثماره، ولاسيما في مجال الاستفادة من الثقافة وتوظيفها في التنمية، وكذا التنسيق بين مؤسساتها، والعمل على مزيد من تعميق الثقافة وتبسيطها في نفس الآن، مع الحرص على التعريف بها في الداخل والخارج كذلك، بجميع ما يتطلب هذا التعريف من وسائل وأساليب وأدوات.

ومع ذلك، ففي السياق الذي حاولت في هذه المحاضرة رسم صورة تقريبة له تحدد رؤيته وأبعاده وآفاقه وملامحه، قطعت الثقافة المغربية مسيرة ربع قرن عمقت على امتداده الوعي بها، وأبرزت ظواهرها وقضاياها، وأغنت أشكالها ومضامينها. ومن خلال ذلك أتاحت لها أن تكون عامل تأثير فعال في النهوض بالمجتمع والدفع به نحو التطور والتجدد، انطلاقا من انصهار الذات بجميع قيمها ومقوماتها وبمختلف العناصر المتحركة حولها داخل البوتقة الوطنية، أي في مغرب لغته العربية ودينه الإسلام والفكر النابع منهما، مع خصوصيات متميزة اكتسبها عبر القرون، بواقع بيئته وبسبب تفاعله الجدلي المستمر مع شتى الحضارات والثقافات، بحكم موقعه المركزي وموقفه الذي اقتضى منه أن يكون صاحب رسالة حملها طوال التاريخ، وهي تلح اليوم عليه ليستمر في تحملها بإيمان وشجاعة.

وشكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله.



للدكتور محمد فاروق النبهان
مدير دار الحديث الحسنية
وعضو أكاديمية المملكة المغربية

في زيارتي الأولى للمغرب عام 1973 شيء ما شد انتباهي وأثار فضولي وجعلني أتتبع بدقة ذلك الطيف الذي لمحت ظلاله من بعيد، ولم أكن أعلم عنه شيئا، لعله شبح تراءى لي في ليلة مظلمة، أو حلم عشت معه ثم طاردته فرسان الفجر فلم تترك له أثرا...

شيء ما لمحته ليس لي به عهد من قبل، ذلك الشيء ليس بالوهم وليس حلما، فلم يغادر موقعه في النفس ولم تطارده فرسان الفجر، وعندما أطل من بعيد نور الصباح رأيت بعض معالم وجهه، وتعرفت على هويته، واطمأنت نفسي إليه، وسكنت، وجلست أستمع إلى حديثه الهادئ الوقور الرصين، حديث الحكيم الذي تعبر قسمات وجهه عن صدق ما يرويه، وجمال ما اختزنته ذاكرته من أروع المواقف والذكريات...

ووقفت أخاطبه بإجلال، وأحدق في تلك الملامح التي ما عبثت بنضارتها الأيام، ولا اشتعل رأسه شيبا بعد تلك السنين الطويلة المليئة بالجهد والكفاح والتضحية والتحدي، وحسبت نفسي أقف أمام حكيم، يحسن الفهم والتعبير، ويستنطق التاريخ فيجسد قيمه ومواقفه وكأنه وصي عليه، قيم شديد الوفاء لتلك الأمانة، غيور شديد الغيرة على أمجاد الأجداد، لا يسمح أن تمتد لها يد عابثة مستهترة، ولا يرضى أن ينال منها متطاول بظلم أو تجاوز...

ذلك هو المغرب كما رأيته لأول مرة، وكما تصورت ملامحه التي أمسكت بذاكرتي لا تغادرها في يوم إلا لتعود من جديد إلى موقعها، مؤكدة صدق الصورة، مجسدة كل التجسيد تاريخا حسبناه قد طويت صفحته، وتناثرت أجزاؤه، وطارده ظلام طويل فاستكن في زوايا مهجورة يئن من قسوة الأيام، وعقوق الأبناء والأحفاد...

ورأيت تاريخ أمتي حيا، لم تعبث به عابثة، ولم تنله بسوء بالرغم من قسوة التحدي وعنف الأيام، قيم الأجداد كما كانت... تطل في كل صباح، تمشي بهدوء على الرمال الذهبية تستنشق هواء البحر المنعش، وفي المساء تبتسم لكل زائر وترحب به، وكأنها سيد أصيل الانتماء، رفيع الخصال، كريم النفس، يجلس في صدر مجلسه مرفوع الهامة شامخ الأنف، يحني رأسه تواضعا فيزيده التواضع هيبة ومكانة...

ما أجمل تراث الأجداد، وهو يوقظ في النفس مشاعر الاعتزاز والفخار، ويعلم الإنسان مالم يعلم من أمر حاضره وماضيه، لكي يواجه به ذلك التحدي الذي يستهدف الكيان والإنسان والأرض والهوية، فيا أيها الأجداد تحية لكم من الأعماق، لقد أوقدتم في نفوسنا مشاعل الاعتزاز وكنتم الأوصياء الأمناء على تراث أمة أثقل كاهلها ما حملته من هموم وأحزان، ولن تفرط في الأمانة ولن تسقط الراية...

وفي المغرب يرتفع اللواء، ويعلو في السماء، مجسدا ذلك التاريخ في امتداده، وتلك الأصالة التي لم تشوه معالمها الأيام ولم تزيف ملامحها مساحيق مستوردة، فظلت كما كانت نقية البشرة صافية، صادقة التعبير عن قيم أمة، شديدة الاعتزاز بكل مكونات تلك الأمة متمسكة كل التمسك بكل خصائصها الذاتية...

ذلك هو المغرب كما رأيته...

لم أحسب أن زيارتي الأولى ستقودني فيما بعد... إلى المغرب... ولم أستطع أن أغالب دعوة كريمة أو أن أتردد فيها، فالأمناء على التاريخ قرارهم ملزم، واختيارهم تشريف وتكريم، وما أعظم ما يتركه ذلك التشريف والتكريم في النفوس من مشاعر السعادة والبهجة، وما أضخم ما يخلفه في نفوس من نالهم ذلك التكريم من مسؤولية الوفاء.

وفي المغرب تعلمت مالم أكن أعلم، وأدركت بصدق أن ماشد انتباهي في أول زيارة لي إلى المغرب لم يكن طيفا، وإنما كان حقيقة، وفي كل يوم اكتشف الجديد وأتعلم الجديد، وافتح قلبي للهواء النقي لكي يطارد ما خلفته الطفولة في النفس من قيم ومثل وعادات وقناعات لا يستقيم بعضها مع التصور الأمثل لها...

☆ ☆ ☆

وأهم ما تعلمته أن الأمم والشعوب لا تستقر وحدتها، ولا يستقيم أمرها مالم تكن اختياراتها واضحة محددة، تمكن لها في الأرض وتحفظ لها توازنها في مواقف التحدي، وتساعدها على اجتياز المنعطفات الحادة والخطيرة بيسر وسهولة وأمان، ومثل هذه الأمم لا تخشى من المواجهة ولا يتعرض مركبها للأخطار الطوفانية، وتواجه العواصف الرعدية في الليالي المظلمة الممطرة بأعصاب هادئة، تمكنها من اجتياز الأخطار...

والمغرب من البلاد القليلة في العالم الحديث الذي يملك إمكانات التوازن، ولهذا فإن التحدي يسهم في دعم وحدته الوطنية، لأن الشعب المغربي من الشعوب التي لا تساوم في قضاياها الوطنية، ولا تقبل مبدأ المساومة، يستوي في ذلك العالم والأمي، والشمال والجنوب واليسار واليمين.

وهذا الوضوح في المواقف الوطنية مكن المغرب من أن يختار منهج الديمقراطية والحوار في معالجة قضاياه السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية، لأن المركب المتوازن في تكوينه لا تخيفه أصوات المتحاورين والمتنافسين، ولا يفزع من اختلاف الرأي وتعدد الرؤية، لأنه يدرك جيدا أن كل اختلاف في الرؤية يضيف الجديد إلى تراثه الحضاري، وينمي في ذات الوقت أطره وأجياله لكي تكون أكثر قدرة على اختيار الأفضل.

وأتيح لي أن أشارك في بعض المناظرات الوطنية، وكنت في بداية الأمر أتساءل عن أهمية تلك اللقاءات، مستفسرا بعض الأصدقاء، إلى أن وجدت الجواب فيما لمسته بنفسي من آثارها، وهي آثار تتجاوز حدود ما يتوقعه الإنسان منها، لأنها تستهدف أولا وقبل كل شيء طرح أسلوب للتعامل بين كافة القوى والاتجاهات يريح الجميع ويأخذ بالاعتبار رأي الجميع، ويتيح للجميع منبرا يعتليه من يريد، لطرح رأيه وفكره، لكي يتعود المواطن أن يفكر بصوت عال وأن يعمل في إطار الوضوح وأن يشارك من خلال ذلك في بناء وطنه وصياغة منهج سيره...

ومن واجبنا أن نشيد بهذه الظاهرة، وأن نمد يدنا لكل من ساهم فيها مؤيدا لها أو داعيا إليها، مصافحين ومهنئين، لأن الأعمال المنتجة تستحق التهنئة والتشجيع.

والوطن الذي يحترم كل أبنائه، ويعانق كل الفئات والاتجاهات جدير بأن يكون الوطن الذي يستحق التضحية، فالأوطان هي مستودعات لأجمل عواطف الحب، وعندما تحتضن تلك الأوطان جميع مواطنيها فإنما تحتضن كل ما يملكون من مشاعر.

والمغرب الذي نتحدث عنه هو مغرب اليوم، وهو في نفس الوقت مغرب الأمس، مغرب الأصالة والقيم، ومغرب الحضارة والعطاء، ومغرب الخصائص المتميزة التي حافظت على وجوده، وأكسبته تميزا واستقلالا في مواقفه وثقافاته، وفي شخصيته وخصاله...

والحسن الثاني هو ملك المغرب، وهو في نفس الوقت مرآة الشخصية المغربية والمحافظ الأمين على الخصائص المغربية، يجسدها من خلال سلوكه وفكره وثقافته، ويغذيها من خلال مواقفه ونصائحه وتوجيهاته، واستطاع جلالته من خلال قيادته الرشيدة والحكيمة أن يعيد من جديد صياغة تلك الشخصية المغربية، وأن يطور أسلوب

عطائها لكي تكون منسجمة مع روح العصر ومتطلبات التقدم، تقبل الاقتباس وتحتكم إلى الحوار، وترفض الانغلاق وتدين التطرف.

ويكفينا لتأكيد هذه الحقيقة أن نلم بما حولنا من نشاطات وإنجازات وأن ندرس وسائل العمل وأساليب البناء، فالديمقراطية في المغرب هي اختيار أساسي يجسده الحسن الثاني من خلال المؤسسات التمثيلية كما يجسده من خلال كل التظاهرات الفكرية والثقافية التي تؤكد أهمية الحوار البناء بين مختلف التيارات الفكرية، لتأكيد أهمية التفاعل الخلاق والمنتج، ونجد نماذج حية من هذه السياسة الحسنية الموفقة من خلال ظواهر معبرة عن انصراف ذهن جلالته إلى تأكيد ظاهرة الحوار والتعددية الفكرية، والتفاعل البناء الذي يعطي ويثمر وينجب، في إطار الخصائص الذاتية للشخصية المغربية، بكل مكوناتها الاعتقادية والروحية وبكل أبعادها الإنسانية والحضارية.

والإسلام في نظر «الحسن الثاني» هو عمود الشخصية المغربية، وهو منطلق وجودها الحضاري ومحور رؤيتها الثقافية، يلح عليه ويعمقه ويطرح أبعاده، ويعتبره من المقدسات الوطنية التي لا تقبل النقاش، لأن الإسلام هو الامتداد الإنساني للشخصية المغربية.

ذلكم هو المغرب كما عرفته... وكما اتضحت معالمه لي بعد عشر سنوات حاولت خلالها أن أرقب عن كثب معالم الشخصية المغربية، وأن اختزن في ذاكرتي صورة منسجمة معبرة عما عرفت ولمست، وأظنني قد عرفت القليل، وما سجلته هو قليل من ذلك القليل، لا لأني أضن على قلمي أن يخط مشاعر وأحاسيس من قناعات ذاتية يشهد الله أني ما بالغت في التعبير عنها، وما أنصفتها فيما قلت وسجلت، ولكن لأني أخشى أن يظن بي المبالغة والمجاملة، وذلك ليس من خلقي ولا من طبعي، وما أقسى الطبع عندما لا يستجيب لنداء العاطفة، وما أقسى ما يخلفه في نفس صاحبه من آلام وأحزان...

ولا أستطيع أن أنكر أن رؤيتي لما عبرت عنه تحكمها عواطف المحبة، وعواطف المحبة صادقة فيما تعبر عنه، ترى وتبصر، وتفرح وتتفاءل، وهي التي تجعل الرؤية محكومة بالصدق والموضوعية، وما أحوجنا إلى أن ننظر إلى قضايانا نظرة منصفة، ترى الفضيلة وتشجع عليها، ولا تنكر حق إنسان فيما أعطى وأجاد وأحسن لكي تظل شعلة العطاء متوقدة، تنير السبل، وتعطي وتجزل في العطاء...



الحسن الثاني وتأسيس دار الحديث

للأستاذ الحسين وكاك
عميد كلية الشريعة بأكادير

تأسيس دار الحديث الحسنية، إنجاز رائع من إنجازات مولانا أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله، أراد الله أن تكون بركة من بركات شهور رمضان المتوالية على المسلمين، ونتيجة من نتائج المجالس الحديثية التي اعتاد الملوك المغاربة عامة، والعلويون خاصة أن يعقدوها في حلهم وترحالهم، وهي في هذا الوقت بالذات، وفي هذه الظروف العصيبة التي يعيشها الشرق والغرب الإسلاميان على السواء، تعتبر بمثابة هدية إلاهية إلى المسلمين، وإشارة ربانية إليهم، ليقلعوا عن حالهم، ويرجعوا إلى رشدهم، ويتدبروا وصية نبيهم لعلهم يهتدون، وقد انبعثت بإذن الله من وحي الدروس الحسنية التي تلقى أمام أمير المؤمنين في قصره العامر في رمضان، فكانت بعثا جديدا للإسلام، ودعوة صادقة إلى الإحياء والتجديد، ونداء حارا إلى الشباب المسلم ليقبل على حديث نبيه، ويحفظ متونه وأسانيده، ويعمل بمضمونه وتعاليمه، ويتحلى بأخلاقه وآدابه.

سبب تأسيسها

وسبب تأسيسها أن مولانا أمير المؤمنين الحسن الثاني رأى بثاقب فكره، وسداد نظره أن فن الحديث وعلومه في المغرب وفي العهود الأخيرة من تاريخه بالخصوص، أصيب بما أصيب به في أقطار العالم الإسلامي من إهمال نتيجة الغزو الفكري والمادي لتلك الأقطار، وأن الشباب المسلم أخذ يتحول عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة العصرية الطاغية، وإن ما عرف به المغرب من علماء ومحدثين كبار منذ عصوره الأولى، أخذ ينقرض شيئا فشيئا، الأمر الذي جعله أعزه الله يستدعي مكتب رابطة علماء المغرب برئاسة أمينها العام سيدي عبد الله كنون الحسني مساء يوم الإثنين الحادي عشر من رمضان المعظم عام 1383 هـ ليتذاكر مع أعضائه في شؤون التربية والتعليم بالبلاد، ويبشرهم بحضور بعض الوزراء وكبار رجال الدولة بأنه عازم على إنشاء دار للحديث بالرباط، لتخريج المحدثين الشباب، وتكوين الأطر العليا للتعليم والقضاء، وإعداد البعثات الصالحة للقيام بواجب الدعوة في الأقطار الإسلامية والنائية.

وقد أبى السيد الأمين العام إلا أن يشكر أمير المؤمنين على بادرته الطيبة قائلا : «إن العلماء وقد كانوا يرون الإهمال الذي تمنى به هذه العلوم الإسلامية، لم يخامرهم شك في أن يوم بعثها على يد جلالتكم لابد آت، وأن العلماء سيقومون بكل طاقاتهم لمساندة هذه الحركة، وتحقيق أمل جلالتكم في بعث الثقافة الإسلامية، واللغة

العربية حتى ترتفع رايتها في هذه البلاد خفاقة منصورة كما كانت من قبل».

وهكذا أسست دار الحديث بالرباط، ودشنت يوم 27 رمضان 1383 هـ في الضريح الحسني، وبمحضر أمير المؤمنين الحسن الثاني الذي ألقى بهذه المناسبة الكريمة خطابا ساميا قال فيه على الخصوص :

«إن فتوحات المغرب العلمية لا تقل عن فتوحاته السياسية، فما أكثر أولئك العلماء الذين أسهموا في الحضارة العربية الإسلامية بالنصيب الأوفى، وما أوفر من ظلوا منهم عبر التاريخ يضربون أكباد الإبل في طلب العلم أو تلقينه مهما بعدت بهم الدار، أو شط المزار، وإن تراثنا الإسلامي والمغربي بصفة أخص لخليق بأن يحملنا على الاعتزاز به، ومن أجل ذلك فنحن مدعوون للمحافظة عليه، وشمله بمزيد العناية التي تقيه خطر الخفاء والاندثار»، إلى أن قال :

«وهكذا حرصنا في عدة مناسبات، وخاصة أثناء هذا الشهر المعظم من كل سنة، على أن نتقدم إلى جانبنا طائفة من العلماء المتخصصين في مختلف أطراف مملكتنا لإلقاء دروس الحديث والتفسير، تأكيداً للأهمية التي نوليها لاستمرار وانتشار ذلك النوع من الدراسات الإسلامية التي يتميز بها المغرب اليوم بين الأقطار الإسلامية الأخرى، والتي هي إحدى مميزاته الأصيلة، ولكي يستمر، هذا العمل، وضانا لانتشاره وازدهاره، ندشن في هذه الليلة المباركة دار الحديث التي ستضم ثلاثين طالبا، سيتخصصون في الدراسة الإسلامية طيلة أربع سنوات، على أن يتزايد هذا العدد كل سنة، وخلال السنوات الأربع هذه سيلم الطلبة بفن الحديث متنا وسندا ورواية، ويتخصصون في كل ما يقوي من مداركهم وينمي معلوماتهم في هذا الفن الأصيل من قواعد وفروع وأصول، وما يقترن عادة بدراسة علم الحديث من دراسة متممة على أن يضمن لهم في نهاية الشوط مستقبلهم بالمساهمة في عدة مجالات نحن في حاجة إلى أن يعمل فيها خريجو هذا المعهد الذي نجتمع اليوم لتدشينه».

وقد رد على مقال جلالته السامي فضيلة الأمين العام للرابطة بكلمة قال فيها : «مولانا صاحب الجلالة، في غمرة من النشوة الروحية والسرور النفسي تلقى شعبكم المومن، بشرى عزمكم على إحياء العلوم الإسلامية، وبعثها من مرقدها، وإنشاء دار الحديث بعاصمة مملكتكم الشريفة، وصلا لما انقطع أو كاد من سند هذا العلم، ورفعا لمناره الذي طمس بعد إنافة وإشعاع، إلى أن قال : ومن الثابت تاريخيا أن الرجوع في الدراسات إلى الأصول، إنما يكون في عصر الازدهار الفكري؛ فهذا عصر الموحدين، وهو أزهى العصور المغربية من حيث التقدم الفكري، كان لعلم الحديث فيه ظهور وانتشار، بحيث أفضى الأمر إلى أن أصبح هو مذهب الدولة، ونحى فقه مالك جانباً، بل أعلن الحرب عليه، حتى كانت كتبه ومدوناته، تحرق في الساحات العمومية بأمر الدولة، إمعاناً في الأخذ بمذهب أهل الحديث والعمل به، إلى أن قال :

فدار الحديث التي تدشنها جلالتكم اليوم، هي جامعة علمية في مظهر معهد عال، وهو عمل يدخل في قوله ﷺ :

من أحيا سنة من سنني أميتت أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب.

وقوله :

من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها، بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء، وفي رواية وكنت له شفيعا وشهيدا.

والطلبة الذين سيلتحقون بها هم بدورهم سيدخلون في قوله عليه السلام : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وقوله : ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة».

وقد كان التدشين عظيما، حضره العلماء والوزراء وكبار الشخصيات، وصفق له الشعب المغربي المومن، ودعا لأمير المومنين، وكل من يعمل لإصلاح الدنيا بالجزاء الأوفى من عند الله، وقد سمعت بأذني شيخنا الكبير سيدي علال الفاسي، والعلماء يتبادلون التهاني أمام أمير المومنين وهو يقول : إن لم يكن من هذه الدروس إلا هذه البادرة

الطيبة لكفى، تقديرا منه لهذه الدار التي يعلق عليها كبير الآمال.

وهكذا تم تأسيس دار الحديث في عهد مولانا أمير المومنين الحسن الثاني رائد التنميات والمسيرات، وقد صدق الله ظنه، وحقق أمنيته من هذه الدار التي خرجت عددا من العلماء العاملين، والمحدثين الملتزمين، وقد أعاد التاريخ نفسه بإنشاء هذه الدار التي أيقظت الهمم، وحركت الضمائر، وأحيت العزائم، وأثارت الانتباه، وأنارت السبيل أمام المسلمين ليسيروا في طريق واحد، ويعملوا في صف واحد، صامدين في وجه المناورات والمؤامرات، متحدين متعاونين حتى يصبحوا كما كانوا بالأمس القريب سادة العالم، وبناة الحضارة، وحماة العدالة، ورواد السلام.

وإذ يحتفل المغرب المومن هذه الأيام بالذكرى الخامسة والعشرين لجلوس مولانا أمير المومنين على عرش أسلافه المنعمين، والذكرى السابعة والخمسين لميلاد مولانا أمير المومنين، يحمد الله الذي متعه بهذا النظام الملكي المغربي المبني على عنصري الإمارة والإيمان، هذا النظام الذي زوده بالحماة المومنين والملوك المجاهدين المطبوعين بتعميم الخيرات والبركات على المواطنين، فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يدركون الدور العظيم الذي قام به محمد الخامس رحمه الله حينما وهب نفسه لوطنه، وتحرير سيادته، كما يقارن وارث سره مولانا الحسن الثاني الذي جاهد في الله حق جهاده، هذا الملك الذي جدد أمر الدين بمسيراته، واختار الحياة الدستورية لتسيير شعبه، هذا الملك الذي شجع الأمة، ونشر علوم الحديث والسنة، وأنشأ علوم الحديد والتقنية، وزود البلاد بمؤسسات الإنتاج والتنمية، وجاهد في سبيل الكرامة الإسلامية والوحدة الوطنية، وقارع الخصوم بمحكمة لاهاي الدولية بالمنطق السليم والحجة الدامغة، ونظم ايمانا منه إلى الله المسيرة القرآنية، يحدوه في كل ذلك واجب أداء الأمانة المقدسة، والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وحماية الملة المحمدية.

هذا الملك الذي أنعم الله عليه بإشراقات متوالية ومتجلية في هذه المبادرات الديمقراطية التي يفتح بها الباب على مصراعيه أمام الهيئات السياسية لتهاجر كلها إلى الله في إطار الملكية الدستورية، كما يفتح بها الباب على مصراعيه أيضا أمام الهيئات العلمية لتهاجر كلها إلى الله في إطار إمارة المومنين، ليتعاون الجميع في خدمة المواطنين وتركيز عنصري الإمارة والإيمان اللذين بني عليهما النظام الملكي العتيد في هذه الديار. هذا الملك العجيب أمره، والفريد في بابه، بابتكاراته واهتماماته، والمؤسس في إطار ما شرعه من حرية التعبير، والتزم به من خدمة العلم والدين أكاديميات لتيسير أسباب المعرفة وتحقيق وسائل التنمية، والاستنارة بوحي القرآن والسنة، ونشر الأمن والفضيلة، وإحياء الأصالة والمروءة.

هذا الملك الذي حبب إلى شعبه المكرمات، وكره إليه استعمال كلمة «لا» في المعاملات وقطع الآمال بمقاريض اللاءات، فهو أعزه الله مثل أحد جدوده الذي قال فيه الشاعر العربي «الفرزدق».

ما قال لا قط إلا في تشهده

لولا التشهد كانت لاءه نعم

هذا الملك الذي دعا المسلمين في مطلع القرن الخامس عشر الهجري برسالته الخالدة إلى العمل الصالح وتوحيد الصفوف، أسس المجالس العلمية، ونظم الدروس الحسنية الرمضانية لنشر الوعي الإسلامي في النفوس، وإذكاء روح الأخوة في القلوب، مزج الإيمان بالمعرفة، فسار شعبه في الصراط المستقيم، وعبد الله بالعلم، فنال رضا الله العظيم، كان حسنا عند الله في السماء، فنشر له القبول في الأرض، وهداه إلى اتباع أسباب التيسير في الشئون، واختار أسلوب اللين والعفو والصفح في الأمور، اقتداء بجده الرسول الأكبر صلوات الله وسلامه عليه.

ولا يسعنا ونحن نحتفل بذكرى ميلاده السابعة والخمسين إلا أن نهنئه على ما أنجز وينجز من أعمال صالحات، ويحقق من انتصارات من هذا العصر الحافل بالالتواءات في المعاملات، والزاخر بالمعوقات في الحركات.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.



للدكتور ادريس العلوي العبدلاوي
عميد كلية الحقوق بمراكش

مولاي يـــا تـــاج الملـوك وفخرهم
فليهنـــــك العيــــد الأغر الأسعــــد
للـــه مـوسم مـولـــد لـــك عـائـــد
بمسرة مـــوصـــولــــة تتجـــــدد

يحتفل الشعب المغربي قاطبة بكل أبنائه وفتياته وهيئاته وطبقاته، من طنجة إلى الكويرة، هذه الأيام بمناسبة من أطيب المناسبات الوطنية وأخلدها ذكرا، وأبعدها أثرا في تكوين المغرب الجديد وتحريره وتوحيده وتجديده. ذكرى وطنية عزيزة غالية، ذكرى عيد الشباب السعيد الذي يصادف هذه السنة إشراقة الذكرى الخامسة والعشرين لتربع جلالة الملك على عرش أسلافه المنعمين الميامين.

واحتفالات هذه السنة تكتسي أهمية خاصة، وطابعا متميزا من الروعة والجمال، إذ تحل والمغرب العزيز يعيش نشوة الأفراح والاحتفالات بمرور خمس وعشرين سنة - ربع قرن - من التضحية والصمود والعمل المتواصل تحت القيادة الحكيمة لجلالة الحسن الثاني حفظه الله ورعاه. ربع قرن من البـذل والعطـاءات المثمرة مكنت المغرب من ربح الرهان والالتحاق بصفوف الدول العظمى، أصبح بها مثالا يقتدى في الحكمة والتبصر ومعالجة مختلف القضايا.

فما أسعدنا ونحن نرى مرة أخرى في غمرة أفراح عيد العرش المجيد. أفراح عيد الشباب السعيد، يشرق علينا في رحاب هذه السنة الفضية السنية، يعود إلينا بآماله الواسعة وتطلعاته الرائدة وأمانيه الغالية، حاملا معه حفلا من الذكريات المجيدة، وموكبا من صور المفاخر القريبة والبعيدة. هاته الذكريات والمفاخر التي تحتل مكانها في تراث الشعب المغربي، وتزين تاريخه الزاهي الزاهر هي في نفس الوقت جزء من تراث المغرب العربي الكبير ولها مكانها في تاريخ العرب والمسلمين.

إنها الذكرى، وكم لهذه الكلمة الصغيرة من أثر كبير في حياة الإنسان، وكم لها من صلة وثيقة به، لأنها تعتبر شريطا حافظا لتاريخ حياته، مهما كانت سيئة أو جميلة حلوة أو مرة. باسمة أو دامعة، والأهم أن كل ذكرى تستمد قيمتها من قيمة الحدث الذي ترمز إليه سواء في حياة الأفراد أو الشعوب.

وحينما أذكر كلمة ذكرى يستوقفني قول الشاعر في تأمل عميق :

انــا أحيـــا بـــالــذكريـــات وبـــا مـــا
طفـــح القلب بـــالعجيب العجــــاب
رب ذكرى يحــــار في كنههــــا الفكـ
ــر وتخفى عن النهى والصـــــواب

نعم، رب ذكرى يحار في كنهها الفكر، وتذوب فيها المشاعر، ويعجز عن التعبير عنها القلم، مهما سمت فصاحته، وجادت رقته وبلاغته، فما هي هذه الذكرى التي شدا بها الشاعر وتغنى وذاب فيها قلبه وحن، وأي ذكرى أعز وأغلى من تلك التي تعيش حية باقية في تاريخ الأمم والشعوب، تعتز بها وتحفظ أمجادها وتستلهم منها روح الانطلاق والتجدد والخلق والابداع، وتسير على هديها نحو الأفضل والأمتع ؟؟.

وأي ذكرى بين ذكريات الأمم والشعوب تضاهي ذكرياتنا وأمجادنا الخالدة كمثل التي عشناها بالأمس القريب في احتفالات عيد العرش المجيد جوهرة أعيادنا الوطنية في إشراقته السنية، ذكرى البيعة والولاء، والمحبة الوفاء ؟ وكمثل التي نعيش أفراحها ومهرجاناتها وحفلاتها هذه الأيام في مناسبة عيد الشباب السعيد ؟ وما أجمل الأسماء إذا أتت في الوقت المناسب لتجد واقعا يتمخض عن حركة وعن آمال في المزيد من الحركة.

فالشباب والعيد، كلمتان جميلتان في معناهما ومبناهما تمثلان ربيع الحياة وزهرة العمر. وتوحيان بالتفتح والإنشراح والانطلاق. والعيد وحده كعيد يهل على كل بلد في العالم، وفي أي قطر من أقطار الدنيا، ولكن عيد الشباب عيد بمفرده في عنوانه ومدلوله ينفرد به هذا البلد العزيز الذي يضم بين أحضانه في حنان وحب «المملكة المغربية السعيدة» في شخص رائدها العظيم وهيقائدها الملهم الحكيم **الحسن الثاني دام له النصر والتمكين والتعظيم**، وما أروع أن تنفرد به.

فكم ننتظر بحرارة ولهفة أن تمر الليالي والشهور في موكب الزمن السريع ليحل اليوم الجميل الذي نشتاق إليه. يشرق نوره على ربوع الوجود، وترفرف راياته البيضاء في آفاق وطننا العزيز، لتعم الفرحة والبشرى في كل مكان، وتتعانق القلوب والأرواح والأبدان، وتنشرح الصدور، وتلهج الألسن مرحبة مهللة بمقدم العيد الجديد، عيد الشباب السعيد. بوركت يا أقدس عيد في الوطن، وسموت ذرى المعالى والخلود. في موكبك العظيم تحمل أجمل التحايا للشباب وأحلى الأماني العذاب، تنثرها كالورود في كل شبر يضمهم داخل هذا الوطن الحبيب.

والحديث عن الشباب كما هو معلوم متشعب الجوانب تشتاق له النفس، ويرتاح له القلب، ويحب المغامرة في سراديبه ودروبه العقل. وليس «الشباب» هذه الكلمة الصغيرة في مبناها الكبيرة في معناها ومغزاها تلك الفترة التي تعتبر أجمل مرحلة يعيشها الإنسان في حياته. زمانها محدود يمضي ثم لا يعود. تسرع به الأيام والليالي في ركب الحاضر والمستقبل، ثم تفنيه تقلبات الأحداث فيذبل بعد نضارته، ويصفر بعد خضرته، ويخشوشن بعد فتوته، ويموت ويكفن بثوب النسيان ويدفن في لحد الماضي ليصبح في خبر كان. لا تبقى منه غير الذكريات تتلاحق صورها في دنيا الأحلام.

ولكن الشباب الحقيقي الدائم هو شباب القلب والروح. شباب الفكر والعمل والطموح. تلك القوة الهائلة التي تستمد عناصرها من الحياة نفسها بكل تعقيداتها وإرهاصاتها المهولة، وتكون بذور ثمارها قد غرست إبان شباب العمر، أي منذ فتوة الإنسان حتى تصبح قوة بناءة، وطاقة خلاقة مبدعة تصنع التاريخ والعظمة والمجد، بدل أن تتحول إلى هدم وتدمير واضمحلال.

لا أحد ينكر أن الشباب فترة لهو وعبث ومرح بحكم مرحلة حياته الحتمية التي لا بد أن يجتازها في ربيع عمره البسام وإلا لما قال الشاعر بتأسف : «الا ليت الشباب يعود يوما...».

ولكن يجب أن لا ننسى أيضا حتمية القيمة الوجودية التي تفرض عليه أن يكون أهلا لتحمل المسؤوليات العديدة التي لابد تنتظره إزاء الحياة وداخل المجتمع الذي يعيش فيه هذه المسؤوليات والتبعات المنوطة به، والتي تجعله جديرا بأن يبرهن عن وجوده الحقيقي في مرحلة عزيزة وغالية، بأن يعطي الدليل الباهر على قوته الخلاقة البناءة، فعظمة الأمم تقاس بمقدار عمل أبنائها وتضحياتهم المستمرة ونشاطهم الدائب في سبيل الخير والإصلاح والرقي، وفي هذه الأيام بالذات التي هي أحلى مناسبة للحديث عن الشباب والتحدث إلى الشباب. علينا أن نعود بذاكرتنا إلى الأعوام الماضية، وكم في الماضي من عبر نستعرض صورها واحدة واحدة. على مسرح حاضرنا المقيم وعلى ضوء تجاربنا ومجهوداتنا ومعطيات تاريخنا لنرى ونلمس وزن قيمتنا وقيمة وجودنا كأمة ذات حضارة عريقة ومجد أثيل، يتجسم في ذلك الهرم الشامخ الذي يمثل تاريخ الدول المتعاقبة على هذا البلد الأمين، والذي وطدت أركانه، وأرست بنيانه وأعلت صرحه وثبتت قواعده الدولة

العلوية الشريفة، وعلى قمتها العالية جوهرة عقدها علم الأعلام الخفاق، النجم المتألق في الآفاق، **جلالة الحسن الثاني العظيم. فخر ملوكها الأشاوس الأماجد أعزه الله وأيد ملكه وزاده نصرا وتمكينا.**

لبيـــك لبيـــك يـــا خير الـــسلاطين
أدامـــك اللـــــه في عـــز وتمكين
للـــه من ملـــك جلت مـــآثره
عن أن يحيـــط بهـــا عصر بتـــدوين
نعم الإمـــــــام المرتضى حسن
فخر الملـــوك ســـلالـــة الـــسلاطين

إن يوم مولد هذا الملك العظيم، في تاريخنا العلوى المشرق يعتبر مولد الأمل، وميلاد العبقرية الحسنية الخالدة. ذلك أن المغرب - هذا البلد الأمين - لم يكن يعرف عيد الشباب حتى ظهرت المواهب الحقيقية للشباب في شخص الحسن الثاني ملك البلاد الآن، وهو حينذاك - حينما برز هذا العيد - ولي للعهد. فبرزت فيه الثقافة النيرة الهادفة والنضال الأدبي والعلمي، والجهاد والكفاح من أجل حرية الأوطان. وبرزت فيه القيم المثالية التي يجب أن تكون في الشباب من استماتة في الدفاع، وتحمل للمشاق، يقول الأستاذ رشيد ملين في كتاب - نضال ملك - :

«الحسن الثاني المثل الأعلى للشباب المغربي الكامل جسما وذكاء وخلقا، وحين أخذ يشارك بجانب والده العظيم في الحفلات العامة والمهرجانات الثقافية ملك على الشبيبة المغربية لبها، واتخذته قائدا عاما لها في نشاطها الثقافي ونضالها وتجديدها الاجتماعي».

وكل ذلك بفضل التربية الكبرى التي أسبلها عليه الملك المجاهد محمد الخامس قدس الله روحه في جنات النعيم، وقصد بذلك أن يعطى به المثل الأعلى الذي يجب أن يكون عليه الشباب المغربي فوقع الاختيار، ونعم الاختيار على يوم من الأيام للتوجيه وتوعية الشباب بمسؤولياته، فلم يكن إلا يوم ميلاد الحسن الثاني وهو التاسع من يوليوز.

وإن المتأمل في السنوات الميمونة لعمر جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وحفظه ليجدها تاريخا عريضا سامقا شامخا تقصر عن وصفه أقلام المنشئين، وتعجز عن بيانه كتب البلغاء وقصائد الشعراء ومن والاهم من ذوي الصنعة البيانية مهما ذاعت شهرتهم وتفوقت مهارتهم. ويبقى هناك دليل واحد مقنع يستطيع المتأمل أو الدارس من خلاله أن يكتشف سر عظمة شخصية جلالة الحسن الثاني وعظمة تاريخه الحافل بالأمجاد والمفاخر الخالدة، ذلك الدليل تنطق به هذه الوصية الأبوية الخالدة التي مهما رددتها إلا وتعمق تأثرى أكثر فأكثر، والتي يرجع تاريخها إلى تاسع يوليوز من سنة 1956.

يقول جلالة محمد الخامس قدس الله روحه وطيب ثراه :

«يا بني لقد اخترت لك من الأسماء (الحسن)، لأربط بين حاضر البلاد وماضيها القريب والبعيد، وليكن لك في جدك المولى الحسن خير أسوة وأعظم قدوة، فلم تكد تطل على السادسة من عمرك حتى قدمتك للمعلم ليلقنك آيات القرآن، وليغرس في قلبك الطاهر الفتى حب الدين وعزة العروبة والإسلام. ولما ترعرعت يا بني اخترت بقاءك تحت سماء المغرب ليتم تكوينك الثقافي في بيئة مغربية، فبنيت لك مدرسة خارج القصر ليتربى فيك الاعتماد على النفس، فحرمتك من مجاملة الخادمات، وحنان المربيات، حتى تزدهر شخصيتك، وتصبح عصاميا بارزا، قبل أن تكون أميرا، ثم أحطتك برفقاء من مختلف طبقات الشعب لأنني كنت أريد أن أعدك إعدادا منتزعا من بيئة بلادك فكنت أحرس أن يعاملك رفقاؤك كباقي إخوانك التلاميذ تقارعهم الحجة بالحجة، فلا يخضعون لك إلا بقدر ما تبديه من تفوق ومعرفة، وهذا ما كنت أرجوه من المدرسة المولوية : انعزال عن القصر، واعتماد على النفس، وخوض معترك الحياة، لقد سهرت يا بني على

بناء المدرسة وبرامج التعليم وكنت المفتش فيها والمراقب، وكنت أفاجئكم في الدروس وأحيانا بالليل فكنت تقوم وتسرع باسما مبتهجا. كما أني كنت أراقب دفاتر واجباتك فأجزيك إذا تفوقت وأعاقبك إذا قصرت ولكن والحمد لله قلما كنت متأخرا.

يا بني : لقد كنت صارما مع الأساتذة وكنت ألح عليهم أن يعودوك الطاعة والامتثال، وأن لا يتساهلوا معك. وألا يحترموا فيك إلا القيم الإنسانية المجردة وما أفاء الله عليك به من ذكاء وعلم وأدب وعمل، وكان غرضي أن تتعلم الطاعة لتعرف في يوم من الأيام كيف تملي أوامرك، لأن من تلقى الطاعة جيدا أملاها جيدا».

«يا بني قل للشباب إن الجيل الحاضر كافح في سبيل الاستقلال وعليهم أن يتابعوا الكفاح بتثبيت هذا الاستقلال ولازدهار البلاد ورفاهيتها وتقدمها في عهد الاستقلال».

ولم يمهل القدر جلالة محمد الخامس ليقطع بشعبه أشواطا بعيدة في المرحلة الجديدة الحاسمة، فمضى ملقيا بالعبء كاملا إلى ابنه البار.

كانت رسالة محفوفة بالمخاطر تلك التي كان على جلالة الحسن الثاني أن يقوم بها : إنها رسالة البناء والتشييد، ورسالة تحديد الاختيارات الدقيقة، ورسالة تجسيد الاستقلال في صورته الرائعة لينعم بثماره شعب كامل».

يقول جلالته حفظه الله :

«إنني فخور بعيد ميلادي لأنه كان في الإمكان أن ازداد في حقبة أخرى من الزمن، سعيد لأنه لو تقدمت أو تأخرت ما شاهدت ما شاهدته، ولما شاركت فيما شاركت فيه، ولما أعطيت من نفسي وجهدي وشبابي وقوتي ماأعطيت، وما بذلت. فخور بأن ولدت في المغرب، وأن أكون فردا من الأسرة الكبرى الأسرة المغربية، لأن شعبي الشعب المغربي جدير بأن يطمح أن ينسب إليه كل عظيم عظيم، ويعد في سجل مواليده كل حكيم حكيم».

وهكذا نرى وكما يحدثنا صاحب كتاب ـ مواقف شاهدة ـ «أن العرش المغربي في حد ذاته ثورة دائمة وكان محمد الخامس منذ نعومة أظفاره ثائرا، وفي هذه البيئة الثائرة نشأ وترعرع جلالة الملك الحسن الثاني فدخل «مدرسة محمد الخامس» في مراحلها المختلفة : (1930) (1934) (1936) (1944) (1947) (1952) (1953) ليصل إلى أعلى مراحلها في كورسيكا ومدغشقر من 20 غشت 1953 إلى 16 نوفمبر 1955. مما أكسبه تكوينا وطنيا نضاليا ثوريا تقدميا لم يتوفر لقائد من قادة العالم اليوم، فكان رفيق محمد الخامس في محنته، وفي صموده، وفي تضحيته وفي وقفته تلك الشهيرة وفي منفاه السحيق، وفي عودته، وفي بنائه للدولة بعد الاستقلال، وفي تأسيسه للقوات المسلحة الملكية وفي مباشرة شؤون الحكم، وفي اضطلاعه بمسؤوليات التسيير في ظروف بالغة الخطورة والسوء.

فالحسن الذي كان أول من أخذ الدرس من ثورة الملك والشعب، لأنه كان إلى جانب مفجرها، آثر أن يحافظ على شعلة الثورة لتكون دليله ورائده ومصدر إلهامه في سيرته الظافرة نحو استكمال الوحدة الترابية للملكة، وفي معركته الموصولة الأسباب لبناء مغرب قوي اقتصاديا وتنمويا وديمقراطيا وثقافيا وفكريا. وفي صموده النادر المثال بجيشه البطل المغوار على رمال الصحراء... المسترجعة لصيانة الحقوق المستردة والدفاع عن السيادة والوحدة الترابية».

فإذا كان محمد الخامس رحمه الله مفجر ثورة الاستقلال فإن وارث سره جلالة الحسن الثاني نصره الله يواصل المسيرة لبناء هذا الاستقلال في طريق أكثر تقدما وتطورا وتحديثا.

«نعم، إن يوم تاسع يوليوز في تاريخ المغرب الحديث هو رمز حي ونابض بهذه التوجيهات والآمال العريضة، ومن نبض هذا اليوم تشكلت حيوية التاريخ والأجيال والكيان والسيادة المغربية أرضا ونظاما وحضارة وقيما... ذلك أنه بعبارة بسيطة من حتميات الإنصاف أن يقال ويكتب بأن العبقرية الحسنية في المجال الوطني كما في المجالات العربية والإسلامية والإفريقية والدولية

إليها يرجع الفضل في الإشعاع المغربي، وإليها تعود النبالة السامية والصافية التي يحظى بها المغرب والتي تعد رصيده بين الدول».

يـــا عـــاهلي سلمت يـــداك فهـــذه
بنـــدى يـــديـــك ديـــارنـــا تتحضر
ملـــك الشبـــاب سموت في أرواحنـــا
ولأنت بـــالـــذكر الجميـــل مـــدثر

ولهذا فالحسن الثاني أعده التاريخ، لتوجيه الجيل الجديد بفلسفة جديدة، تصدر عن القيم الإسلامية ومبادىء المحبة والخير لصالح الوطن والإنسانية.

الحسن الثاني الرائد العظيم الذي يعز نظيره، ويقل مثيله قدوة الشباب المثلى، والمثل الأعلى ذكاء وتفكيرا، وخلقا وسلوكا وعملا وجدية، وحزما وعزما، وإرادة ونبلا، وسماحة وكرما وفضلا.

الحسن الثاني الإنسان الملك والملك الإنسان، الملك العالم والحاكم العادل. تلك الشخصية الفريدة بطابعها وميزتها النادرة في التاريخ، بعبقريتها الفذة التي كانت في الواقع نتاج كفاح متواصل وثقافة عميقة، وذكاء متوقد، وجهاد مستمر، وصبر دؤوب على مواجهة المحن والملمات، بإيمان كبير وثقة في الله، وتمسك عميق بالمسؤولية وواجبات الأمانة، وحقوق الرسالة.

وكل هذه الخصال الحميدة، والسجايا العديدة جعلت جلالته محط إعجاب وتنويه وإشادة وتقدير من جميع المؤرخين والزعماء والقادة ورجال الفكر والثقافة على المستوى العالمي.

وإذ أطل علينا اليوم عيد الشباب عيد ميلاد ملكنا جلالة الحسن الثاني، فإنه يطل علينا وقد قطعت البلاد أشواطا بعيدة في عهدها الجديد، مما يزيدنا حماسا واندفاعا وتفانيا في العمل وعزيمة قوية للوصول إلى أهدافنا متداركين ما فاتنا، ولنا في طاقات الشباب وحيوية الشباب القوة النامية والمحرك الدائب الدوران، الذي سنواصل به مسيرتنا بقيادة جلالة الحسن الثاني نحو الرفاهية للأجيال الحاضرة والمقبلة.

فتحية وولاء وامتنانا لقائد الشباب وبطل الأمة ورائد المسيرة جلالة الحسن الثاني الحبيب مهنئا بعيد ميلاد السعيد المجيد.

وبما أن من طبيعة المحبة أن يهدي المحب أعز ما لديه للحبيب يسعدني ويشرفني يا مولاي، ومحبتكم نبض قلبي، ونور وجودكم نور حياتي ودربي. وبشخص جلالتكم يزيد تعلقي وشوقي أن خير هدية أقدمها لسدتكم العالية بالله تعلقي بأهداب عرشكم المكين المجيد. وولائي وطاعتي لأمركم المنفذ السديد، ودعائي لجلالتكم في إشراقة عيد ميلادكم الميمون السعيد، أن تدوم حياتكم أعيادا مجيدة، مقرونة بالأمجاد العديدة.

ولتعيشوا مغتبطي النفس بأعمالكم الصالحة وبمحبة شعبكم الوفية المستميتة الصادقة. قريري العين بسمو ولي العهد الممجد أمين سركم الأمير سيدي محمد، وصنوه الأسعد المولى الرشيد الأرشد، وبسائر أفراد البيت المالك الميامين. أدام الله عزكم وعزهم أجمعين، آمين آمين يا رب العالمين.



لماذا رعاية الدّولة العلويّة للطريقة التجانية؟

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية

«رباط البيعة للمملكة المغربية هو الذي حدا الشيخ التجاني للهجرة إلى فاس انتجاعا للجهاد دفاعا عن الصحراء الشرقية المغربية ومنها عين ماضي الأغواط».

إن الشيخ سيدي أحمد بن محمد التجاني* : الماضوي المراكشي عالم نحرير نهل من المعقول والمنقول في مسقط رأسه (عين ماضي) حيث ولد عام 1150 هـ ممّا أهله للفتوى والتدريس قبل أن يدرك سن الواحد والعشرين، وفي هذه السن المبكرة بدأ وهو يافع جولته العلمية في البلاد وطاف الآفاق، بحثا عن المشايخ من أهل التربية، وقد أبى إلا أن يستهل رحلته الاستكشافية الصوفية بالمغرب بلده الأصلي عام نيف وسبعين ومائة وألف، فوصل إلى فاس وأحوازها حيث سمع علم الحديث وارتحل إلى (جبل العلم) لأخذ القراءة والتجويد، فاتصل ببعض قادة الحركة الروحية أمثال مولاي الطيب بن محمد بن عبد الله الشريف الوزاني (المتوفى عام 1181 هـ)، ومحمد بن الحسن الوانجلي من بني وانجل بجبل الزبيب المتوفى في حدود 1185 هـ)، وسيدي عبد الله بن العربي بن أحمد بن محمد بن عبد الله معن (المتوفى عام 1188 هـ)، وأحمد الطواش نزيل تازة (المتوفى عام 1204 هـ).

وقد كان لهذه الجولة الأولى في ربوع المغرب أثر خاص في تكييف وجهته وطبع شخصيته، فاكتملت لديه ثقافة مزدوجة تعززت فيها الشريعة بالحقيقة والظاهر بالباطن، فعاد مملوء الوفاض إلى الصحراء ببلد الأبيض[1] فانقطع بها للعبادة خمس سنوات زار خلالها (عين ماضي) ثم استقر بمدينة (الجدار) وهي مدينة تلمسان، فأقرأ الحديث والتفسير قبل الشروع في رحلته إلى الديار الشرقية عام 1186 هـ.

---

*) يوجد أحمد تيجاني آخر ينتسب لقبيلة مغربية توفي عام 869 هـ/1464م (شجرة النور الزكية ص 378/ - نيل الابتهاج ص 67).

1) حيث توجد زاوية الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ القطب الصديقي الشهير (بغية المستفيد - سيدي العربي ابن السائح ص 120).

وهكذا هاجر الشيخ الشاب من قرية (عين ماضي) وهو في عنفوان الربع الأول من عمره، بعدما أزعجه صاحب وهران الباي محمد بن عثمان الذي تضايق من نفوذه في المنطقة، وكان المغرب هو البلد الذي اختاره لمقامه، لأنه مقر سلفه الذين كانوا قديما بمراكش[2] الحمراء، ولم ينتقل منهم إلى صحراء الجريد[3] إلا جده الرابع المختار بن أحمد بن محمد فتحا، الذي كان أول من وفد إلى (عين ماضي) وتوطن بها وبنى وتزوج من تجان، فكانوا أخوالا للشيخ ولهذا ينتسبون للتجانية وليس لهم نسب بعين ماضي، بل غلبت عليهم الكنية لأجل المصاهرة.

وقد اختار الجد الوقور الهجرة إلى (بلد الجريد) لأنها كانت آنذاك جزءا من المغرب، وجه إليها السلطان المولى عبد الله العلوي خلال السنة التي ولد فيها الشيخ أي عام 1150 هـ 1737م حركة بإمرة القائد الجيلالي بن محمد الصفار لاستئصال عناصر الفتنة الذين بدأوا يثيرون القلاقل للمساس بسيادة المغرب في المنطقة. وقبيل وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1204 هـ / 1790م، هاجم الأتراك بقيادة (باي مسكرة) المقاطعات الشرقية من المملكة المغربية وهي المهاية وبنو هاشم والحرار، وقصور جنوب وهران والشلالة وأفلو وعين ماضي والأغواط، وقد لاحظ الضابط الفرنسي القبطان مارتان Martin صاحب كتاب (أربعة قرون من تاريخ المغرب والصحراء) (ص 101) أن هذه المناطق ظلت مندرجة في التراب المغربي طوال 150 سنة (راجع كتاب : Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale وظل الشيخ التجاني يتردد قبل استقراره النهائي بفاس عام 1213 هـ بين (أبي سمغون) القريبة من (الشلالة) بالصحراء الشرقية وتلمسان وكانت خاضعة هي أيضا للمغرب الذي ارتكزت سياسته آنذاك على مدافعة كل مغير على تراب (المغرب الكبير)، ولو كان هذا المغير هو الترك، فقد احتل تلمسان محمد الشيخ المهدي (عام 957 هـ) وطرد الأتراك منها، واستنجد الزعيم «الجزائري» (عروج) بمحمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي والد أحمد الوطاسي، فوجه إليه 20.000 مقاتل عن طريق مليلية وانطلق أحمد الوطاسي هذا بعدما استنجد به (أبو زيان أحمد الثالث) ضد الإسبان عندما احتلوا تلمسان، وكان المدد المغربي مدافع ودروعا وقسيا ومعدات مختلفة[4]، وقد هاجر علماؤها وكبار رجالاتها إلى فاس (عام 968 هـ) عقب الفتنة مع الأتراك، وفي (21 يبراير 1831) أكد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام حقوقه في تلمسان، وقد احتل الأمير عبد القادر المدينة باسمه وبصفته خليفة يدعو له على المنابر، وفي 16 غشت 1837 كتب (دولابورط) Delaporte من الصويرة إلى الكونط مولي (Comte Molé) وزير الخارجية الفرنسية يخبره بأن أمرا صدر من السلطان (يوم 8 غشت) باحتفال الشعب المغربي بدخول الأمير عبد القادر إلى تلمسان ودامت الأفراح ثلاثة أيام، وكان باعث هذا الفرح رجوع تلمسان إلى حظيرة «المغرب الأوسط» لأن المغرب لم يكن يحتضن تلمسان إلا حماية لها من سيطرة الأستانة أو الإسبان.

نعم ظل الشيخ يتأرجح بين هذا الثالوث فمكث في تلمسان ثماني سنوات منذ (عام 1188 هـ) قبل التعريج (عام 1196 هـ) على فاس والعودة إلى (أبي سمغون والشلالة) (عام 1199 هـ).

وقد حز في قلب الشيخ الجليل هذا الصراع المكشوف بين الأتراك والدولة العلوية الماجدة فكان يرى فيه مساسا بسيادة ووحدة المغرب، ولكن الحركة المناهضة للأتراك والمنبثقة من فاس، كانت تثلج صدر الشيخ الذي ازداد تعلقا بالملوك العلويين، وخاصة منهم المولى سليمان الذي استرجع (فجيج) بالصحراء الشرقية (عام 1221 هـ /

2) رفع النقاب بعد (كشف الحجاب) لأحمد سكيرج - طبعة 1390 هـ ج 3 ص 64.

3) (بلاد الجريد) اسم يطلق على الصحراء الشرقية منها والغربية نظرا لتواتر النخيل فيهما وقد صدر بغرناطة كتاب في وصف افريقيا للمؤرخ (مارمول كرباخال) طبع سنتي 1573 و1599 تحدث فيه مؤلفه عن مغربية بلاد الجريد.

4) راجع أرجوزة (عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل)، لمحمد الكراسي - المطبعة الملكية بالرباط ص 30/ الاعلام للمراكشي ج 2 ص 37، الطبعة الأولى.

1806م) كما استعاد كورارة وتوات (عام 1223 هـ / 1808م)[5].

وكان مولاي محمد بن الشريف أول سلطان علوي ملك توات حيث دخل (تيمنطيت)، (عام 1053 هـ / 1645م) ومن قواده القائد علي والقائد أحمد بن عبو[6].

وقد سبق للمولى سليمان أن استنفر (عام 1211 هـ / 1797م) جميع (رعاياه الأوفياء) كما سماهم آنذاك - في كورارة وتوات وتيديكلت ليكونوا يدا واحدة على الذين يعيثون في الأرض فسادا، وكان الصحراويون قد انضوا إلى السلطان عندما بويع بفاس (عام 1206 هـ / 1792م).

وقبل الانتفاضة السليمانية الجريئة بخمس سنوات ورد على المغرب جاسوس إسباني هو علي باي العباسي واسمه الحقيقي ديكوباديا Diego Badia (عام 1218 هـ / 1803م) مبعوثا من ملك إسبانيا لتهييج الجو بإحداث قلاقل واضطرابات بجنوب المغرب تفسح المجال لاحتلال الصحراء، وكانت فرنسا تمارس من جهتها ضغوطا على المولى سليمان، آخرها تهديدات نابليون وتآمرها مع دول أوروبية متوسطية ضد الأسطول المغربي حامي شواطئ (المغرب الكبير) للقضاء عليه وفتح ثغرات للتسرب إلى هذه المنطقة الشاسعة.

وفي هذه الفترة كان قد مر على مقام الشيخ بفاس خمس سنوات، فكتب إلى المولى سليمان خطابا جاء فيه : «أمير المومنين خليفة رب العالمين سيدنا ومولانا سليمان بن مولانا محمد الشريف الأصيل الماجد الأثيل، اعلم أن الله قد ولاك أمر خلقه وائتمنك على بلاده وعباده فأنت أمين من أمناء الله في بلاد الله وعباده».

وقد تلاحقت الأحداث في ظرف وجيز، حيث لم تمر سنتانه فقط على استقرار الشيخ التجاني نهائيا بفاس حتى أصبح المولى سليمان يتدرج في سياسته التحريرية في الصحراء الشرقية ضمن السيادة المغربية، فألغى (عام 1215 هـ / 1800م)، وظيفة العامل ومنح الصحراء الحكم الذاتي، قاصدا بذلك تمكين أهل الصحراء من اختيار طرق أداء الجبايات وتوزيعها، وتعيين عمال وقواد صحراويين، وكان الخضوع لأداء الأعشار مظهرا أساسيا من مظاهر السيادة هو العامل الأكبر في التمييز بين ما سماه الاستعمار ببلاد المخزن وبلاد السيبة.

والواقع أن التعاون بين الشيخ الجليل والسلطان الصالح كانت له أسيسة مزدوجة، ففي الوقت الذي ارتكز نفوذ الشيخ عبر الصحراء كان الأشراف العلويون يملأون المنطقة ويضربون أسمى المثل في حسن السلوك وجميل الرعاية وانبساط السلطة، نعم كان مريدو الشيخ في الجزائر يسهمون في محاربة الأتراك كما فعل (النعيمي بن زيدان) زعيم (اتيارت) فيما بين (التل والصحراء) حيث قام بأمر من الشيخ بصد هجمات محلة وهرانية تركية على المنطقة، وكان الشيخ يتدخل في الصحراء لرسم الحدود المتنازع فيها بين القبائل كما فعل بين الشلالة وأبي سغون.

وقد تعززت الصحراء بفيض من هجرة الأشراف الذين أينعت ثمارهم جنوبا وشرقا منذ استقدام المولى حسن بن قاسم، جد الملوك العلويين من (ينبع النخل) في صحراء الجزيرة العربية إلى صحراء المغرب، وكان للمرابطين في الصحراء سواء منهم الأشراف أو الصوفية تعلق قوي بعرش تعتليه سلالة النبوة من آل علي عليه السلام، فكانت الزوايا منتدى للعلويين حيثما كانت ومن بينها زاوية سيدي البكري بتوات التي كانت مقرا للأمير الحسين بن محمد بن عبد الله منذ (عام 1210 هـ / 1795م) إلى أن توفي بها (عام 1213 هـ / 1798م). وقد وجه المولى سليمان (عام 1211 هـ / 1797) إلى ابن عمه قاضي (تيمي) سيدي باهيا الأمر بإحصاء الأشراف العلويين بتوات فبلغ عددهم فيها وحدها 8088 نسمة، دون الأدارسة الذين أضيفوا (عام

5) الوثائق الغميسة لتاريخ المغرب، دوكاستر - السعديون - السلسلة الأولى (س - أ) م.1 ص 441/م 2 ص 283/ كوتيي - العصور الغامضة لتاريخ المغرب ص 429/ أربعة قرون لتاريخ المغرب والصحراء - مارتان ص 58).

6) كتاب (أربعة قرون ص 51) وقد تجده ذلك في كتاب آخر للضابط مارتان هو (الواحات الصحراوية) نشر عام 1908 بالجزائر.

1213 هـ / 1799) بأمر سلطاني جديد ولا بدع في ذلك، فقد كان للشريف يحيى بن عبد الله الكامل عقب ببلاد السودان عبر الصحراء منهم فرق في (برنو) و(هوصة) وبولان وفزان وتنبكتو[7].

وكثيرا ما كان المولى سليمان يتدخل بفعالية في شؤون القبائل الصحراوية التي كانت تنصاع لأوامره في خصوماتها الخاصة فمن ذلك أن قبائل الساحل[8] وصلت (عام 1193 هـ / 1779م) إلى (تاسفاوت) حيث انتشرت في الواحات لنهب قصورها فتدخل المولى سليمان (عام 1211 هـ / 1796) ووجه فئة من أهل الساحل إلى توات للسهر على تنفيذ التعليمات المولوية بعد أن جاءوا إلى بلاطه تائبين.

وبعد وفاة الشيخ (عام 1230 هـ) والمولى سليمان (عام 1238 هـ) واصل النجل الأكبر للشيخ سيدي محمد الكبير الصراع ضد (محمد باي التركي) حاكم الجزائر الذي حاول استنزاف (عين ماضي) فاتجه المجاهد سيدي محمد الكبير نحو (أبي سمغون) قاصدا مدينة (أم عسكر) في نضال واستماتة ضد المغير الأجنبي إلى أن استشهد مع ثلاثمائة من رفاقه.

ولما عاد سيدي محمد الحبيب النجل الثاني للشيخ من الحج عبر تونس، أوعز إليه (الباي) بأن يمر على الصحراء إلى (عين ماضي) محذرا إياه من حاكم الجزائر، وقد قبض حاكم وهران على أربعمائة من أهل (الأغواط) فذهب سيدي محمد إلى (أبي سمغون) بالصحراء المغربية، ثم عاد إلى عين ماضي حيث كافح للدفاع عن هذا المركز، منجليا منه مرة أخرى إلى الصحراء عندما حاصر قرية (عين ماضي) الأمير عبد القادر الجزائري، وكان الأمير عبد القادر قد تنكر آنذاك للسلطان المولى عبد الرحمان، وصار يدعو لنفسه بعد أن كان يخطب على المنابر باسم السلطان، ولكن الأمير لم ينل منه قلامة ظفر، إذ أن الابن البار للشيخ لم يضع السلاح موقنا بأن بيعة الصحراء ومنها (عين ماضي) لملك المغرب، كانت في عنقه فتابع نضاله إلى أن استشهد في طريقه إلى قائد الجيش الفرنسي (عام 1269 هـ) محتفظا بمسقط رأسه بعيدا عن سيطرة المغير الجديد : فرنسا.

وهكذا ظلت سلالة الشيخ تكافح وتنافح في جهاد موصول للذب عن كل من الأغواط وعين ماضي كامتداد صحراوي للمملكة المغربية وكان يحمي المد الإسلامي في ربوع إفريقية الجنوبية الأمير التجاني عمر بن سعيد الفوتي الطوري إلى (عام 1261 هـ) حيث استشهد هو الآخر في جهاده ضد الفيالق الفرنسية[10].

ولم يكن هذا الجانب السياسي الديني أو قل شعور الشيخ وسلالته بواجب المواطنة - كما تقول اليوم (devoir civique) هو العامل الوحيد في رص وحدة الفكر والوجهة بين الشيخ سيدي أحمد التيجاني وبين الملوك العلويين، بل كان قلب الشيخ عالقا - أشد ما يكون العلوق - بعاصمة وطنه فاس مهد المولى إدريس الأزهر الذي رحل الشيخ (عام 1191 هـ) خصيصا لزيارته.

وقد كان لجامع القرويين إشعاع خاص في إفريقيا كافة، أحال العاصمة الإدريسية إلى عاصمة للقارة جمعاء، مما حدا مؤرخين غربيين[11] إلى تسميتها بـ (أثينة إفريقيا) و(مدينة العلم والمعرفة) وكان من نتائج هذا الاشعاع إقبال إفريقيا والشرق الأدنى على فاس حيث انحدرت المآت من طلاب المعرفة كما انطلق أبناء فاس في جولات علمية عبر السودان وتونس ومصر والشام خاصة ما بين (1143 هـ و1145 هـ)[12].

7) الدرر البهية ج 2 ص 200.
8) الساحل في الصحراء يطلق على أقاليم ما قبل وديان النيجر والسنغال.
9) (رفع النقاب) ج 3 ص 198.
10) (كشف الحجاب) - أحمد سكيرج ص 289/ ملحق بروكلمان ج 2 ص 896.
A. Le Chatelier, l'Islam dans l'Afrique Occidentale p. 189

11) راجع كتابنا بالفرنسية الذي طبع مرتين. L'islam dans ses sources
12) الاستقصا ج 4 ص 64/ قوافل السودان م 3 ص 711/ وثائق دوكاسترس. أ.م 1 ص 631).

وقد هاجرت من الصحراء الشرقية إلى فاس أفواج شتى عبر العصور وخاصة في العهد العلوي مثل شرفاء (غريس) القاطنين بأم عسكر عندما اشتدت وطأة الباي الجزائري عليهم، ومن بينهم علماء جهابذة كمحمد بن عاشور السمغوني وعبد القادر بن عبد الله المشرفي كما انتقل من تيمنطيت جنوبي شرق (تيمي) بتوات الشرفاء المناليون المعروفون بالزباديين[13] ومنهم العالم الجليل محمد الزبادي المنالي.

وقد لاحظ موليراس (المغرب المجهول ج 2 ص 437) أن أولاد سيدي الشيخ لجأوا إلى جنوب المغرب وبلاد الـايس بين مكناس وفاس، حيث يوجد أهل الأغواط وكذلك بين سبو وورغة. (الوثائق المغربية ـ م 11 ص 5 عام 1907).

كما هاجرت إلى فاس من الصحراء المغربية وما وراءها فلول متتالية خاصة خلال القرن الثاني عشر والنصف الأول من الثالث عشر نذكر منها فرقة (الألوفا) Alofas التي تشبعت في ظلال (جامع القرويين) بالروح الإسلامية وتعاليم القرآن، فنشرت الإسلام في إفريقيا الغربية[14].

وقد أصبحت فاس بعد مقام الشيخ التجاني بها، ومنذ زهاء القرنين مهبط رواد جدد للعرفان والسلوك الروحي من مجموع أنحاء المغرب الكبير وصحرائه، نذكر منهم على سبيل المثال :

1) شيخ الإسلام بتونس سيدي إبراهيم الرياحي المتوفى عام 1266 هـ) الذي ورد على فاس (عام 1218 هـ) بأمر من أمير تونس حمودة باشا، والذي مدح الشيخ بقصيدة مطلعها :

صاح اركب العزم لا تخلد إلى الياس
واصحب أخا الحزم ذا جد إلى فاس

كما مدح المولى سليمان ونجله الأمير مولاي إبراهيم بقصيدة مطلعها :

هـذا المنى فـانعم بطيب وصـال
فلطـالمـا أضنـاك طـول مطـال
بشرتني بسـلالـة الخلفـاء من
أمـداحهم تتلى بكـل مقـال
من حبهم فرض الكتـاب أمـا ترى
أن المـودة حين يتلـو التـالي
ولـو أنني حـاولت مـدح سـواهم
عقـد القريحـة عنـه أي عقـال

2) محمد بن محمد بن المشري علامة تكرت (عمل قسنطينة) الذي لقيه الشيخ (عام 1188 هـ) وعاد معه إلى فاس وقد توفي بالصحراء الشرقية (عام 1224 هـ) حيث نشر الطريقة التجانية إلى حدود النيجر[15].

3) عثمان الفلاني الاكناوي الذي قدمه الشيخ لتلقين طريقته حين اجتماعه به في رحلته (عام 1187 هـ) إلى الحجاز فكان أول من أدخل الطريقة للسودان[16] وقد توفي بقرية (كيهيو).

4) بوزيان بن محمد داوية من حفدة العارف سيدي الشيخ بالصحراء الشرقية الذين أخذوا الطريقة التيجانية عن صاحبها وأسهموا في نشرها بتوات وقد تتلمذ هو ووالده عن الشيخ بفاس[17].

5) محمد بن عبد الله التلمساني الذي مدح الشيخ بقصيدة مطلعها :

يـا أهـل نجـد ومـا نجـد وسـاكنهـا
أشهى إلى القلب من أوطـان تجيني
تضـوعت نفحـات المسـك منـه على
فـاس وعم شـذاهـا منتهى الصين

13) الدرر البهية للفضيلي ج 2 ص 143.

14) D – J. EAST, Western Africa, London 1884 –
– D– Westermann : Islam in the West and Central Sudan. The international Rev. Of missions, vol I (1912 p. 644).

15) كشف الحجاب ص 162 (بغية المستفيد) لسيدي العربي بن السائح ص 193.

16) (رفع النقاب بعد كشف الحجاب) ج 4 ص 80.

17) (كشف الحجاب) ص 343.

وحنت الشـــام والمصر العتيـــق لمن

خصت ركـــائبـــه قطرا بسعـــون

حنت تلمســان حـزنـا حين فـارقهـا

وقلـــدوا حكمهـــا شيـخ المجـــانين

وقد حظيت فاس بمدائح لم يعرف مثيلها قبل القرن الثاني عشر كما وكيفا وهي تعد بمآت القصائد جمع بعضها العلامة أحمد سكيرج الفاسي ومنها قصيدة شاعر عاصر الشيخ هو عبد القادر بن محمد السلاوي قال في مطلعها :

إذا مـــا جئت فـــاســـا عن قريب

فـــدونـــك بـــاب أحمـــد التجـــاني

عليم عـــــامــــل ثبت ونـــــور

زهي زاهـــــد قطب الـــزمـــــان

شريف عـــارف بـــاللـــه حقـــا

طريقتـــه مرصفـــة المبـــاني[18]

والواقع أن حاضرة فاس كانت آنذاك في مستوى كل من الرجلين الشيخ سيدي أحمد التجاني وإمام السلفية أبي الربيع السلطان المولى سليمان الذي كان قد أثارها شعواء على المواسم والطرق غير السنية في رسالة مطبوعة فلم يسعه إلا التنازل والاجلال لهذا الإمام السني الفاضل فأنزله على الرحب والسعة في (دار المرايا) بفاس وعبر عن رغبته في الإسهام في نفقات بناء زاوية فاس، وصار يتردد على الشيخ للاقتباس من علمه والغرف من معين هديه، في الوقت الذي اعتقل أحد كبار شيوخ الطرق بفاس، وقد واكب السلطان ثلة ممن كانوا يحضرون مجلسه السامي من شيوخ الجماعة بفاس، منهم الشيخ عبد الرحمان الشنجيطي الذي كان مجلسه بفاس العليا يستقطب علماء وقته والذي أقسم أمام تلامذته بمسجد الرصيف (أنه لا يعلم على وجه الأرض أعلم من هذا الشيخ).

ومنهم أيضا علماء ينتمون إلى كبريات الأسر الفاسية كالعلامة علال بن عبد الله بن المجذوب الفاسي الفهري، جد الزعيم علال الفاسي وسميه، والعلامة عبد الواحد الفاسي ومعظم آل البيت ممن كان لأجدادهم ضلع كبير في تركيز الحركة الصوفية بالمغرب أمثال العلامة والأستاذ المقرئ محمد الحفيان العمري الشرقي والإمام الهمام سيدي عبد السلام بن الشيخ الكبير المعطى بن صالح الشرقي مؤلف (ذخيرة المحتاج) والعلامة محمد بن أحمد السنوسي والسيد عمر بن محمد بن إدريس ابن عبد العزيز الدباغ، والعالم المرشد مولاي عبد المالك الضرير العلوي وإمام جيله محمد الطالب العلوي والشيخ عبد الله بن إبراهيم العلوي الصحراوي الذي تدبج بفاس مع الشيخ بناني محشي الزرقاني وكان من خاصة السلطان المولى محمد بن عبد الله (والتدبج معناه أن يأخذ أحد الرجلين عن الآخر) والعلامة عبد العظيم العلمي والعلامة سيدي العربي العراقي والشيخ محمد جنون أول من أقرأ (المطول) بفاس وسيدي محمد بن جعفر الكتاني أول من أقرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل بالقرويين والشيخ حمدون بن الحاج الذي مدح الشيخ بقصيدة ذكرها ولده في كتابه[19] (سلوة الأنفاس لسيدي محمد بن جعفر الكتاني ج 1 ص 183).

وهنالك الآلاف من أضراب هؤلاء وجلهم من بيوتات الشرف والسؤدد في حواضر القارة الافريقية وصحرائها، حيث لم تكن تخلو دار من مريدين تيجانيين برهنوا باستقامتهم وطول باعهم علما وفضلا على أنهم كانوا جديرين بالانتماء إلى هذا الجناب الذي تبلورت في مسيرته معالم السنة ومجالي الشريعة.

وحقيقة الأمر أن سنية هذه الطريق الذي التف حولها كبار السلفيين كانت الجامع الأكبر بين الرجلين لأن

---

18) (رفع النقاب) ج 4 ص 46.

19) مخطوط يسمى (الاشراف على من بفاس من العلماء والاشراف) وهو بخزانة العلامة محمد الصبيحي بسلا، ومطلع هذه القصيدة :

إن شئت تصبح في رياض أمان ... وأردت تغدو في منى وأماني

فعليك بالبدر المنير سنى أبي ... العباس أعني أحمد التجاني

شمس السيادة قطب دائرة الهدى ... بدر السعادة كوكب الإحسان

المولى سليمان قد ورث عن والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله العالم المحدث السلفي وجهته السنية المثلى مما حققه ـ قدس الله روحه ـ من مسانيد أئمة الحديث ورجال الصحاح.

وقد لاحظ أبو المواهب سيدي العربي بن السائح «أن من الكرامات العظام والمناقب الجسام، التي يفتخر بها المعتقد وينزجر المنتقد شدة اتباعه (أي الشيخ) رضي الله عنه للشرع الظاهر والتقيد بأوامره ونواهيه في الباطن والظاهر». كما أفرد صاحب (جواهر المعاني) فصلا طويلا للتحدث عن سيرة الشيخ السنية وحفظه للآداب القرآنية، وقد كاد علماء عصره شرقا وغربا يجمعون على فضله وأشادت بعلمه وتقواه وزهده كتب التراجم «الا الشاذ ممن ألف الوقيعة في أئمة الدين».

وقد ذهب الشيخ في سنيته إلى حد الاستعاضة بالقرآن عن كثير من الأحزاب كحزب (السيفي) الذي استبدل به قراءة سورة القدر أربعين مرة[21] كما ألزم تلامذته بحزبين من القرآن كل يوم كحد أدنى للمريد مع التنصيص على أن القرآن أفضل أصناف الذكر لمن يعمل به ولا يدخل في المقولة النبوية الصحيحة «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه» إلا أن عوام الطريق تلقوا كرامات الشيخ فزادوا فيها تمويها ندد به أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في بغيته كما أمر سيدي البشير بن سيدي محمد الحبيب التجاني بتمزيق الرسائل التي شحنت بهذه الترهات[22].

وكان الشيخ قد عرض إلى ما قد يتسرب إلى طريقته السنية من ضلالات فقال : «إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه، وما خالف فاتركوه»[23] كما كان الإمام مالك يقول[24] : «إنما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة» والامام الشافعي : «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي».

نعم، انطلقت من فاس عاصمة الملك ومهد الطريقة التيجانية تحت ظل إمامي السنة المولى سليمان والشيخ التجاني حركة عارمة لنشر الإسلام في افريقيا عامة والجانب الغربي منها خاصة وكان السلطان قد ورث من جده المولى عبد الله بن المولى اسماعيل مملكة شاسعة سبق أن وجه إليها هذا الجد الهمام رسالة ضمنها تعليماته المولوية إلى من ساهم آنذاك «عمال أقاليم الجنوب المغربي إلى نهر السينغال»[25] وقد عرفت هذه الأقاليم أمنا وسعة رزق في هذا الظرف العصيب الذي ظلت آمنة خلاله من القلاقل والاضطرابات المفتعلة حيث بدأ الاستعمار وأذنابه يثيرونها منذ ذلك، فكانت تتجه سنويا من فاس عبر مراكش وتارودانت والصحراء والسودان إلى أقاليم أخرى بأقصى الجنوب ثلاث قوافل تقدر قيمة حمولتها بثلاثة إلى أربعة ملايين درهم بصرف القرن الثامن عشر.

وقد عرف الشيخ التيجاني كيف يعزز هذه التوعية الإسلامية والنفحة الروحية من شواطىء المتوسط إلى نهر النيجر وما وراءه ببث رجال من مريديه كان من تلامذتهم الشيخ سيدي عمر الفوتى[26] الذي خلف سلطنة إسلامية عظيمة وسط بلاد الزنوج الفيتيشيين عبدة الأوثان هددت وجود فرنسا فقد أسس هذا الأمير المجاهد مدارس لنشر العقيدة الإسلامية وجماعات للجهاد وتحرير افريقية الغربية من الوثنية والاستعمار معا، فكان مقدم الطريقة يسلح المريد بالسيف والسبحة أولهما لمحاربة المستعمر والأخرى للجهاد الأكبر وهو محاربة النفس والشيطان، وقد ولد سيدي عمر ببودور (عام 1212 هـ/1797م) وبعد عودته من الحج حيث أخذ الطريقة على مقدمها الفاسي سيدي محمد الغالي بوطالب (عام 1249 هـ/1833م) نشط في نشر

20) (بغية المستفيد) ـ طبعة القاهرة 1304 هـ (ص 56).
21) (رفع النقاب) ج 3 ص 182.
22) (رفع النقاب) ج 4 ص 36.
23) (كشف الحجاب) ص 177.
24) فتاوى ابن تيمية ـ طبعة الرياض بالحجاز ج 20 ص 211.
25) مجلة صحراء المغرب ـ علال الفاسي (عدد 4 ص 9).

26) له كتابان هما : «سيوف السعيد المعتقد في أهل الله كالتجاني على رقبة الشقي الطريد المنتقد الجاني» (توجد نسختان منه في المكتبة العامة بالرباط) (2135 د/2462 د) و«حزب الرحمان الرحيم أو الرماح وهو كتاب علم كما وصفه أبو المواهب سيدي العربي بن السائح.

التعاليم التيجانية فبلغ في دعوته جبال (فوطا جالون) حيث امتدت إلى نهر النيجر الأعلى والسينغال وقد استشهد في غزواته (عام 1282 هـ/1865م) إلى أن أصبح عدد الزوايا التيجانية في عاصمة (دكار) وحدها ما ينيف على المائة، وقد أكد بوني موري[27] في كتابه (الإسلام والمسيحية) حسب نقل الأمير شكيب أرسلان في (حاضر العالم الإسلامي)[28] أن افريقيا كادت تكون كلها مسلمة لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانية هذه كما أن أوروبا كادت تكون إسلامية لولا انتصار (شارل مارتل) (Charles Martel)، على العرب في بواتييي (Poitiers) (وهو بلاط الشهداء).

وهكذا تضافرت جهود الطريقة التيجانية والدولة العلوية لاعلاء كلمة الحق في مملكة إسلامية عمل الطرفان منذ قرنين إلى ما شاء الله على زحزحة الدخلاء عنها وهنا يجب أن نعترف أن بعض الحركات الصوفية القادرية كانت عضدا قويا للجانب التيجاني ومجرد انتماء هذه الفئة للشيخ الكبير مولاي عبد القادر الجيلاني كاف لكفالة سنيتها، ويكفينا حجة على سلفية هذا الإمام ما لاحظه الإمام ابن تيمية في (فتاواه) (ج 8 ص 369) قائلا : «وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين من القدماء مثل الجنيد وأتباعه ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي وتوصية باتباع ذلك...». وقال ابن تيمية (ج 10 ص 455 : «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا السلوك، (أي سلوك الأبرار وسلوك المقربين) ولهذا يأمرون بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو مكروه غير محرم، فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة وبالعامة مسلك العامة، وطريق الخاصة هي طريق المقربين».

وقد قال عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء بمصر ومعاصر أبي الحسن الشاذلي الغماري المغربي تلميذ المولى عبد السلام بن مشيش في كتابه (الرعاية) : «كل الناس قعدوا على رسوم الشريعة وقعد الصوفية على قواعدها التي لا تزلزل».

إلا أن بعض الشيوخ القادريين تقاعسوا عن نشر الإسلام على غرار الطريقة التيجانية فواخذهم عمر الفوتي على تساهلهم وتراخيهم.

ومهما يكن فإن افريقيا وصحراءها قد وجدتا في الثنائية السنية أي الطريقة التيجانية والدولة العلوية خير مزيج لنشر الفكر الإسلامي ومعالم السنة المحمدية، فاكتسب المغرب بذلك عن حق صيتا جعل من الملوك العلويين رواد الوحدة من المتوسط إلى النيجر تحت ظل السيادة المغربية وإن الرعاية الموصولة من طرف هؤلاء الملوك الأماجد للفريق التيجاني بالمغرب وصحرائه انطلاقا من فاس قد أصبحت الأسيسة القارة في سياسة الدولة العلوية من المولى محمد بن عبد الله إلى جلالة الحسن الثاني، مرورا بفقيد العروبة والإسلام جلالة المرحوم محمد الخامس.

27) L'Islamisme et le Christianisme. G. Bonet Maury.

28) ج 2 ص 398.

من وحي عيد الشباب

للشاعر الأستاذ علي الصقلي

ذات يـوم ثـائر الأحـ　　ـلام، محموم الخطـاب
قمـة الأيـام في أعـ　　ـينـنـا، لب اللبـاب
يـوم مجـد، أي مجـد　　زفّـه عيـد الشبـاب

☆ ☆ ☆

سـاءل الشعب، وفي أعـ　　ـماقـه تصـدر ثـوره
لم طـال الليـل مُـذْ أر　　خى على الصحراء ستره ؟
آن أن أُطلـع من قلـ　　ـب الـدجى، ثمـة، فجره

☆ ☆ ☆

وانطلقنـا ولهيبُ الـ　　شـوق يسري في الحنـايـا
مـا سوى الحق لنـا قصـ　　ـد رعـاة ورعـايـا
إنـه خير المنى، يحـ　　ـلـو لـه مُرُّ المنـايـا

☆ ☆ ☆

وحمى الله وجنـد الـ　　ـلـه من فـوق، خطـانـا
أو ليس السعي للحـ　　ـق صلاة وامتنـانـا ؟
كـان أمنـا حـولنـا، جـ　　ـلّ عـلاه، وأمـانـا

☆ ☆ ☆

وإذا الرمـل الـذي نعـ　　ـشق منـه كـل حبـه
يتلظّى حـولـه الـوجـ　　ـد، وتـذكيـه المحبـه
ليس إلا للقـانـا　　بـات يغـزو الشـوق قلبـه

☆ ☆ ☆

وإذا «بـــوجــــدور» و «سما | را» إلى «وادي الـــــذهب»
دار أعراس، ودنيـــــا | بشريــــات وطرب
سبحت للــــــه طرا | شـــاكرات مـــا كتب

☆ ☆ ☆

بـــارك الله أخـــأ يـــو | ثر في اللـــه أخـــاه
ليسْ يرضي، مـــا سعى الـــوا | شـــون في حقـــد، ســـواه
ولتـــدم جيش بـــلادي | وليـــدم من قـــد بنـــاه

☆ ☆ ☆

تلـــك من آيـــات من لقـ | ـننـــا معنى «التحـــدي»
من لنـــا في عهـــده الســا | مي الـــذرى أنضر عهـــد
كـــل يـــوم هـــو عيـــد | حـــل، بـــل أعيـــاد مجـــد

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

• إن الصحراء جزء لايتجزأ من المغرب، وهذا واقع إن أدركه الأصدقاء وسلموا به فإن على أعدائنا أن يفهموا أنه أصبح من معطيات التاريخ التي لاتنتكس ولا تنعكس وسنظل ساهرين على تعزيز قواتنا وتوطيد جهازنا الدفاعي ومتصدين باستمرار لرد المتآمرين والمغامرين والطامعين المتطلعين إلى إهدار وحدتنا الترابية واغتيال سيادتنا الوطنية •

تاج الهدى

للشاعر اللبناني

محمد شهاب

في ظل عرشك يستعاد رواء ... ويهل من بين الضياء ضياء

ويطوف وجه للسماحة مشرق ... فوق الربوع فيستحق دعاء

المغرب الحسني يسمق شامخا ... وتود لثم هضابه العلياء

فالشمس تشرق من تخوم «رباطه» ... وتزيدها من حسنها «البيضاء»

وبكل ركن للوفادة مولد ... وبكل رحب في البلاد نماء

ومواكب الإيمان ترفع هامة ... تصبو إلى لفتاتها الأنداء

تترى الوفود إلى ديارك تجتلي ... نصحا له روح الرشاد رداء

الرأي عندك في الأمور شجاعة ... يجريه عند النائبات مضاء

والقول من هدي النبوة تقتفيـ ... ـه شريعة تدوي به الأرجاء

تعلو الورود من انتسابك نفحة ... علوية تعنو لها الأهواء

سلسلت في حسنى الخصال وحسنها ... فتلألأت في مجدك الأسماء

يا ملهما ملأ النفوس رجاحة ... من نهجه يستلهم النجباء

أكرمت في ملك ومن ملك بدا ... تاج الهدى، في حكمه وإباء

أجريت عدلا في الرعية يحتمي ... في ظله الضعفاء والكبراء

ورفعت للدين الحنيف منائرا ... وحميته لا يعتريه رياء

فإذا نطقت ففي كلامك حجة ... يأتمها الخطباء والبلغاء

وإذا حكمت فللصواب مهابة ... يستنها من هديك الحكماء

الحكمة الغراء أنت مليكها ... وجلالها... في شأوها وجلاء

فبمنبر تعلوه تعظم خطبة ... فيجل رأي للنهى وعطاء

يفديك شعب لا ينام على أذى ... ويعمه مثل الولاء وفاء

أنت الأمين على أصيـــل تراثـــــه ... لـو بـــان خطب أو بـــدت هيجـــاء

تسعى إلى خير تـــــــــدبر أمره ... بحصـــافـــة... حتى استقر بنـــاء

فجعلتـــه فـوق المشـــارق مشرقـــا، ... ورفعتـــــه حتى استطـــــال لـــواء

لـــك من ربى لبنـــان صفـو تحيـة ... يسري بهـــا بـــوح الشـــذا ونقـــاء

تـــأتيـك مرخيـــة نـــدى نسمـــاتهـــا ... القلب يحمـــل شـــوقهـــا وثنـــاء

تـــأتيـك شـــاديـــة تردد شكرهـــا ... وتفيض عرفـــانـــا يليـــه دعـــاء

فـــالروض يحلم بـــالسمـــاء تغيثـــه، ... إن غـــاب عن وجـــه الأزاهر مـــاء

والمتعب الظمـــآن يحمـــد قطرة ... إن جف نبـــع أو طغت بيـــداء

ولقـــد أفضت من الفضـــائـــل جمهـــا ... حين استحـــال مـؤمـــل ورجـــاء

أشرعت دارا للمصـــاب بـــداره ... ورعيتـــــه لا يـــزدريـــه رثـــاء

اللـــه قـــدر أن تكـون مـؤاسيـــا ... إن جـــار دهر، أو قست بـــأســـاء

فـــاهنـأ بعيـــد... في ظـــلال نسيمـــه ... يـزهـو... ويطنب شـــاعر... وغنـــاء

إذ جئت هـــذا العيـــد أنشـــد مـــادحـــا ... فـــلأنـــه للمـــؤمنين شفـــاء

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

منذ ولانا الله أمر هذا الجانب الغربي من دار الإسلام ضاعفنا الجهود لتعزيز جانب الدين في كل حين، ولم ننقطع عن العمل المتواصل لبعث حيويته والتجديد معالمه وإبراز محاسنه للموافقين والمخالفين، اقتداء بصاحب الرسالة وخاتم النبيئين عليه الصلاة والسلام، وإيمانا منا بأن دين الحق لابد أن يبقى ظاهرا مستمرا على مر الأيام مصداقا لقوله تعالى: «ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا» سورة الفتح [illegible]



للشاعر الأستاذ عبد الكريم التواتي

سعد الكون وازدهته المفاخر ... وأهلت على الوجود البشائر
وأهل الإقبال واليمن، فالدنيـ ... ـا رواء : بواديا وحواضر
قد أهلت بالمجتبى الحسن الثّـ ... ـاني، فماست دساكرا وعشائر
وتهادت عرائس السعد أزكى ... تحيات مباركات عواطر
والسماوات هدهدتها تراتيـ ... ـل، وأنغام مسكرات المزاهر
وزغاريد رجعتها العذارى ... وأهازيج طارحتها الحرائر
واكتسى الكون حلة زركشتها ... بسمات الرضى ولطف المقادر

☆ ☆ ☆

كل شيء في أرضنا وسمانا ... فرح طافح بهي البشائر
فالجماهير أغنيات ورقص ... والأناشيد ملء كل الحناجر
وخرير النهير من بهجة الأفـ ... ـراح أغرودة شدتها المزاهر
والحساسين غازلتها الروابي ... فشدت لحنا رائع الوقع ساحر
وأسرت حبورها الروض، فاهتـ ... ـاج، فغنى نشوان أحلى المشاعر
وانتشى الكون دغدغته الأغاريـ ... ـد، وطل من الندى متناثر
المغاني قد ضمختنا عبيرا ... صبوات الصفا وطيب السرائر
وغدا المغرب احتفالات بشرٍ ... قد غدا البشر من حمياها فائر

☆ ☆ ☆

وحلا الشعر واستطيبت معا يـــــه، وهامت بفرحتيه الخواطر
فرحة العيد، إنه للشباب عيد سني   تتباهى به العلى والمفاخر
واحتفالات فرحة الشعب : شعب الـــحسن الثاني رمز أسمى الشعائر

☆ ☆ ☆

يالها من فرحة تغنى بها الشعـــب، وناجت منه خبايا الضمائر
أغدقت سوحنا الرخاء، فدنيا   نا ربيع مغدودن الخصب ماطر
وأفاضت على الحياة الرضى الجـــم، فطابت : مواردا ومصادر
إنها فرحة دناها تناهت   روقتها نجوم يمن زواهر
وتوالت مباهجا تتلألأ   مشرفات الجبين ريا المحاجر
حققت ما رغبنا فيه وشئنا   فهي نعمى، نعيمها الثر زاخر
وتسامت أمانيا ومسر   ات، وأحلاما شيقات الخواطر
بارك الله سرها ومداها،   فهي فيض من الأيادي الهوامر
قد تجلت للكون أعلام يمن   بالمنى بشرت وحسن المصائر
واصطفاها تمائما، وتلاها   سورا طهرت لغاها السرائر
وهواها، وقد أشاقت حنا   ياه، وحلت منها شغاف المشاعر

☆ ☆ ☆

حدث رائع أهل على الكو   ن، فحيته بالتهاني البصائر
هل بدر التمام، هل محيا الـ   ـحسن الثاني سليل الأباة شبل الأكابر
فتنادت ملائك الله : يابشـــرى البرايا، وياسعود المقادر
يا جمال الحياة، يا بهجة النعـــمى، يا دنيا من الجمال الآسر
يا رواء الأحلام، يا روعة الآمـــال، يا طيب مفرحات النوادر
يا رجاء الأيام، يا بسمة الإقبـــال بالفجر، يالمليك الظافر
حل - إذ هل - كل خير ويمن   وسعادات خالدات المآثر
هلّ فاستبشر الورى واشرأبت   تتملاه - أعين ونواظر
هل بعثا للصالحات وإرها   صا بخير ومعلما، وبيادر

☆ ☆ ☆

حبلت سره السنون، وأشجا   ها، فألقى به إلى الكون قادر
حاطه بالألطاف مذ كان آدم، سـ   ـرا من كائنات السرائر
وحباه الرضى العميم عطاء   غير مجذوذ واجتباه ذخائر
واصطفاه القضاء للحدث الضخـ   ـم، وكان القضاء طوع الأوامر
وتولاه بالجميل وآتاه   ـ احتفاء ـ ملكا أثيل المنائر
وهب الحكمة الحكيمة، في فصل خطاب، مرونق الحسن وافر
وإذا الله خالق الكون أولا   ك رضاه، فأنت أعظم ظافر
أيا سليل الملوك من آل طه   عيد ميلادكم هدى وشعائر
تتغنى به النفوس وفاء   وتناغيه بالولاء الضمائر
عشتم ـ الدهر ـ للحنيفة درعا   ولمجد الحمى فدى وستائر
قدتم الكون باليقين وسستم   أمم الأرض : بدوها والحواضر
ودعوتم شعوبها لسلام   وتآخ، ووحدة في المصائر
وعلى الحق والعدالة شدتم   شامخ الملك، فانثنى الدهر صاغر
وبذلتم لصونه الأحمر القا   ني، وذدتم عن عزه بالبواتر
وتعهدتم أمره غير وانيـ   ـن، وألجمتم بالهدى كل ثائر
فاستتب السلام، وانتشر الأمـ   ـن، وعم الرخا ربوع العشائر
فإذا العرب، والأمازيغ في العر   ش أمان تلاحمت، وأواصر
جمع العرش شملهم في إخاء   عقدي ودولة ومشاعر
في حماه، قد حققوا ما أرادوا   وهم اليوم في حماه جواهر
حققوا المعجزات أن كان رمزا   رائدا مخلصا عظيم البوادر
وكذا العرش رحمة ومواسا   ة وعفو : عفو القوي القادر
فلئن حل عرشكم ذروة المجـ   ـد، فللمجد عاش يعلي المنائر
ولئن ظل للمحامد يبني،   والأيادي يفيضها غير باسر
فلقد كان للمكارم (ينبوعا)   وفي البذل صيب المزن ماطر
وعلى الكون من فضائله الجلى أياد للطيبات نواشر
وهو من أنبل الأرومات صدقا   ولقد قالها الإله القاهر
أولستم من (نبع) من شهد الله لأخلاقه بعظم المآثر ؟
تلك آياته بـ (نون) جلتها   فهي آيات بينات سوافر

☆ ☆ ☆

وتجسمت ـ أيهـا الحسن الثـا ... ني ـ أمـارات صـدقهـا وظـواهر
ورأى الشعب صـدقها فيـك، فـانقـا ... د ـ اختيـارا ـ لمـا إليـه تبـادر

☆ ☆ ☆

في حمى عرشك المفدى تـآخى الشعـ ... ـب : روحـا ـ ضمائر وأواصر
وبـك اللـه أذهب الخلف عنـا ... وبـك اجتثت خـاطرات الجرائر
وتنـاسينـا في هـواك هـوانـا ... فهـوانـا ـ مـا ترتئيـه ـ ينـاصر
وتفـانينـا في ولائـك يـا من ... في تملي أخـلاقـه، القلب سـادر
ومضينـا نقفـو خطـاك امتثـالا ... وهـدى دربـك القـويم نسـاير

☆ ☆ ☆

يكـلأ اللـه عهـدكم وأيـادي ... ـا، بهـا المغرب الكبير يفـاخر
قـد غمرتم بهـا العروبـة والإسـ ... ـلام، واللـه للهـداة مـؤازر
فليقر الإلـه عينـك ـ مـو ... لاي ـ بشبليـك، والنجـوم الزواهـر
وليـدم ملكـك العظيم، وعرشـا ... أنت أمجـاده العظـام البـواهر
وليعش في حيـاضـك المغرب الأقـ ... ـصى، وفيـاً للعرش، بـالعرش ظـافر



تحية عيد الشباب

للشاعر: عبد الكريم التواتي

الشعب أجمـع هـاتف ومصفـق ... عـاش المثنى كـوكبـا يتـألـق
والكـون روق، والـدنى مـزهـوة ... والعيش أرغـد والحيـاة تشـوق

☆ ☆ ☆

يـا دهرُ مـالـك مزهراً في نشوة ... وأرى المسرة بـالعـوالم تحـدق
مـا نـامت الأهـوال فيـك، وإنمـا ... عيـد الشبـاب مبـاهـج لا تنفـق

☆ ☆ ☆

يـاعيدنـا عيـد الشبـاب تحيـةً ... بـالحب تخفـق، بـالهنـاءة تعبـق
حملت بشـائرك الحسـان مبـاهجـا ... تهفـو القلـوب لسحرهـا وتتـوق
وبـك استعـاد الـدهر عـز شبـابـه ... وإلى جمـالـك روحـه تتشـوق

☆ ☆ ☆

يـاعيـد ميـلاد المثنى عـودة ... كيمـا يـدوم بـك الـزمـان الريـق
مـا كـان عـودك زورة تسلـوبهـا ... لكنـه الآمـال تنمـو، تسمـق
اللـه زان بهـا الحيـاة وشـاقهـا ... فـإذا الحيـاة ترفـه وتنمـق
ولانت أخلـد خـالـد في دهرنـا ... وبهـاء عـودك جـدة لا تخلـق

☆ ☆ ☆

نـاجتـك في غيب السمـاء مـواكب ... واللـه ربـك ملهم ومـوفـق
وأراد ربـك أن تكـون منـارنـا ... وجرى بـك القلم الأجـل الأصـدق
فـأتيت من غيب السمـاء مبـاركـا ... نـور النبوة طـائف بـك محـدق
وأتيت بشرى في طـوالـع نجمهـا ... سعـد ونعمى تسطـاب وتغـدق

☆ ☆ ☆

سرت لمولدك الحياة فرجعت   في نشوة أغرودة تترقرق
كنت الحياة وما تزال ربيعها   ولأنت أجدر بالحياة وأخلق
وتولهت بك ترتجي إيماءة   وتود لو بك دهرها تتعلق
أو ما ترى الأشجار كيف ترنحت   سكرى يغازلها النسيم الريق
الحب دغدغ عطفها فتسامقت   أغصانها، ترنو لحسنك، ترمق
والياسمين موقع في رقة   لحن الولاء وما انثنى يتانق
للروض سر حديثه فتضوعت   أزهاره ووروده والجوسق

☆ ☆ ☆

والنهر - ياحسناه - ضاع خريره   أنشودة ببناء مجدك تنطق
والطير، ياللطير راع فؤاده   منضود قولك والحديث الشيق
قد أخرست ألحانه أغرودة   للشعب وقعها وعرش يعشق
فرنا وآثر أن تشنف سمعه   آراؤك المثلى وفكر مشرق

☆ ☆ ☆

يا ثاني الحسنين مالك في الورى   ثان يقارب شأوكم أو يسبق
ولئن جرى قدر بكونك ثانيا   فلأنت أول في البناء وأعرق
بك زينت أمجاد عرش خالد   وبك استطال فخاره المتألق
ولقد رفعت على العدالة والتقى   آطامه فرسا بناها الأبلق

☆ ☆ ☆

والعرب ياحسن أحس خضها   بركات خطوك واستباها المنطق
والقدس - ياحسناه - عطفك يرتجي   ولأنت أفضل من فداه وأسبق
يدعوك : أدرك يامثنى مسجدي   انجد مغاني أمة تتمزق
صهيون أبناء الخنى في أرضها   عاثوا خزايا واعتدوا وتحذلقوا
ولأنت ياحسن لكل ملمة   ترجى وأنت بكل خير أخلق
ولشعب عرشك أمة فداءة   ولأنت وحدك في المآزق فيلق

☆ ☆ ☆

ياثاني الحسنين عهدك مولد   للمكرمات وللشباب تألق
يذكي الشباب حماسة وحمية   فإذا الشباب عزيمة لاتنفق
ويهز شعبك بالمشاعر حية   فإذا المشاعر في المحافل تصدق
يامن صفت لك - في وفا - أحناؤنا   آسرتنا بمواقف قد ترهق
لكن أنرت لنا الطريق فذللت   عقباتها، فإذا المخاطر غيدق
قد ترهب الاعبا سواك، وإنما   أنت الجلاد وعزمة لاترهق

☆ ☆ ☆

يـا بـاني الأمجـاد شعبـك مغرم ... بمضاء عـزمـك، فـاقـتـدى يتخلـق
علمتـه أن الحيـاة تجلـد ... وأريتـه أن الجـلاد ترفـق
فعلى هـداك تـوثقت أيمـانـه ... وبمـا تشـاء شعوره يتـدفـق
ألهبت فيـه حميـة لا تنطفي ... ولهيبهـا أعـداء شعبـك يحرق
ووهبتـه صدق الوفـاء، فـزغردت ... أحـلامـه، وهفت إليـك تصفـق
وغمرتـه كرم الـوداد، وطـالمـا ... عـودتـه أن الـوداد تخلـق

☆ ☆ ☆

يـا من محمـد شبلـه ووليّـه ... وأبـا الرشيد، بـك الحنـايا تخفق
ولقـد ربطنـا - مخلصين - ودادنـا ... بركـاب عرشـك، والربـاط موثـق
اللـه جـل جـلالـه قـد صـانـه ... وتـلاحم في الأمنيـات مـوفـق
فـاللـه يكـلأ مـا تروم وترتجي ... والشعب، شعبـك جنـة لا تخرق
يرجـو رضـاءك، والـولاء شعـاره ... ورضـاك أغلى الأمنيـات وأصـدق
وولي عهـدك حققت آمـالـه ... في عهـدك الميمـون وهـو الأسبَق

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

• أنت شعبي العزيز، شعب أصيل فعليك أن تبقى أصيلا وعليك أن تبقى راعيا لمقوماتك من حضارة في تواضع، وكرم في اقتصاد، وشجاعة في رأي، وأخوة بدون قيد ولا شرط •

عيد الشباب سفر المفاخر

للشاعر الأستاذ شيبة ماء العينين

نشر من المجد منظوم ومنتثر
يجيله الملك للدنيا فتفتخر

سفر المفاخر من أرضي صحائفه
فيها يصاغ ومنها بات ينتشر

حسيبة العرق من أيام نشأتها
أثيلة بفنون المجد تأتزر

يحكي الدوارس من أسوار شاهدها
أسطورة المجد للدنيا وإن دثروا

(سنابك الفتح) من ربعي تيممها
بلاد (أندلس) في ركبها القدر

فأضرمت من (شراع المجد) مشعله
حتى أضاء وليل (الغرب) معتكر

وأيقظت من جفون الدهر واسنها
حتى استفاق ومجد العرب مزدهر

وما تحقق من غزو (الصليب) هنا
إلا تجدد أمجاد الألى غبروا

فوطدوا من (عماد الدين) راسخه
وحطموا حلم (الإفرنج) وابتكروا

من البطولات ما هز النهى وغدا
إرثا ثمينا به الأجيال تفتخر

وألجموا من (بني عثمان) مدهموا
حتى استحال إلى جزر به انحسروا

ويوم رام العدى نفي (المليك) هنا
ثار (المليك) وثار (الشعب) وانفجروا

فولد (الثلج) في علياء (أطلسنا)
جمرا على الغدر لم تقذف به (سقر)

وأصبح (السهل) و(البيداء) ممرعة
نارا تمور بها الأعداء يزدجر

وأسجرت حينها كل (الحواضر) ثو
رة تفانت بها من شعبنا زمر

واظاهر (السيف) من (غمد الهنا) قسما
أن لا مساس إلى أن يعزف (الوتر)

لحن اللقاء لقاء (الشعب) مع (ملك)
قد شرف (الملك) لما سامه الخطر

ضحى (بعرش) أثيل راسخ قدما
رمز السيادة والأمجاد إن ذكروا

فهو الضياء الذي يجلو الظلام إذا ... ما احلولك الظرف واشتدت به الغير
فأثمر السعي من ملكي ومن وطني ... واستبشر الكل والأعداء قد بسروا
وزغردت في دروب الحي باسمة ... أم (الشهيد) ولم يخمد لنا أور
حتى أهل من المنفى محررنا ... و(شبله) الشهم فالأزهار تنتشر

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

إني لأربأ بالأمجاد في (وطني) ... عن أن تقاس بمجد الغير يا (بشر)
هي الخلاصة من ترب (الدنى) وبها ... من مجد يعرب ما يعنو له القمر
فشكلت عبر ماضيها وحاضرها ... حصنا مكينا به (الإسلام) ينتصر
لم تسلس (الرسن) إلا عند ذي شرف ... مرجب الرأي محمود له الأثر
واليوم ننظم في **عيد الشباب** بذا ... عقداً من المجد في تنظيمه الدرر
يحار فكر بديع النظم في غرر ... من المفاخر للأجيال تختبر
يا مرفأ الأمن في دهري وفي وطني ... ورائد (السلم) والعدوان منتشر
لما استويت على (عرش) الألى صنعوا ... من فارع (المجد) ما تجثو له الزهر
تفيأ (الشعب) من نعماك وارفة ... ظلالها لها (العدل) و(التوحيد) والظفر
في (ربع قرن) توالت في مرابعنا ... (آيات مجد) على الأيام تذكر
فأينع (المجد) في (ربع) تعهده ... من سالف الدهر محمود ومبتكر
أعليت قدر بلادي في الدنى وغدا ... عن ما تحققه الأفذاذ قد قصروا
فأصبحت كعبة الدنيا ومحورها ... يؤمها اليوم (مبعوث) و(مؤتمر)
كل يؤمل (رأيا) يستنير به ... فكم يسر إذا يصغي وينبهر
لما يرى من عميق الفكر يسعفه ... فينجلى عن رؤاه الهم والكدر
وصارت (العرب) ترنو من (مشارقها) ... إليك في (الغرب) مهما أمها الضرر
فما تنوء بما أمست تكابده ... ولا تحيد عن البغيا وما وطروا

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

يا مبرم (القسمين) الخالدين بما ... تهوى (فلسطين) و(الصحراء) يا وزر
كم صغت (ملحمة كبرى) ومفخرة ... يجلها الدهر من هادوا ومن كفروا
(الشعب) يعلم والأوطان قد ذكرت ... من يمن عهدك ما يعشو له البصر
(مولاي) يا حسن السلم الذي انفردا ... (بفكرة القرن) لما مسنا الضجر

وساور الغدر أذهان العدى طمعا ... وأوشك الحبل (بالصحراء) ينبتر

أنهجتنا سبلا بالسلم مفعمة ... لم يعددها (يمن) كلا ولا ظفر

وبارك السعي من (مولاي) أمته ... أفواجها زمر من خلفها زمر

إني لأذكر والأحداث في خبب ... يوم العبور أوان الكون ينتظر

مآل زحف من الإيمان مقتحم ... صوارخ العصر لا غر ولا حذر

ينحو (العيون) ويبغي كل (داخلة) ... من البلاد بأمر الملك تأتمر

فأبلغ الشعب سمع الخافقين صدى ... إذ هزه التيه لما حفه الخطر

توشح (الذكر) والأبصار شاخصة ... نحو (السمارة) حيث العهد مدخر

أبناؤها شعة للعرش من قدم ... رغم النوائب ما حادوا ولا اندحروا

قد شاءها (العرش) بعد (الله) حاضرة ... ملء (الصحارى) بهدي (العلم) تنهمر

ومعقلا للجهاد الحق منبعه ... إيمان عرشك بالتوحيد لا الكفر

فما استكنت على ضيم يهددها ... حتى استعيدت وجفن الغدر منكسر

وانضم للوطن المحبوب واديه ... (وادي الثمين) ومد الظلم منحسر

وعاود (البيد) من نشر (الرباط) شذى ... يشوقه الأهل والأوطان والشجر

مؤثل العرف في تلك الربى وبها ... قد بدد الكفر بالإيمان يقتدر

فاخضل عرجون أوطاني بوحدتها ... وغرد الطير والمزمار والوتر

إذ كانت (المزن) خجلى في مرابعها ... إذا تمر فلا وبل ولا قطر

ويوم حلت بها (الحمراء) ظافرة ... تواكب النصر والتوحيد والمطر

واعشوشب المحل في أرض يقلدها ... ولاء عرشك من قدم إذا ذكروا

وخاض ذا (الجيش) في أقصى مناكبها ... معارك النصر فالأعداء تنجحر

وحاق بالخصم أنى كان مصدره ... من الهزائم ما يندى له الحجر

حاشا يدنس هذا الربع ذو نزق ... أو يستبيح ديارا دونها السعر

إنا لننذر من طاشت بصيرته ... عمي بأن الردى دون الذي قدروا

بين (المحيط) وبين الظامئين له ... بحر من البأس مكتوب له الظفر

يصونه الدهر من أبطالنا قمم ... هم الأباة إذا ما الحرب تستعر

قد لقنوا الظلم أنى بان مخلبه ... من الدروس عظاما ذكرها عطر

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

يـا بـاعث الـدين والأهـواء عـاتيـة ... وسبـط خير (رسـول) أمّـه بشر

جـددت أمر مكين الـدين في مئـة ... عـز النصير بهـا واعتلت الفكر

(رسالـة القرن) قـد أعطت بحكمتها ... مـا يكسب الروح عـزما ضـده هـذر

تـوضـح الحـق في عصر بـه عصفت ... ريـح المـذاهب والأديـان تنـدثر

يـا راعي (الفكر) والأوطـان زاهيـة ... بمـا يحير من جـاءوا ومن صـدروا

أسست سرح (أكـاديميـة) أمهـا ... من الجهـابـذ خـلاق ومعتبر

يسمو بهـا من فحـول العلم أعمـدة ... مشـوا على (البـدر) أوكـادوا بمـا أثروا

(دار الحـديث) و(دار الفكر) في وطني ... بهـا من العلم (مبسـوط) و(مختصر)

إن (الـدروس) التي أرسيت سنتهـا ... تحيي (الحنيفيـة) السمحـاء يـا قمر

أرسلت ذا (القلم) المسـؤول من صفـد ... يمره الغير فـاستعلت بنـا الفكر

وذي (المجـالس) للتسيير قـائمـة ... رغم العـداة ونـور العلم منتشر

وكـل (حـزب) لـه من نفسـه حكم ... (فـالجمـع) محترم و(الرأى) و(الخبر)

معنى (التمـازج) في التسيير تبرزه ... نهجـا قـويمـا بـه الإنمـاء يـزدهر

وذا التشـارك والإدمـاج شئتهمـا ... لـذي المجـالس إذ تعطى وتـزدهر

وذي (الـسدود) تروي كـل ممحلـة ... عفى بهـا (السيـل) و(الإرذاذ) و(المطر)

وشـع في حـدق (الفـلاح) ومض سنى ... من الرجـاء وولى اليـأس والضجر

وذي (المحطـات) قـد أمست تبشرنـا ... بعهـد سقي بـه الخيرات تـدخر

من (الكـويرة) ذي حتى (البغـاز) هنـا ... طـول (الشـواطيء) سهـل ممرع نضر

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

مـولاى تصـدر لـلأحرار عـونهمـوا ... ولا تـؤطر من خـانـوا ومن نفروا

ضمـدت م (القـارة السفعـاء) نـازفهـا ... حتى أبـل وغيض الظلم والشرر

إنـا لنـذكر في (شـابـا) مـؤازرة ... دهرا ترددهـا (الجـولان) و(القمر)

إسعـافـك الجـار لم يـأت الـزمـان بـه ... ولم تعقـه صروف سهلهـا وعر

مـولاي يـا معقـد الآمـال أجمعهـا ... أنقـذت جمعـا عظيمـا كـاد ينفطر

لمـا وفـدت على (كنيـا) ومحفلهـا ... (نيروب) تـاهت ورن (الـدف) و(الـوتر)

وشرف (الجمـع) من (أقطـابهـا) علم ... تعلي مكـانتـه الأقمـار والـزهر

واختـل من (خطـط) الأعـداء محكمهـا ... لمـا صـدعت بصـوت الحـق وانـدحروا

و(قارة السمر) لما أقحمت عبثا — بساحها (دمية) من وهم من غدروا

جاشت (كوالسها) واحتار (قادتها) — واعتل (مجلسها) بل كاد يندثر

لولا ادّراكك ما عاث «الامين» به — ومن إلى شطره جهلا قد انشطروا

فقدت خير من ساسوا مواطنهم — رواجحى الرأي فانقادوا وما نتروا

وذى (الجماهير) خلف (العرش) جازمة — أن الموحد من أشياعه القدر

فلا سبيل لطعن في هويتنا — (نحن المغارب) بالإخلاص نشتهر

وشاهد الحق يروي أننا وطن — كالجسم متحد بالله ينتصر

و(بيعة الجد) لن يبلي وشائجها — مر السنين ومن عادوا وإن كثروا

ودولة العدل لن تعبث براسخها — زوابع الظلم بالإلحاد تأتزر

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

حكيم يعرب لا تترك أعنتها — نهب (المذاهب) و(الأعدا) وما بذروا

تدارك (العرب) من (لغم) فتيلته — مراهق الرأي منها نهجه غرر

وجنب (الشعب) ما يبغي الحسود به — إنا لنأنف أن تعتوا به الغير

نادتك من خلف أسوار العدى (قدس) — واستنجدتك (ربى التوحيد) و(الأسر)

إذ أملوك نصيرا لا ضريب له — في حالك الظرف لما أهلها عثروا

وضاقت (الأرض) (بالإسلام) وأسفا — وجاس (صهيون) لا يلوي ويبتقر

وأضرم (النار) في (بيت الهدى) بطرا — وشرد (الأهل) و(الأوطان) يبتسر

فلم تخيب رجاء الرازحين بها — ولا نداء الذي في النفي ينتظر

فجئت (بالقسم) المبرور منتصرا — تجنب (العرب) و(الاسلام) ما حذروا

والله... بالله... بالإقدام إن لنا — (صلاة شكر) بأرض (القدس) تبتدر

وبت تدعو (جموع المسلمين) إلى — نهج به الأعداء قد وتروا

حتى (الكنيسة) أصغى قطب مجلسها — لمحض نصحك لما اشتدت الغمر

يا من به (قمة الإسلام) تحترم — و(لجنة القدس) في الأكوان تفتخر

طبعت عصرك فازدانت صحائفه — بما تسطر واستغنى بك الأثر

حلم العروبة في الإجماع حققه — (بيان فاس) بما يأتي وما يذر

وسجلت كل أقطار الدنى حدثا — لولاك ما كان والأقطاب ما حضروا

وشرف (العرب) أن قد بت ناطقها — لدى المحافل لا (زيد) ولا (عمر)

وصاح ذا الشعب في (غزا) وجارتها ... بصوت حق من الأعماق ينفجر :

لو أن كل (رئيس) مثل عاهلنا ... ضحى وأخلص لم نأبه بما حشروا

فحاكت اللسن أنى بات مشربها ... من المدائح جذلى متنها عطر

حتى لأسمع من خلف الغيوم صدى ... يبينه القلب قبل السمع ينهمر

(نيل الكنانة) يروي من منابعه ... مثل الذي (بردى) يحكي ويعتبر

هما (العتيقان) في تلك الدنى وبها ... قد عايشا المجد، أن المجد يبتذر

قد أقسما و(هلال النشء) ثالثهم ... أن ليس مثلك في الدنيا التي بصروا

إذ ألهمتك على الأيام بارقة ... من نور (جدك) ما يعفو لها الأثر

فما يخيس الذي أمسيت ترفده ... ولا يفوز الذي إن فزت ينفطر

ولا تيمم منك العزم معضلة ... إلا تحقق فيها القصد والوطر

أبقاك ربك للأوطان تحرسها ... إمام هدي بأمر الله تأتمر

تعلي القواعد من سرح الهدى كلفا ... برشد قوم لهم بين النهى غرر

الظاهرين على الحق الألى ذكروا ... من خاتم الرسل في غرب قد اشتهروا

بذب أعتى عداة (الدين) واعتمدوا ... (نهج الرسول) وما تمليه ذي (السور)

هي المحجة رام الفوز لاحبها ... بيضاء ناصعة في طرفها حور

فالله يبلغ يا مولاي سؤلكموا ... فيما تروم وتبغي، إنه الظفر

في عيد مولدكم عيد الشباب ومن ... من الجموع جموع المسلمين يذكر

إن (اليمين) التي أديت معتصما ... بالله والشعب مبرور ومنتصر

والله يكلأ يا مولاي عترتكم ... بما يصون من الأعدا ومن مكروا

مجيب ما الوليّ العهد تسأله ... ـ من وافر المن ـ ممدود لك العمر

بجاه من في سجود الفرض صاغ دعا ... في (أمتي... أمتي) والدمع ينهمر

صلى عليه إله الخلق منشئنا ... ما طاف بالبيت من حجوا أو اعتمروا

ذكرى البشائر

للشاعر الأستاذ الهاشمي الهواري

أين من عيـــدك السعيـــد قصيـــد كلنــــا مبـــديء الثنــــا ومعيـــد

طـاب فيـك البيـان يـا حسن المجـ ـــد عـزيـزا ولـذّ فيـك النشيـد

حـلَّ عيـد الشبـاب فـاهنـأ بعيـد فيـــه يبــــدي شبـــابنـــا ويعيـــد

يحتفي الشعب والبشـــــائر تترى والأمــــــــــاني أزاهر وورود

تتغنى بـــــك النفـــوس وتشـــدو بـــولاء، والقـــول عقـــد فريـــد

أي نفس لم تتخـــذك منــــاهــــا وبليـــغ يطيعـــه التحــــديـــد

قـــــد أسرت النفـــوس فهي ولاء وملكت القلـــــوب فهي عبيـــد

تتبـــارى فيـــك القرائـــح حتى كلنــــا فيـــك مبـــدع ومشيـــد

ليس إلا في عيـــدك اليـــوم شـــاد أتغنى، والشـــدو فيـــك حميـــد

☆ ☆ ☆

هـــو ذكرى ميـــلاد نجم المعـــالي ملـؤهـــا المجـــد طـــارف وتليـــد

أشرق المغرب العـزيـز ابتهـــاجـــا بسنــــاه وهنــــأتـــك الــوفـــود

يمرح الكـــل زاهيـــا يتهـــادى في سرور شعـــــاره التمجيـــد

فترى القـوم في هنـــاء تنـــاسـوا كـل شيء عـــدا ثنـــاء يـزيـــد

تتلظّى عـــواطف لـــك شـــوقـــا بشعـور، شـــذاه حب مـــديـــد

حبـــك الخـــالص المعطر فيض يتجلى وأين منـــه حــــدود ؟

☆ ☆ ☆

أيها العاهل الكريم هنيئا   لك بين الأعياد عيد سعيد
كلنا شاعر يخوض «عكاظا»   يتمنى أن لو أعيد «لبيد»
فيراك الذي رعيت ازدهارا   مشمخرا، بناه قبل «الرشيد»
وكأن الزمان قد غار حتى   كله في حماك عيد فعيد
وكأن الأرواح في برزخ تهتـ   ـف شوقا بذكركم وتشيد
وكأن القلوب باقة إخلا   ص، شذاه لك القريض النضيد
وكأن البلاد حولك مرآة ولاءٍ   قد زخرفتها البنود
أي قلب لم يتخذك مطاعا ؟   لك أرواحنا فدى وجنود
إنه عهدك المنيف تجله   في حماه لنا التراث المجيد
وكذاك الشعوب بالسر أدرى   تتملى بجبهها وتميد

☆ ☆ ☆

أمليك القلوب يا خير هاد   لك منها ولاؤها المعهود
قد عرفناك بانيا للمعالي   ومليكا أنى تدانيه صيد ؟
أنت رمز البلاد والشعب فاحكم   فيه ما شئت إنه ماتريد
إن بالعلم قد رفعت منارا   مستنيرا أضاء منه الوجود
فتبارى الشباب في الدرس كيما   يتسامى، وزال عنه الجمود
وأشدت العلا ببذل جهود   سوف تبقى والرأي منك سديد
فتجلى كالبدر منك فخار   علوي به تناط السعود
أجمع الشعب في هواك ولا غر   وففيك المنى وأنت الوحيد
نال في ظلك المرام فأضحى   شكره الدهر عاطرا لا يبيد

☆ ☆ ☆

إيه مولاي ما ينال قريض   صاغه فيك مبدع ومجيد
إن آثارك الكثيرات جلت   عن بياني وإن توالت جهود
بيد أني أشدو وإن كنت قصر   ت بفخر، مداه فيك بعيد
هذه نفحة تنسمتها منـ   ـك وحسبي، لك الولاء المزيد
فلتدم للبلاد في كنف الله   عزيزاً يرعاك منه الخلود
وليدم شبلك الأمير مثالا   لشباب شعاره التجديد

الفرحة الكبرى

للشاعر الأستاذ محمد بن محمد العلمي

لعاهلنا المحبوب قد حقّت البشرى ... ففي عيده الميمون قد طابت الذكرى

على أوجه الشعب الوفي تبلورت ... صنوف بهيات من الفرحة الكبرى

و (طنجة) حيث في (الكَويرة) عيدنا، ... ووحدتنا أحيت مسيراتنا الخضرا

وإن حزام الأمن حصن محصن ... بجند من الرحمان، قد حفظ الصحرا

فواهاً لأبطال لنا في صمودهم، ... فهم ألقموا الأعداء في الملتقى جمرا

وقد سعد (الوادي) بـ (ساقية) لنا، ... وقدمت الواحات للزائر الزهرا

أولئك أهلونا إلى الأهل قدموا ... حليبا لدى اللقيا، له أردفوا التمرا

وأصبح عمران المرابع آية، ... يزيد على مر السنين هنا وفرا

وما ضرنا من ينكرون حقوقنا، ... ومن قد شكوا في عمق آذانهم وقرا

هي الشمس من فوق الجميع مضيئة ... يعم سناها كل من سكن الغبرا

ففوق الثريا في اعتزاز ونخوة، ... لقد خفقت أعلام أوطاننا الحمرا

وبالحسن الثاني تجدد أنسنا، ... وفاحت جنان العشق في ظله عطرا

ودارت كؤوس للحميا بحبه، ... على مهج عن غيره دائما سكرى

وعنواننا في الكون شع سناؤه ... بعرش مجيد يلهم الحمد والشكرا

لقد فتح الله الطريق بفضله : ... وأسعد فألٍ يغدق اليسر والخيرا :

ففي كل لحظ شحنة وطنية ... من العرش ربت في الهدى شعبه الحرا

فتزداد أفراح الضمائر نشوة ... تضيف إلى أعيادنا النكهة البكرا

توالت مساعي البر للعرش فهو قد ... تسامى بها في كل مكرمة قدرا
ولا بدع في الفرع الذي طاب أصله، ... فقد كان بالأمجاد أجمعها أحرى
من المصطفى الهادي الأمين توهجت ... كراماته، إذ هذه تتبع الأخرى
يهيم بها التاريخ معنى ومنطقا ... وقد جددت من عمر أمجادنا عمرا
وتلك دلالات المسيرات هاهنا ... تجرك طاقات لنا تقهر الوعرا
وتربط أطوار النضال ببعضها ... وتشحذ وعيا نوّر القلب والفكرا
فيسمو من الأجيال بذل تبلورت ... حوافزه، إذ يبهر الكون والدهرا
نريد حقوقا كاملات، ولم نرد ... بتاتا لدى إدراكها الشطر والنزرا
ونحن كتبنا مجدنا بدمائنا ... فصار على أسماع أجيالنا يقرا
تأصل وعي المغرب الحر إذ غدا ... يجدد إنماء الرّصيد الذي أثرى
فعيد الشباب اليوم أصبح مولداً ... لمغربنا في وحدة تحسم الأمرا
وفي (الحسن الثاني) تسامت رسالة ... لأوطاننا حقا، فكان بها أدرى
لقد كان للتوحيد رمزا موفقا ... وللمنجزات الغر رائدنا الوترا
فلا ينقضي طور من البعث باهر ... بأوطاننا، إلا وأسدى لنا طورا
تبارك ربي حين أيد عبده، ... وبوأه في عصره الأوج والصدرا !
هو الرمز للإيمان والصدق، همه ... نماء، وتوطيد لملتنا الغرا :
فتلك دروس بيننا حسنية، ... لقد جمعت في نورها الأنجم الزهرا
وأصبح عقد المسلمين بعرشنا ... نظيما، وعهد الله لا يقبل البترا
و(سيناء) و(الجولان) تظهر فيهما ... بطولات جند الله إذيقطع الغدر
وفي (لجنة القدس) الحقائق قد بدت ... فلم يجد الباغون في بغيهم عذرا :
مبادئ حق، في إطار عدالة، ... لها أبلغ الآثار في القارة السمرا
وتلك (نيويورك) بالخطاب تشرفت، ... فذاك صداه يوضح السرّ والجهرا !
وأسمى القضايا عرشنا قام عندها ... يحقق للإنسان ما أدهش العصرا
إذا عز عرش باعتناق عقيدة ... لشعب وفيّ، فهو قد أحرز الذخرا
وتلك صروح المجد قامت بقمة ... وقاعدة في وحدة تضمن السترا
تجلت فتوحات لخير تلاحم، ... وقد أجزل الله الكريم لنا الأجرا :
مواهب فكر، في مواقف نخوة، ... وآفاق جهد عانق العزم والصبرا
وخير جهاد، في سياسة حكمة، ... يسجل في قلب الخلود لنا سفرا

ودستورنا فيه أجل عناية
تقوم على الشورى التي تحسم الشرا

فعيد الشباب اليوم ذكرى لأمة
لقد ضمن العرش المجيد لها النصرا

من (الخامس) المبرور راق مثالنا،
فلله ما أدى، ولله ما أجرى !

لقد زاد في المنفى حضورا بقلبنا،
وما زال حيا بيننا، طافحا بشرا !

رأيناه في البدر المنير برسمه،
ففي عشقنا الفياض ما يشرح السرا

وصار التحام العرش بالشعب آية
نرتلها نثرا، وننظمها شعرا !

وأقدس تيجان الوجود أصالة
على الحب قامت تنشد النبل والطهرا

وقيمتها في نورها وصفائها،
وميزتها قد فاقت التبر والدرا

قد استحضرت روح الحضارة، واهتدت
إلى غدنا الموعود، تزهو به فخرا

ملاحمنا من عرشنا عز شأنها،
وفي حبنا للعرش نستأهل الذكرا

وروح (التحدي) في صميم قلوبنا
تؤكد في نهج الصواب لنا سيرا

فبالحسن الثاني نصول ونرتقي
إلى القمم الشماء في سعينا طرا

ومجد الشباب اليوم نحن جنوده
نحقق ما تهوى طموحاتنا العذرا

يعيش (ولي العهد) رمز شبابنا،
ويحيا (الرشيد) الشهم، من يخجل البدرا

ودامت لهذا الشعب روح شبابه،
بعرش مجيد في الحمى حقق البشرى !

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله

• لنا اليقين بأن اجتماع كلمة الأمة والتئام شملها وارتصاص صفوفها فيما يتصل بصحرائنا المستعادة كل هذا سيبقى على تعاقب الأزمان من أقوى عوامل صيانتها وتألق طلعتها وازدهار أكنافها •

إيحاءات عيد الشباب

للشاعر الأستاذ عبد الواحد أخريف

أيُّ عيدٍ كعيدك الميمون — مشرق النور والمنى والجبين ؟!
أيُّ دنيا سحرية أيُّ عطر — فاق عطر الورود والنسرين ؟!
أيُّ لحن يفيض بالحب والحسـ — ـن ويسمو على بديع اللحون ؟!
أيُّ حسن على الوجود تجلى — غامرا وجهه بسر مصون ؟!
أيُّ عزم قد زلزل الصخر في منـ — ـبته وهو ثابت في الحزون ؟!
أيُّ قوى اندفاعها كاندفاع السيـ — ـل تجري لكن بفكر رصين ؟!
أيُّ قلب بالمجد ينبض دوما — كلُّ دقاته بفتح مبين ؟!
أيُّ جسم على الجهاد صبور — في شرايينه دماءُ القرون ؟!
أيُّ روح مقدامة أيّ نبل ؟! — أيُّ سر ونهضة وفنون ؟!
تلك بعض الصفات أو هي جزء — من معاني مليكنا الميمون
تتغنى بلابل الروض نشوى — بشذاها على مراقي الغصون
وتراها للحائرين منارا — يبعث النور هاديا للعيون
هي مثل الزهور تبسم للفجـ — ـر إذا افترَّ آتيا بالفتون
إنها جوهر الحياة وأغلى — لجلاها من جوهر مكنون
فهي أخلاقنا بها سوف نحيا — ونُري العالمين علم اليقين

☆ ☆ ☆

يا شباب البلاد في كلِّ عام — عيدكم صادح بعزم مكين
قد روى همة وخلقا رفيعا — وحكى خبرة بكل الشؤون
ورأى في الشباب روحا قويا — ونزوعا للخلق والتكوين
تحت ظل المليك معجزة الدهـ — ـر وساقي الخمول كأس المنون
«حسن» الإسم والصفات شذا أخـ — ـلاقه عاطر ندي الغصون
ورث المجد عن سليل المزايا — عن أب طاهر رحيم أمين

يا عيد إني بالقريض مهنئ...

للشاعر حسن الهزميري

رتل أهازيج الهوى ترتيلا ... يا صاح مثّل لحنها تمثيلا
قد غاب عنك وعن هوانا حاسد ... فتبتلن إلى الهوى تبتيلا
وارقص مع النغم الرفيع فإنه ... وحي الربيع سبكته مصقولا
لا تعجبن من السرور يهزني ... ومن القوافي تستغيظ النيلا
انظر ففي البلد الضحوك لناظري ... ما يشتهي ويروقه موصولا
قد كان ألبسه الجفاف كآبة ... فلبست ثوبا للحداد ثقيلا
واليوم قد خلع الكآبة جانبا ... فكسيت ثوبا للسرور جميلا
سبحان من جعل الأمير مباركا ... نسقى به ماء ألذ جزيلا
كم قام واستسقى العباد بنفسه ... ودعا المهيمن أن يجود قليلا
فأجابه وأمده برجائه ... وسقى الخلائق غيثه المأمولا
انظر فقد غدت الوجوه طليقة ... وبدا الجمال على الربى إكليلا
يا جامع البركات تحت ردائه ... ابسط رداءك شاملا مشمولا
تحكي بفعلك فعل جدك قائما ... يدعو الورى ويحارب التضليلا
في كل واجهة تصول وتعتلي ... قمم المعالي صارما مسلولا
من هاشم لو يسألونك نسبة ... ومن النجوم إذا سئلت قبيلا

شرف النبوة والرسالة فيكم ... إرث لعمرك لن يرى تحويلا

فإذا أقمت على البلاد تسوسها ... فلقد أقمت على النبوغ دليلا

ما زلت في كل الجهات مناضلا ... ومذللا أعداءها تذليلا

لم يثن عزمك عن جهادك حاسد ... أو ملحد يتزعم التدجيلا

تمضي ومن خلف المقاصد أمة ... لا ترتضي غير السماء سبيلا

يا رائد الأقصى ورافع شأنه ... إنا جنودك لانهاب دخيلا

مرنا تجدْ منّا الأسود ضواريا ... نأتي العدى مثل الوباء شمولا

ما ضرنا مستعمر نشقى به ... لكن أخ جعل الإخاء خجولا

ترك المحبة والأُخوة جانبا ... واستمرأ العدوان والتأويلا

أرض العروبة للعروبة موطن ... ما للخلاف نجرُ منه ذيولا

أو كلما جمع العروبة مؤمن ... غضب الغلاة ونكلوا تنكيلا

يرمون بالعدوان وحدة أمة ... صنعت بهم يوم النضال جميلا

رفضوا العدالة واحتموا بضلالة ... وكأنهم ما بدلوا تبديلا

حقٌ عليهم واجبٌ أن يسلكوا ... سبل الهدى لو يملكون عقولا

نفديك يا أم الرمال فصدّقي ... لاترهبي مما يحاك فتيلا

من خلفك الحسن العظيم وشعبه ... لا يتركان على رباك محيلا

قسم المسيرة لم تزل رناته ... نغم الخلود مفصلا تفصيلا

صاغ اسمه ملك البيان كما يرى ... وغدا به شعب العلا مكبولا

يا ناشر العرفان بين ظهورنا ... أرهقت شعبك بالعلوم طويلا

في كل بادية وكل مدينة ... تغزو الجهالة بكرة وأصيلا

عممت نور العلم فهو معمم ... شبح الجهالة لم يعد مقبولا

أفلحت في رفع السدود عواليا ... فأقمت فوق الراسيات حقولا

ما كالسدود تشيدها وتزينها ... أبدا ولا كالجيل يبني جيلا

ياعيد إني بالقريض مهنيء ... ملك الملوك مبجل تبجيلا

رمز البلاد وعزها وجمالها ... يارب صنه وكن عليه وكيلا

وأميرنا المحبوب دام له العلا ... متفردا بالمبتغى مشمولا

وقرينه المولى الرشيد سما به ... ذاك الجلال مهلا تهليلا

في ظلال عرش الحسن

للشاعر أحمد البقيدي

فجر لعيدك لاح في الأرجاء … كالوحي هز قرائح الشعراء
فشدوت في الذكرى جياد قصائدي … والحب والإخلاص ملء دمائي
«عيد الشباب» يتيح خير مكاسب … رفعت مطامحها ذرى العلياء
ضاقت بحور الشعر عن تعدادها … فهي الفراقد صعبة الإحصاء
رمت الشهامة في الجهاد ولم تزل … تجلو عهود الحجر والدخلاء
وإذا التحدي في الجهاد كما أرى … يجتث كل تخلف ووباء

وطدت عزمك للبناء مرامنا … لتقيم صرح المجد والنعماء
فطفقت تحيي الأرض بعد مواتها … وزرعت فيها خبرة الخبراء
مليون هكتار، رويت فأصبحت … صحراؤنا كالجنة الخضراء
ومصانع الخير العميم تناثرت … كتناثر الفسفاط في الصحراء
فنهضت بالتعليم نهضة عالم … وجمعت حولك أسرة العلماء
وشبابنا أنت الذي ألهمته … وجعلت منه نجم كل لقاء
ومساجد التقوى رفعت منارها … فتألقت في روعة وبهاء
وأقمت برجا للعدالة شامخا … دستور إسلام ورمز سناء
ومن الطبيعة ما تراءى جنة … من تحتها تجري جداول ماء
إن هي إلا للسياحة قبلة … برباطها وبفاس وبالحمراء

ومسيرة ألحقتها بمسيرة ... نحو العلا بمحجة بيضاء
شهدت بحكمتك المحافل كلها ... يوم التقى الجمعان في الصحراء
عجبا ! بلا حرب يريد لشعبه ... زحفا إلى الصحراء في استعلاء
تلكم مسيرتنا تؤكد أننا ... نحمي الحمى بالروح والأبناء
جيش لنا كالأسد بات محطما ... كيد العدى ومزاعم السفهاء
ويح لمن بقلوبهم مرض ! ألم ... يأن الأوان لألفة وإخاء
والله يشهد أنك الأمل الذي ... يرجى لجمع الصف في الضراء
وجعلت للعرب الكرام شعارهم ... في العروة الوثقى بخير لقاء
وصلاة شكر أنت خير إمامها ... أعلنتها بالقدس والصحراء
غمرت مفاخرك المواطن كلها ... فتفيأت في عزة ورخاء
هيهات سبك محاسن الحسن الذي ... أعطى فأجزل باليد البيضاء
عايشتها خمسا وعشرين ارتقت ... فيها البلاد لهالة الجوزاء

في عيدك الفضي صغت قوافيا ... مدحا، ومدحك ملهم الشعراء
إقليمنا نثر الورود مهنئا ... ومجددا عهدا لكم بولاء
فإليك ألف تحية من أمة ... تفديك بالآباء والأبناء
مولاي عشت معززا ومكرما ... يسمو مقامك فوق كل سماء
فأطل أيا رحمان عمر همامنا ... سبط الرسول وقدوة العظماء
واحفظ ولي العهد حفظك ذكرنا ... وصن الرشيد وسائر الأمراء



الوطن مهد البطولات

للشاعر أحمد العمراني

أنـــــــا وطـن المغـرب ... أنـــــا ابن المليـــــك الأبي
مــــــــع الحسـن الملهم ... بلغـت إلى مـــــــــأربي
أنــــــــا مشرق مشرق ... وإن كنـت في المغـرب
أنـرت سبيــــــل العلى.. ... أبنـت عن العجـب

☆ ☆

سلـــــوا عن بطـــــولاتي ... ومجــــدي... سلـوا الـزمنـــا
سلــــــوه ولا تعجبـــــوا.. ... لأن لي الحسنـــــــــــا
حكيم أنـــــــــار النهى ... وأشرق منــــــه السنـــــا
فمن منكمـــــو يســــأل ؟ ... ألم تعرفـــــوا من أنـــــا ؟!

☆ ☆

بنـــــاني مليــــك عـزيـز ... وفيٌّ لشعبـي مكيـن
هـــــو الحسـن الأمجـــد ... سليـــل الرســول الأمين
يصــــون أمـــانتـــــه.. ... يقــود انتصـــاري المبين..
أميــن علــيٌّ أميــن ... أميـن و«نعـم الأميــن»

☆ ☆

أنـــا مبـــدع المعجـــزات صنعت الأســـود الأبـــاة
بنيّ جنـــود الإلـــه وللحـــق دومـــا حمـــاة
فجـــولان تشهـــد لي وسينـــا.. وكـــل الجهـــات
بـــأني غيـــور همـــام.. أدوس جبـــاه الطغـــاة

☆ ☆

ومن ذاترى نسيـــا مسيرة فتـــح عظيم ؟!
أنـــار بهـــا الحسن خطـــاي وكـــان الـــزعيم
فعش يـــا مليكي البطـــل مليـــك الملـــوك الحكيم
ويـــا شعب دم للعلى بتـــوفيـــق رب كريم

الحسن حبيب الكون

حسن لـــه الأرض الحبيبـــة تثمر ولـــه روابيهـــا تطيب وتـــزهر
ولـــه العيـــون الحـــافـلات بفيضهـــا ولـــه البـــدور.. لـــه الشمـــوس تنـــور
ومن الصحـــاري مرتـــع لجنـــابـــه ولـــه قـــد ازدان الربيـــع الأخضر
وعلى الغصـــون لـــه العنـــادل غردت والـــزهر، أنى ســـار، فهـــو معطر
ولـــه خيـــال الشعر ينعم بـــالرؤى ولـــه القـــوافي عـــذبـــة تتيسر
ولـــه القلـــوب بكـــل حب صـــادق ولـــه الـــولا متجـــدد لا يفتر
ولـــه الجميـــع معظم ومجلـــل ولمن لنـــا أهـــداه دومـــا نشكر
حسن يغـــار الحـــن من حسنـــاتـــه قلب كبير فـــوق مـــا يتصـــور
فكر ســـديـــد بـــالهـــدى مسترشـــد والفعـــل خير ليس منـــه أخير

الإسلام والشباب

للدكتور يوسف الكتاني

يعتبر الشباب في كل زمان وفي كل مكان عصب الأمة وعمادها، وأملها ومعقد رجائها، فيه ترى امتدادها ومستقبلها، وبفضله تنهض وتتقدم وتصل إلى ما تريد، ولا نعلم أمة من الأمم قديمها وحديثها، اعتنت بشبابها ورعتهم، وهيأت لهم ما يجعلهم رجالا أكفاء أقوياء، مثل دولة الإسلام ورسول الإسلام، حتى أننا نجد أركان دولته قامت على أكتافهم وبجهودهم، دعاة وعلماء، حكاما وأمراء وقواد جيوش، ويمتلئ تاريخ السيرة بصفحاتهم المشرقة وأعمالهم الخالدة.

وتتوزع مسؤولية رعاية الشباب في الإسلام جهتان : **الأسرة** باعتبارها نواة المجتمع وأساسه، ومنبع الأولاد ومدرستهم الأولى، وهي التي توجهه الوجهة التي تصنعه وتكونه، لأن المولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما أكد الرسول عليه السلام وفي ظلها يرتبط برباط مقدس، كي تستقر نفسه وعواطفه، ويرتبط بعلاقة وثيقة مع أفراد أسرته وأعضاء مجتمعه.

والجهة الثانية التي ترعى الشباب هي **الدولة**، ترعاه بالتعليم والتقويم والتوجيه، في المدرسة والشارع ومختلف مجالات الحياة، وقد رعى الإسلام هذه المسؤولية حق رعايتها، وخص الرسول الكريم الشباب بما لم يخص به فئة أخرى، خاصة وأنهم كانوا الفئة المؤمنة بدينه، والمبادرة لنصرته.

لقد كان عبد الله بن عباس ردف رسول الله على ناقته ذات يوم، وكان شابا حدثا، وأراد أن يفتح له طريق التقدم والتفوق، فرسم له ولشباب المسلمين الخطوط الأساسية التي تكون المثل الأعلى له، حتى يكون قويا مجدا مؤمنا مفيدا، ولا يكون إمعة متواكلا متخاذلا، وقد خاطبه رسول الله قائلا :

«اسمع يا غلام أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

لقد كان الرسول وخلفاؤه من بعده، يخص الشباب بالتوجيه الدائم، والعناية المستمرة، ويفقهه في دينه ويعلمه آداب الإسلام، ويوجهه إلى التقوى والعمل الصالح الذي يفيده ويفيد أمته ومجتمعه، يقول الرسول مخاطبا الشباب :

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ـ القدرة ـ فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء ـ وقاية» ـ

بمثل هذا التوجيه الحكيم، والقدوة الحسنة، والمثل الصالح، استطاع الرسول في فترة وجيزة أن يجعل من شباب المسلمين شيعته وأنصاره، وعدته في الجهاد ودعاته إلى الدول والأمم، وفقهاء الأمة وقراءها، ويجعل منهم المشاعل التي أنارت الطريق، وفتحت الفتوح، نذكر منهم على سبيل المثال :

علي بن أبي طالب الذي شارك في معركة بدر وهو دون العشرين.

وخالد بن الوليد الذي أمر على الجيش وهو في عنفوان شبابه.

وعبد الله بن عمر.

وزيد بن ثابت.

وأسامة بن زيد، وسواهم كثير.

لقد أصبح شبابنا اليوم في حاجة إلى أن يتعلموا ويعرفوا حقائق دينهم، وسيرة رسولهم، وتاريخهم، حتى يكون لهم القدوة والأسوة، ويعرفوا أن دينهم دين التجديد والتطور، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

إن ثقافتنا الإسلامية ليست قاصرة، وإن تراثنا الإسلامي ليس له طابع اللاهوت، وإن الفكر الإسلامي فكر جامع شامل كامل، هو جماع الأخلاق والاقتصاد والاجتماع والتربية والسياسة والعلم والفن، وهذا ما يجعل فكرنا الإسلامي يختلف عن الفكر الأجنبي الذي يؤمن بالانفصال بين العلوم والقيم، بين الدين والحياة، وإن الحياة الإسلامية ليست حياة انزواء وانطواء وعبث فلا رهبانية في الإسلام، وقد كان الرسول عليه السلام يسابق زوجته عائشة، فتسبقه مرة ويسبقها أخرى، وكان يركب الخيول ويحبب إلى ركوبها قائلا : «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وكان يمزح ولا يقول إلا حقا، كما كان عمر يوصي الناس أن يعلموا أولادهم الرماية والسباحة، لأنهم مخلوقون لزمان غير زمان وآبائهم، وهذا قل من كثر من تاريخ الإسلام وحقائقه.

إذا فشبابنا محتاج إلى استمالة واعية، تبصره بما ينبغي أن يكون عليه، من دون تنقص لمواهبه وقدراته، وهو في مرحلة تكوينه، وذلك بتوجيهه إلى التعلق بكتاب الله، وسنة رسوله، وقيم الإسلام التي تجعله يقيم حياته على الفضيلة والحق والخير. ومحتاج أن يعرف أن الشباب الحي وهو الذي يحجز نفسه عن فعل ما يذم أو يخل بالمروءة، فيتقي الزلات، ويبتعد عن السلبيات، وذلك يدعونا إلى تقويمه بالقدوة قبل القولة. وبالتعهد الدائم، والتوجيه الرشيد، لقد وضعت بلادنا للشباب البرامج والتخطيطات، ورصدت له الجهود، وجعلت ميلاد جلالة الملك عيدا للشباب وفتحت النوادي الاجتماعية، والملاعب الرياضية، والدور الثقافية، وعلينا أن نحبب إليهم هذه الأماكن، ونضاعف الجهود حتى تكون كخلية نحل، نشاطا، وثقافة ورياضة، وأخلاقا، كي يملأوا أوقاتهم وعقولهم بما ينفع ويجدي، فيتغلب الأمل والطموح في أنفسهم، فيبدعون ويبتكرون، ويتحدون العراقل والمصاعب، كما كان أجدادهم يفعلون.

ولنجعل من عيد الشباب، عيدا لتجديد الأمل، وتقوية العزائم، واستنهاض الهمم، ومضاعفة الجهود، وحث الخطى، وطي المراحل، والتسابق إلى التقدم والتطور والتجديد لما فيه خير الأمة وصلاح الشباب، وبالله التوفيق.

معالم من الاختيار المغربي الحسني :

النهضة الإيمانية

منطلق الاختيار الحسني

للأستاذ زين العابدين الكتاني

«إننى من المدرسة الإسلامية، مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام التي تفضل الحوار على كل شيء، وتجعل من الحرب آخر مرحلة للحوار..»

من حديث لجريدة (الاهرام) القاهرية سنة 1977

لقد حاولت منذ عشرين سنة أن انتهى في دراسات متواصلة نشرتها إلى أن منطلق الاختيار المغربي يرتكز على بعث (النهضة الإيمانية).

وكانت هذه الدراسات التي نشرتها تباعا تستقطب (الاختيار المغربي) في :

أولا : خلق الفلسفة الاجتماعية.

ثانيا : في السياسة الإفريقية.

ثالثا : في سياسة عدم الانحياز.

رابعا : في المجال الإعلامي.

خامسا : في معركة الصمود والتحدى.

سادسا : في تحقيق الوحدة الترابية.

سابعا : في بناء المغرب الحسني.

ثامنا : الأدب المغربي الصحراوي في معركة الوحدة.

تاسعا : الديبلوماسية المغربية.

وقبل أن أحلل المعطيات العامة لهذا الاختيار، فإنني أحدد معالمه أولا في القاعدتين الأساسيتين وهما :

أولا : إن المتتبع لمسيرة الوحدة التي يقودها قائد المسيرة المغربية جلالة الحسن الثاني يدرك يوما بعد يوم أن هذه المسيرة هي فقط (حلقة نظرية) يهدف بها :

أن للمغرب الجديد فلسفة (إيديولوجية) للوطن الذي للعالم المتحضر منذ أكثر من أربعة عشر قرنا لا يتراجع أو يغير الاختيار، ولكنه يبلور فلسفته في قالب المعاصرة والأصالة للاستمرار الإنساني المتحضر، «**...لتكون الأمة المغربية وقائدها قدوة للتاريخ.. وفاتحة عهد العزة، والكرامة والحق..**»

ثانيا : أن هذا القائد أعلن في بداية عهده بالمسؤولية المباشرة سنة 1964 بقوله : «**أننا نفضل العمل على إغناء الفقراء..**»

وفي هذين الهدفين أصبح الملاحظ القريب والبعيد والمتتبع يلاحظ أن المغرب بالرغم مما يواجهه من صراعات ومضايقات تنطلق في شكلها وشعاراتها من الاستعماريين القديم والحديث، وأنه يصارع ويعمل من أجل إبراز أهداف فلسفته السلمية الإنسانية الإيمانية، وأنه يصحح واقع وحدته مما أصابها من مواجهات استعمارية حاقدة.. يدرك في عمق أنه يواجه عالما مرتبكا، شعاره تجارة الحرب، وفلسفته الحرب الباردة من أجل قيام الاستعمار الجديد.. وتركيز التحالف الاستعماري الاستغلالي للقوى الدولية المتصارعة التي تستهدف القضاء على الإيمان، وتسخير الإنسان لجشع الاستعمار فقط..

وهذه النتيجة وإن كانت تأخذ مفاهيم سياسية مختلفة، فإنها قد أصبحت بعد ظهور فلسفة المغرب السلمية التي بلورتها بالخصوص (المسيرة الخضراء)، أن أغلب هذه «المفاهيم السياسية المختلفة» قد ذابت في القوميات الضيقة التي كيفتها في قوالب مختلفة الفلسفة الاستعمارية، ما دفع بأغلب الدول التي لم تستطع المواجهة في صلب فلسفة التحالف الاستعماري، فأصبح العالم الثالث بالخصوص لا يلوي على أي مقوم سليم، أو منهج واضح.. غابت في محيطه شعارات الوطنية الحق، والوضوح الديبلوماسي، والأخوة.. فكان من نتائج هذا الغموض أن زاد في بلورة «فلسفته السلمية الإنسانية» على أوسع نطاق.

وإذا كانت هذه النتيجة بكل عطاءاتها ونتائجها الواضحة العسكرية والديبلوماسية والإعلامية تؤكد فلسفة المغرب المدروسة، والمرتكزة على منطلقه الإنساني المبني على الوعي الأصيل، وأصالة في التفكير والتعقل.. كل مقومات هذه الصفات لا تزال ترتفع بأمتنا إلى مستوى البحث بالمسؤولية في أسمى معانيها، ولا تسير وراء سراب العبث والتهور، واصطياد الفرص، لأنها تعرف مكان خطواتها منذ الانطلاق بالمسيرة، وتحسب هذه الأبعاد والمواقف بعد هذا الانطلاق.. لأنها تؤمن أنها مسيرة علمية، وأنها مسيرة خضراء لأنها تنطلق من الحق والعدل، وتستهدف الوحدة، وتقاوم الانفصال الاستعماري، وتكره التبعية المتسترة وراء الشعارات الانفصالية.. ولو تحالفت تحت مظلتها كل شعوب الدنيا..

☆☆ ☆☆ ☆☆

وإذا كنا نحتفل بعيد الشباب، ونحن نعمل داخليا وديبلوماسيا في وحدة شاملة.. وصمود، فإن لهذه المعركة جوانب جديدة نسجلها بإيجاز في هذه المناسبة، وهي :

1 - صمود الوحدة، وصمود الصمود في وجه كل تحالف وأمام كل المحاولات المتكتلة التي تواجهنا على جميع الواجهات...

2 - صمود الدفاع وشموليته بصورة تؤكد للعالم أنها تدعو إلى الاعجاب والفخر لأنها : «**..فاتحة عهد العزة والكرامة والحق..**»

3 - المفاجأة الديبلوماسية الهادئة والهادفة التي تغير مجريات الأحوال في خضم من التحالف والمتناقضات عقب كل مواجهة ومعركة..

☆☆ ☆☆ ☆☆



تحية الأقاليم الجنوبية بمدينة العيون

وإذا كانت المعركة التي حقق المغرب عن طريقها وحدته الترابية، والذي لم يترك فرصة تمر دون أن يقطع مرحلة تلو الأخرى للوصول إلى تحقيق هذه الوحدة التي كانت هدف الدول الاستعمارية التي تكالبت عليه منذ أن تمركز هذا الاستعمار بمختلف نقط إفريقية، فأصبح يرى أن قلعة المملكة المغربية التي طاولت التاريخ، وصمدت في تحد متواصل لمواجهة كل تحالف وكل تكالب رغم ما كان يحيط بها من مؤامرات وتسرب وغزو وتفتيت للوحدة سواء من شرقه أو من جنوبه، فما وهن، ولا أصابه الملل، وصبر وصابر، واستطاع أثناء مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906) أن يؤكد استقلاله، ويضمن وحدته، ويطاول، مما يجعله اليوم يؤكد ما يطلق عليه بعقد الحماية هو نفسه لم يتنازل فيه عن شيء من هذه الأهداف خصوصا إذا ما وضعنا أمامنا الثورات الشعبية التي استمرت بدون انقطاع، ولنؤكد أن عثرته (سنة 1912) لم تخرج عن كونها كانت بما ترتب عنها نتيجة للخرق السافر من طرف المستعمر لبنود العقد المفروض، وعدم التزامه بحرفية النص مما لا يتسع المجال له في هذا الحديث الخاص بالمناسبة..

☆☆ ☆☆ ☆☆

وإذا ما رجعنا إلى موضوع الذكرى لنحلله من خلال ما كتب عنه من جهة في عدد من جهات العالم، ونتيجة لما خلفته النظرية المغربية السلمية بالنسبة لرجال الفكر ودهاقنة الاستعمار الجديد، والاديولوجيات التي بلورت هذه الأهداف عندما تحالفت مع (عقدة التاريخ) التي تواجهها اليوم كما واجهناها بالأمس، وهي تعمل في شكلها اللولبي لتقليص هذه الوحدة، محاولين بذلك أن يقفوا في وجه عودة هذه الوحدة كما وقف بالأمس المستعمرون من نفس المكان محاولين هدم هذه الوحدة، والوقوف في وجه إشاعة نظريته السلمية من أجل إحقاق الحق، وبلوغ الأهداف العادلة بالأسلوب الإنساني الذي يحق لدول العالم

الثالث قبل غيرها أن تفاخر به، وتتخذه سبيلا لها، ومنهاجا للقضاء على ما تعانيه من بقايا الاستعمار وخلفياته ومطامحه.. هذه النظرية التي ارتكزت على ما يتطلب ذلك من تصحيح وبعث للفكر المغربي المبني على الاستقلالية في الفكر، والأصالة في الغاية والمنطلق، والإيمان بالله وليس بالقوة والتحالف والتبعية.. وذلك بما يناسب عصر العلم والمعرفة، عصر التقارب والتعاون من أجل مواجهة الاستعمار، والخوف والمجاعة، والعقد النفسية، ومحاصرة الاستعمار مهما كان شكله، ومهما قويت شوكته وبطشه..

ذلك أن المسيرة الخضراء كانت من أبرز الأحداث في تاريخ المغرب الحديث لأنها :

- توجت الاستقلال بالوحدة.

- وأعطت للاستقلال مفهومه الصحيح بالنسبة للمغرب ولغيره وهو يستأنف المعركة.

- وسيكون لها أثرها البارز على عقلية الإنسان وتفكيره لأنها مثال فريد من نوعه في التاريخ للشجاعة، ومواجهة أشد الأخطار بالصدور العارية، والصامدة في نفس الوقت باليقين والإيمان، ولذلك فإنها ستظل كلما دار الحول من أبرز المعالم في تاريخ المغرب الحديث، وفيما يستقبل من التاريخ ما تعاقبت الأجيال، لأن هذا التاريخ، سلسلة ذهبية من الانتفاضات المتوالية في كل الميادين منذ انتفاضة إدريس بن عبد الله الكامل إلى انتفاضة المسيرة الخضراء.. فاعتبرت بذلك أيضا «انطلاقة النهضة الإيمانية» لأنها تستهدف :

أ - أن تضاعف من تقويم نفوسنا، وطريقة تفكيرنا، وأسلوب حياتنا، ونصاعة مثلنا، وسلامة طويتنا، ونظافة عقليتنا.

ب - كما تستهدف تعميق احترامنا وتقديرنا للنبل والمروءة والحياء.. واستهجاننا للخسة والدناءة والرياء.

☆☆ ☆☆ ☆☆

وترتكز نظرية (النهضة الايمانية) على بعدين :

البعد الأول : هو الأسلوب الجديد من أجل استخلاص الحق وتحقيق السلام، والانتقال من مرحلة التذكير إلى مرحلة تحقيق الحل، بقبول إرادة الأمم في حقها بنفس الإرادة دون اللجوء إلى القوة، أو استعمال أسلوب العنف، أو تعريض السلم في المنطقة الى تهديد.. وهو ما عبر عنه البعض «بانطلاقة تحويل الفكر» إلى مسيرة (النهضة الايمانية) التي تبرز أن :

- **السلاح :** هو القرآن الكريم.

- **الشعار :** هو (الله أكبر) و(العزة لله).

- **الهدف :** هو تحقيق الهدف بعد تحطيم الشرك، والبغي والتسلط وجعل حد لأصحاب «عقدة التاريخ».

- **الغاية :** هي تحويل أسلوب الدفاع بحثا عن الحق.

- **البعد النظري :** هو أن طريق الإيمان والصدق الذي يعتمد على الله سبحانه وحده حق الإيمان.. ويتبع طريق الحياة التي رسمها الله، فينتصر بكل تأكيد، وكذلك كان.

- **آفاق المستقبل :** ستبقى دائما من أبرز المعالم في تاريخ المغرب الحديث وفيما يستقبل من التاريخ ما تعاقبت الأجيال.

النتيجة : تؤكد أن «التحدي الحسني المعزز بمدد من الله سبحانه وتعالى، والدعم بولاء من الشعب لن تنقطع أسبابه، وهو وحده الذي مهد لنا السبيل إلى الحرية والوحدة والعزة تحت راية القرآن».

- **في الاطار السياسي :** حقق «المغرب لنفسه مجدا، ووضع على رأسه تاجا وخلق أسطورة».

- **أسس التجربة :** تجربة فريدة من الناحية السياسية، ومن الناحية الاجتماعية والإنسانية، أي تثير



أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني في مسجد المولى عبد العزيز بالعيون

التفكير في كل مشاكل مجتمعاتنا العربية، مشاكل الأنظمة والشعوب، مشاكل الثورية والرجعية.. مشاكل الدين والإشتراكية والانفتاح، والاستعمار والقومية... فكانت المسيرة في حد ذاتها تجربة.. أيقظت في تحد حركة التاريخ الإسلامي القديم، وأيقظت كذلك قضايا كثيرة كانت نائمة في المنطقة..

☆☆ ☆☆ ☆☆

البعد الثاني : وحتى لا يقع ارتباك في المفهوم الحسني، وحتى لا يتضارب مع الاتجاهات المعاصرة الغازية بالخصوص أوضح أمير المومنين :

أولا : أهداف الدعوة الجديدة من جهة باعتبارها دعوة ترعج كثيرا من الاتجاهات والأشخاص.

ثانيا : وضع خطوط هذه الأهداف فقال : «كنا دعونا إلى جميع شمل المسلمين حتى ينتصر بهم العرب، وحتى ينتفع منهم العرب الذين يقف ما يقرب من ثمانين مليون منهم أمام مشكلة فلسطين لأننا إذا عززنا جانبنا بالمسلمين كافة بعبقرياتهم المختلفة، بتعاملهم الأولي، بصداقاتهم، بأخلاقهم، بطاقاتهم، أصبح بجانب العرب نصف مليار من هذا المعمور، لذا ودون أن يرمي نداؤنا هذا، إلى أي عمل سياسي أو عسكري أو ما يشابه حلفا، أو غير حلف، أو ما يدخل فيما يعتبر مناورة أو عملية، أو ما أشبه ذلك».

☆☆ ☆☆ ☆☆

وبعد، فتأتي أول ندوة للطرق الصوفية تنعقد بالمغرب (دورة التجانية) ليضيف الملك المصلح في خضم الصراع بين السلفية الحق، والتصوف موقفا يشير فيه بكل

وضوح إلى جانب جديد وهو الحكم الواعي في الخطاب الذي بعث به للندوة (85/12/23 فاس) والذي أوضح :

أولا : «واقتناعا منا بالدور الذي تستطيع الطرق الصوفية أن تضطلع به في إصلاح النفوس أصدرنا تعليماتنا إلى وزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية قصد الإعداد لانعقاد ندوة مفتوحة للطرق الصوفية ببلادنا..».

ثانيا ويقول : «إن التصوف الإسلامي بنقائه وصفائه واقتباسه من مشكاة النبوة وجذوتها، كفيل إذا سلك به أهله العارفون المسالك الصحيحة السليمة أن يسهم الإسهام الكبير في إصلاح أحوال المسلمين بإرساخ الإيمان بالله في قلوبهم، وتعميق الشعور بالوحدة، وتمتين عرى الإخاء والمودة في نفوسهم، ودفعهم إلى التعاون على البر والتقوى، والتناصر والتآزر على الحق لتبقى كلمة الله هي العليا ولتكون العزة لله ولرسوله، وتستعيد الأمة الإسلامية سالف مجدها وسابق سؤددها، وتقوم بدورها في إصلاح أحوال العالم وإسعاد البشرية».

ثالثا : ويقول أعز الله أمره : «إذا كان عامة المسلمين وخاصتهم من العلماء العارفين على تعاقب العصور والأجيال قد اهتموا بالتصوف منبعا وسلوكا، وتشبعوا به قولا وعملا حتى أكسبهم من القوة والصلاح، فإنهم اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الاهتمام والتعرف إلى فضائل التصوف ومزاياه، والاستمداد من الطاقة الايمانية، والأسرار الربانية الكامنة في المبادىء الصوفية **لعلاج ما آلت إليه أحوال المسلمين أفرادا وجماعات من فتور في المبادىء والقيم الروحية الخالدة، واغترار بالتيارات الفكرية المادية، واندفاع وراء سرابها الكاذب، وبريقها الخادع، ووقوع في أشراك الخلاف والنزاع والصراع، ومهاوي الفرقة والشتات، والإعراض عن الاعتصام بحبل الله المتين»**.

وهكذا، وإذا كانت المعركة متواصلة الحلقات من أجل جعل تحديث المعركة الإصلاحية، فإن هذه المبادرة الجديدة التي توازي (ثورة فكرية) صامتة منطلقة في الساحة العامة، فإن الواجب يفرض على الأوفياء الملتزمين الانطلاق لأداء الواجب الذي حددته (ورقة العمل) لأن الوقت دقيق، والزمان لا يرحم.

وبعد، فإن ربع قرن أو يزيد لتقديم المغرب الجديد للعالم بهذه الصورة ومثلها من التخطيط والتجربة لتركيز الديمقراطية الحقة، الديمقراطية التي تعني الإمساك عن كل نوع من أنواع التهريج، والاقتصار على العمل المجدي الوثيق الصلة بحقيقة الأشياء كطابع للعهد الحسني، أكدت حسن الاختيار، ومع ذلك فإن المعركة قائمة تحت شعار هذا العهد يمكن أن نقول جازمين بأنها ذات شقين :

في الداخل : التزمت بتحقيق التوازن، وتركيز المكتسبات الوطنية في مختلف جهات المملكة، ومطاردة المخلفات الاستعمارية نحو خلق المغرب الجديد بأسلوب يعتبر معجزة العصر.

في الخارج : أبرزت عمق وأهداف الكفاح من أجل تحقيق الوحدة الترابية والتحديث لخلق الأواصر الإنسانية، وذلك ما تحقق بالفعل.

ولا يوجد في الشقين معا موضع آخر يمكن أن ينطلق منه اتجاه معاكس، أو فلسفة تسمح بوضع اتجاه، أو صيغة أخرى غير هذا السلوك...

وتلك هي الإيجابية التي أصبحت بكل وضوح وموضوعية طابع (المغرب الجديد) وهو الطابع المميز للسياسة التي ينهجها المغرب لتحقيق مغرب، قوامه العمل المجدي الوثيق الصلة بحقائق الأشياء والأهداف.. بكل هدوء وسكينة في أوضح صورة في إطار فلسفة مسيرتنا التي نتحدى بها دعاة البغي، والتحالف الاستعماري، والمسخ..

وعلى الله قصد السبيل.

معالم تاريخية وسياسية :

في مضمون الوزن الدّولي للمغرب الحسني

للأستاذ المهدي البرجالي

في منظور الجغرافية السياسية أو الاستراتيجية كما في منظور الجغرافية التاريخية أو الحضارية، فإن اسم المغرب يرتبط بحيثيات متعددة، بقدر تعدد الحقائق والمعالم التي يدل عليها موقعه الجهوي والقاري والدولي. وتعبر عنها صلاته وفاعلياته في الحاضر وفي الماضي البعيد والقريب : **المغرب عربي إسلامي، إفريقي، متوسطي، أطلسي**، الموقع المغربي موقع فريد من حيث الاعتبارات الجيوسياسية والجيوستراتيجية جهوياً ودولياً : هذه الحيثيات وخلافها ممّا هو أصيل أو مكتسب، تضفي على شخصية المغرب الدولية، أبعاداً ذات اعتبار كبير في موازين التقييم والتقدير، وبقدر ذلك، فإن هذه الحيثيات تلقي أيضاً على المغرب أعباء جسيمة جداً وتجعل مسؤوليته نحو نفسه، ونحو المحيط الحضاري، والقومي والدولي الذي ينتمي إليه، مسؤولية واسعة على أكثر من مستوى.

لقد كان ذلك شأن هذه البلاد على امتداد تاريخها في العصر الوسيط وفي غضون القرون الأخيرة، وكان من الطبيعي ـ وقد استرجعت استقلالها ـ بعد فترة الحماية العابرة، واستعادت دينامكية دورها المرتبط بحيثياتها الأصيلة والمكتسبة، أن تواجه مسؤوليات أكثر جسامة، وتضطلع برهانات أشد إلحاحاً واقتضاء، وتطوقها التزامات في مثل التشعب والتعقيد الذي تمثله متطلبات الحياة الدولية المعاصرة.

☆ ☆ ☆

لقد برز استقلال المغرب في خلال الخمسينات كحدث رائد في حركة التحرر العالمي التي ميزت عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومرجع هذه الريادة، أن انحسار الاستعمار عن المغرب، كان طليعة انحسار الاستعمار عند افريقيا ككل، ومعلمة على الطريق في مسلسل التطورات الجذرية التي أفضى ـ في سياقها ـ النظام الاستعماري إلى نهايته.

وإذا كانت صفة الريادة هذه، قد توفرت للمغرب في تحركه على درب النضال من أجل استعادة الاستقلال، فإن هذا الوطن، كان متفردا كذلك بكون صفته ـ كدولة ـ لم تنشأ بحصوله على استقلاله، كالحال بالقياس لعدد من أقطار إفريقيا وآسيا، بل إن استقلال المغرب كان مجرد امتداد طبيعي لحالة ذات مرتكزات عريقة عبر القرون وحالة كان فيها باستمرار كامل القدرة على ممارسة السيادة، ممتلكا ناصية التأثير المستقل والفعال في مجرى التاريخ والمشاركة القوية في مجرياته.

وعلى المدى الطويل الذي عاشه المغرب في التاريخ الوسيط والحديث، اضطلع بمهام ومسؤوليات كبرى (حماية الأندلس الإسلامية ـ ضد طلائع الغزو الاستعماري الأوروبي عن السواحل الإفريقية منذ القرن العاشر الهجري ـ تعزيز الوجود الفكري والسياسي الإسلامي بغرب إفريقيا ـ شد أزر المجتمعات الإسلامية الأخرى بحوض المتوسط ـ دعم مواجهة الدولة العثمانية للتحالف الأوروبي ضدها الخ...) ونتيجة لمترتبات هذا الموقع الذي للمغرب في التاريخ، ولداعي خصائصه الجغرافية وممكناته على اختلافها. فإن عملية احتلاله حينما تعرض للاحتلال، كانت عملية جد معقدة، تعددت في نطاقها، القوى الاستعمارية التي مارست ذلك الاحتلال. كما تعددت أيضا أشكال وصيغ السيطرة التي زاولها المحتلون، ومما ترتب عن هذه الحال :

1) أن عملية التحرر المغربي من الاستعمار قد تمت على مراحل متوالية مستغرقة ما بين الخمسينات والسبعينات من هذا القرن.

2) أن النضال الوطني المغربي على امتداد الأشواط التي مر بها، كان ذا هدفين رئيسيين متلازمين ومتكاملين : استرجاع السيادة واستكمال وحدة التراب.

3) أن المغرب قد اضطر ـ في سياق سعيه لاسترداد وحدته الترابية، إلى خوض المعارك التي خاضها بهذا الصدد في واجهتين اثنتين : الواجهة المفتوحة مع القوى الاستعمارية التقليدية التي نهجت سياسة التجزئة الترابية ضده في إبان احتلالها له، وحاولت ـ بعد جلائها ـ الاحتفاظ ببعض الأوضاع التجزيئية التي أحدثتها بموجب سياستها تلك، ثم كانت بعد ذلك الواجهة الجديدة التي صار على المغرب خلالها أن يخوض معارك دفاعية في مواجهة النزعة الهيمنية التي تبناها الجيران في المنطقة، وانطلقوا ـ بوحي منها ـ في استثارة ثم في تعميق حدة التوتر المفتعل، الذي ما فتئت تعاني منه منطقة شمال غرب افريقيا منذ 1975.

☆☆☆

قبل خمس وعشرين سنة، والمغرب آنئذ حديث العهد بالاستقلال، كانت المعركة أمامه لا تزال طويلة ومتشعبة بقدر كبير لكي يسعه أن يفضي منها إلى إنجاز المهام المرتبطة بأهدافه في المجالات التالية :

1) استكمال الاستقلال باستكمال وحدة التراب.

2) ضمان الحصول على موقع إيجابي بمستوى كاف، في المحيط الدولي، وبما يقتضيه الحال في ذلك من حسن الاستبصار في تقييم حقائق العالم واستشراف وجهة مسار تطوراته، ووعي آفاق وأبعاد وحدود تفاعل المغرب مع هذه الحقائق.

3) الحفاظ على مقومات رسالة المغرب التاريخية والحضارية في مساق تعاطيه مع المحيط العالمي حوله.

لقد كان النصف الثاني من الخمسينات، مرحلة الاستيعاب الأولى لمسؤولية الاستقلال وإقامة اللبنات ـ الأساس لقواعد وأساليب ووسائل العمل الكفيلة بتيسير الانتقال ـ على نحو ناجح ـ إلى المرحلة التالية، مرحلة استثمار القدرات المتاحة، نتيجة لنضج هذا الاستيعاب وترسخه، ومبنى الاستثمار من هذا المعنى : تعميق وتأصيل دينامكية البناء الذاتي من جهة، وتأمين الحصول على وزن مناسب لقيمة المغرب كوطن وكتاريخ وكحضارة في حقل الحياة الدولية.

خمس وعشرون سنة في مسار المغرب الحسني، اجتاز فيها المغرب والنطاق العالمي الذي يكتنفه ـ أحوالا وأطوارا متعددة، واتخذت صورة الحياة الدولية والأوضاع والمفاهيم السائدة فيها، أكثر من سمة، وأكثر من نمط ولون، وتبلورت ـ على مستويات مختلفة ـ معادلات وتوازنات من كل نوع. دار خلالها العالم المعاصر، دورات كثيرة، لينتهي إلى ما يُرى عليه الآن. وهذا الذي يرى في الوقت الحاضر، مختلف اختلافا جذريا وشموليا وعلى شتى المناحي، عما كان عليه الوضع العالمي في أوائل الستينات، سواء من حيث حوافز العلاقات الدولية وأشكالها ومضامينها وملابساتها، أو من حيث الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم، وعموماً من منظور

مستويات الأفكار والتصورات، والآفاق البادية في ظروف بداية العقد السادس مقارنة بما يبدو الآن من هذا القبيل أواسط العقد الثامن من القرن.

وخلال هذه المساحة من الزمن تأرجحت بنسبة كبيرة مواقع الكثير من الدول في العالم بين صعود وهبوط. فرب دولة كانت في موقع أقوى، فانعكس عليها من ذاتيتها ومن ظروف التحولات العالمية حولها ما جعل موقعها ينحدر درجات تقل أو تكثر، وربّ دولة أخرى، تطور حالها على نحو معاكس. وعلى أي فإن ضخامة وشسوع التطورات العالمية التي سجلها الربع قرن الأخير، كان متطابقاً ومنطق التسارع الحتمي في وتيرة الفعل والتأثير على الصعيد العالمي، نتيجة للانتقالية النوعية للمجتمع الإنساني منذ عصر الإمبراطوريات الاستعمارية إلى عصر التكامل بين مختلف الشعوب المتكافئة سيادة وحرية.

وبطبيعة الحال، فإن الاستعمار التقليدي، وإن كان اضطر تحت حتميات ضغط التاريخ أن يجلو عن الأراضي التي كان يبسط عليها سيطرته ـ فإنه مع ذلك لم يكن من شأنه أن يرضخ رضوخا موضوعياً ـ لا مجرد رضوخ تكتيكي ـ لهذه الحتميات إلا بقدر ما كان هامش المناورة يضيق أمامه في جو عالمي كالجو الذي أفرزته بيئة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وإلى نهاية الخمسينات من هذا القرن كان يبدو للفكر الاستعماري أن هامش المناورة هذا واسع لديه إلى المدى المرغوب فيه، باعتبار أن المرحلة كانت مرحلة انتقال من عهد الاستعمار إلى عهد تصفية الاستعمار، وأن الصعوبات ـ نتيجة لذلك ـ شديدة الحدة والتعقد بالنسبة لتلك الأقطار الرائدة ـ وقد كان المغرب في طليعتها ـ التي استعادت استقلالها، وبالتالي حريتها في البناء الذاتي واختيار طريقها في مشتبكات الحياة الدولية : لقد كان المفترض ساعتها، أن مثل تلك الأقطار لابد أن تجد نفسها ـ والحالة هذه ـ في خضم دولي كثير الأدغال والمجاهيل، وأن ما تواجهه من التحديات والمعضلات غير جدير بأن يمكنها من تجاوز العقبات الكأداء التي تعترضها دون الوصول إلى التأثير بنصيب في مجرى الشؤون العالمية، والإسهام على نحو ما، في تعديل مسار الأمور على هذا الصعيد بما يتفق والتغيير الذي تنشده. لقد كانت محاور التساؤل المطروحة في خلال المرحلة من قبل الدول الحديثة عهد بالاستقلال، ذات مناحٍ متعددة منها :

1) أي سبيل واجب سلوكه نحو إقناع القوى الاستعمارية بواجبها في تيسير حركة الانتقال انتقالا صحيحا وكاملا وشموليا من مرحلة العلاقات الاستعمارية، إلى مرحلة التعاون والتكامل في الساحة العالمية وبدون خلفيات تكتيكية أو مناوراتية ؟

2) كيف التوصل إلى قاعدة ما، لتنسيق توجهات البلدان المستقلة حديثاً وصهر مراميها وجهودها صهرا كفيلا بتمكينها من الاستفادة المتبادلة بينها في مضمار مواجهة الوضع العالمي السائد والذي لم يكن لها فيه خلال الظرف تأثير فعال، إنْ على مستوى الدورة الاقتصادية أو في مستوى المعادلات السياسية أو الستراتيجية العالمية أو في مجال المنظمات والهيآت الدولية ؟

3) كيف تتأتى مواصلة طريق العمل المتناسق المتضافر من أجل إكمال عملية تصفية الاستعمار من العالم، وبالتبعية، من أجل مساعدة الشعوب المستعمرة (بالفتح) على تسريع وتيرة التطور العالمي المطلوب في هذا السبيل ؟

4) إلى أي مدى يتسنى للشعوب المستقلة حديثا توظيف قدراتها وإمكانات التعاون بينها لتجنب الوقوع في متاهات الصراع بين القوى الكبرى في العالم، والاضطلاع بدورها في خدمة الهدف الستراتيجي الأساسي الذي يتحتم أن تجعله نصب عينيها، والمتمثل في تحاشي الانحشار في مضايق الاستقطابات الدولية والسعي للتخفيف من حدة تلك الاستقطابات، والنزاعات المرتبطة بها، والإسهام في تعميق نوازع المسالمة والتفاهم في أفق أوسع ويقوم على التوازن بين المصالح وتلطيف حدة التناقضات في المحيط الدولي ؟

الطروح هذه التي كانت تأخذ باهتمامات الأقطار المستقلة فيما بين الخمسينات وأوائل الستينات كانت تقابلها في حيز الواقع - أوضاع دولية على جانب كبير من السلبية بالنسبة لمصالح ومصاير ما أصبح يدعى منذ ذلك الحين، بالعالم الثالث. وهي حال جعلت من صفة الريادة في وضعية الأقطار المتحررة من الاستعمار آنئذ، صفة باهظة التكاليف نفسيا وفكريا وعمليا، وذلك بالنظر لصعوبات الظرف الذي كان يكتنفها وأيضا لقلة عددها في ذلك الحين، ومحدودية إمكاناتها في التأثير على الإطار الدولي حولها، ومن جوانب الصعوبات هذه :

1) من الناحية الأمنية :

كانت قوى الاحتلال الاستعماري لم تستكمل - بعْدُ - مظاهر جلائها الكامل عن البلدان التي أحرزت على استقلالها، ثم إنه بحكم أن عددا من الشعوب كانت لاتزال في حالة صراع من أجل الاستقلال، فإن الأقطار المستقلة المجاورة لتلك الشعوب، كثيرا ما كانت تتعرض لاعتداءات انتقامية من جانب المستعمرين. ردا على ما كان يعتبره المستعمرون مساعدة تأتي من البلدان المستقلة - المعتبرة بلدان مواجهة - إلى الشعوب التي توجد في حالة صراع معهم لانتزاع استقلالها.

2) من الناحية السياسية - الدولية :

كانت الحرب الباردة بين الكتلتين الرأسمالية والشيوعية، مثار ورافد مختلف الهواجس الملحة - في خلال الظرف - على الدولتين العظميين ومن معهما. ومن ثم، فقد كان الجو الدولي بوجه عام مفعماً بشحنات جدّ ضاغطة، مترتبة عن ملابسات الحرب الباردة وما كانت تحمله في ثناياها من انعكاسات ثقيلة على الأقطار الحديثة عهدا بالاستقلال، أما فكرة عدم الانحياز التي بذرت بذورها في «باندونغ» فلم تكن إلا في أوليتها، بحيث لم تتعد حينئذ كونها مظهر رد فعل عالمثالثي وعفوي على النزعة الاستقطابية، التي كانت تميز فلسفة وتصورات فرقاء المواجهة في إطار الصراع بين الشرق والغرب.

3) من الناحية التنظيمية :

لم يكن التضامن بين البلدان المستقلة حديثا قد اتخذ - بعدُ - أشكالا مؤسساتية لها حضور دولي ذو فاعلية ملموسة، مثلما وقع في مراحل لاحقة، متجلياً مثلا في المؤسسات التضامنية من هذا القبيل، إما على صعيد قاري، كالوحدة الإفريقية، أو في نطاق عقائدي - حضاري مشترك كمنظمة المؤتمر الإسلامي، أو سياسي دولي كمنظمة عدم الانحياز.

☆ ☆ ☆

ولج المغرب الحسني عتبة الستينات، والوضع العالمي - كما يترآى من بعض الملامح التي ذكرنا - لا يزال وضعا انتقاليا وبالتالي متأرجحاً بين متخلفات ما قبل الحرب العالمية الثانية، وبين إفرازات العصر الذي أعقب نهايتها. وليس تمث أثقل حملاً وتحملات من أن يكون على بلد معايشة انتقالية نوعية عالمية من هذا الحجم، وبكل ما تتطلبه المعايشة هذه من قدرة على التبادل والتفاعل، المتكافئ والإسهام - فكرا وممارسة ومسلكا - في مجرى صياغة وتوجيه المؤثرات العالمية.

لقد كانت الدلالات الفورية التي ترتبت عن استقلال المغرب، من بين أعمق ما أحدثه - في نطاق النصف الثاني من هذا القرن - إحراز قطر من أقطار العالم الثالث على الاستقلال، فتحرر المغرب كان يعني - بالضرورة - امتداد تيار تصفية الاستعمار إلى أقصى الجناح الغربيّ للعالم العربي والإسلامي. وقد كان التقليد التاريخي الذي ارتبطت به صورة المغرب طِوالَ قرونٍ أنه كان قاعدة الحفاظِ على حرية وسيادةِ الغرب الإسلامي جنوبَ المتوسّط وشماله، واحد مراكز الثّقل الرئيسية في مناعة العالم العربي والإسلامي ضد التيارات المناوئة، وفي خطّ آخر كان استقلال المغرب إرهاصاً بانطلاق التحدي الإفريقي ضد الاستعمار وانطلاقته الفاصلة التي انتهت إلى تحرير القارة منه، ومما كان أيضا من دلالات استقلال المغرب وبدء انكماش النفوذ المطلق الذي كان للضفة الشمالية على الضفة الجنوبية من الحوض المتوسطي وكما كان لهذا الاستقلال - في اعتبار أشمل - أبعاد دولية أفسح

أفقاً لها من حيث جذورها الفكرية ـ صلة بالتألق الذي أضفيَ في مستوى الفكر السياسي الدولي ـ على مبادئ التعايش والتعاون والحوار بين الحضارات ونحو هذا.

لقد عُرف المغرب في جملة ما عرف به من حيثيات، أنه همزة وصل فيما بين أوروبا وافريقيا، ومعبر أصيل من معابر التفاعل الفكري والثقافي بين المحيط الغربي والمحيط العربي ـ الإسلامي. كما عرف عنه أيضاً أنه بلد التعددية الفكرية على المستوى السياسي والاجتماعي، وأحد رواد عدم الانحياز، وسوى هذا وذاك من الحيثيات التي ارتبطت بصيت المغرب، وكانت داعي إغناء لإشعاع هذا الصيت. وإذا كان حدث استقلال المغرب قد انطوى ـ كما ذكر آنفا على دلالات ثرية المضمون على هذا المنوال. فإن الانطلاقة الكبرى التي سجلها هذا الوطن منذ أوائل الستينات، قد أتاحت لهذه الدلالات حُضورا ديناميكيا كثيفا في واقع الحياة الدولية وأهلت الدور المغربي ـ بكيفية متصاعدة ـ لاكتساب وزن مشهود في الشؤون العالمية من جوانبها العربية ـ الإسلامية والإفريقية وغيرها، وكما هو ملحوظ فإن تعدد هذه الجوانب وتنوعها ليرتبط موضوعيا بدرب الشمولية والتكامل التي يتسم بها الدور المغربي وغزارة روافده.

لقد كانت الصفة الرائدة لظروف وتوقيت استقلال المغرب، قرينة الصفة الرائدة للطريقة التي توصل بها ـ عبر كل سلبيات الظروف العالمية ـ إلى بلورة المعالم الفعالة التي اتسمت بها مسيرته ـ وطنيا ـ ودوره في الحقل الدولي، ومن غير شك، فإن التماسك القومي للمغرب ـ الذي جسدته ثورة الملك والشعب، وعراقة تقاليده السياسية المرتكزة على أسس فكرية وحضارية وطيدة، كان قاعدة ارتكاز جوهرية في هذا المضار؛ ومما يشار إليه في هذه المعالم التي سجلها المغرب الحسني في ظل عاهله القائد، ومنجز وحدته :

- **في النطاق القومي**

طول النفس النضالي ومتانة التركيز في مضمار العمل على تعميق مضمون الاستقلال واستكمال وصيانة وحدة التراب.

متانة القدرة على استيعاب المتربات الجيوسياسية والجيوستراتيجية، الناجمة عن حساسية الموقع الجغرافي للمغرب، وتأمين مناعة هذا الموقع في مواجهة المطامع الخارجية التي تثيرها أهميته ذات الأبعاد المختلفة.

ـ كفاءة الجمع ـ في النطاق المغربي ـ بين عراقة الأصول المتجذرة في أغوار الماضي وبين ديناميكية التواصل والتفاعل مع التيارات التحولية الإيجابية، وبواعث التطور التي يزخر بها العالم المعاصر.

- **على مستوى المغرب العربي وغربي المتوسط**

تحييد التوترات المقحمة على المنطقة (سنة 1963، ومنذ سنة 1975 إلى الآن) كي لا تنال بشوائبها من مصداقية فكرة المغرب العربي، واستبقاء المبدإ المغاربي بالتالي، منطلقا وسبيلا مركزيا لبناء مستقبل شعوب المنطقة ضمن إطار التكامل الطبيعي القائم فيما بينها.

ـ رعاية وإثراء الروابط التاريخية والفكرية والحضارية، مع غربي افريقيا حيث توجد جذور انتماء متبادل تصل بين الطرف المغربي وبين غيره من الأطراف الواقعة إلى الجنوب من نهر السنغال.

ـ إعطاء مجالات أوسع لمبادرات التعاون والتبادل وإخصاب جو الحوار مع مجموعة الشعوب المُساكنة في الضفة الشمالية لغرب البحر المتوسط والجهات الأوروبية المتصلة بها واستثمار إيجابيات القواسم المشتركة، مع بلدان هذه المجموعة.

- **في الإطار العربي ـ الإسلامي والإفريقي**

ـ دعم التوجه العقلاني والعملي والفعال في خط الفكر والتخطيط والتنظيم والتقرير بصدد العمل العربي، والعمل الإسلامي.

ـ الالتزام بمبادئ القانون ومعايير الشرعية في مسالك وممارسات منظمة الوحدة الإفريقية، باعتبار أن الأمر له علاقة حتمية وشمولية بمصداقية المنظمة وكفاءتها، ويتحكم ـ بالتالي ـ في مدى قدرتها على القيام بمهامها القارية والدولية.

- العمل على محورة الفكر السياسي والاجتماعي الإفريقي حول المصالح الحقيقية الموضوعية والمتكاملة للقارة، ورفض هامشيات الاختلافات الإيديولوجية، خاصة ما ينعكس من هذه الاختلافات - سلبا - على مجالات التعاون والتناسق ودواعي التضامن بين بلدان القارة.

• **في محيط عدم الانحياز**

- المساهمة التاريخية في ضبط وإثراء مفهوم وأبعاد فكرة عدم الانحياز الصيغة السلوكية للمغرب على ضوء مبدإ عدم الانحياز كنموذج للدقة والصدق في الالتزام بالمبدإ، بعيداً عن أية اعتبارات تكتيكية أو تأويلات مفتعلة.

- التضافر على تطوير الفكر اللا انحيازي وتبلور التوجهات - في سياق ذلك - نحو الحوار الاقتصادي بين الشمال والجنوب.

• **في الساحة الدولية عامة**

التفتح على كافة الجهات بالعالم، وقوام العلاقة مع مختلف المجموعات الدولية : حسن التعايش والتعاون البناء.

- مناصرة قضايا الحرية وتدعيم ديناميكية العمل العالمثالثي من أجل استكمال تصفية بقايا الاستعمار.

- إيثار سبيل السلام والحسنى في حل المشاكل، والتكاثف على التخفيف من حدة التوترات الدولية.

☆ ☆ ☆

هذه بعض المعالم البارزة في نهج المغرب الحسني ومواقع خطاه في الساحة الوطنية والدولية، وقد سجلت المسيرة الحسنية على هذا الدرب إنجازات ضخمة لها موقع مشهود في سجلنا القومي وفي تاريخ العالم الثالث والمحيط الدولي عامة، ومن هذه الإنجازات على سبيل المثال (دون ترتيب زمني أو موضوعي).

المسيرة الخضراء وإنجاز وحدة التراب وتوطيدها والدفاع عنها.

- المشاركة الفعالة في حرب أكتوبر 1973 مساندة زايير في وقف التسللات المناوئة لوحدتها الترابية بإقليم شابا.

- تقديم العون لشعوب المستعمرات في نضالها من أجل الاستقلال.

- المساهمة النشيطة في مجمل التطورات التاريخية التي أدت إلى قيام منظمة الوحدة الإفريقية.

- الدعوة إلى عقد أول مؤتمر قمة إسلامي عالمي في التاريخ الحديث واحتضانه.

- دعم خطوات منظمة المؤتمر الإسلامي.

- استضافة مؤتمرات قمة عربية وإسلامية ذات قيمة تاريخية كمؤتمر القمة العربي السابع بالرباط سنة 1974، الذي أعلن فيه عن الإجماع العربي على اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني - وكقمة فاس سنة 1982 التي انبثق عنها مشروع السلام العربي لحل معضلة الشرق الأوسط.

☆ ☆ ☆

الوزن الدولي للمغرب الحسني، وزن بلد متميز من منظور الفكر النضالي والسياسي، وأيضا من زاوية الاختيارات والمفاهيم والمعايير المنضبطة بها علاقته بالآخرين، وصياغة أسلوبه في التعامل معهم واختطاط نهجه في خدمة القيم التي يعتنقها على الصعيد الدولي من منطلق إيمانه بالتفاهم وبالتعايش والتشارك والتكافل.

الوزن الدولي للمغرب عريق عراقة تاريخه وحضارته ومقوماته، وقد أغنت المسيرة الحسنية خلال ربع قرن - هذا الوزن بما طبعت به صورة المغرب - دوليا - كبلد ذي مصداقية متينة في نظرته إلى الأمور، وفي تصوراته، ومبادراته، وخطواته، وإنجازاته، كبلد مشبع - في سياسته الخارجية - بروح التفاهم والتعاون، مفعم بحوافز السلام والوئام.



قبل أن نؤرخ ليوم 9 يوليوز 1929، يوم ولادة أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني أمده الله بالعون والتوفيق، وقبل أن نؤرخ لعيد الشباب الذي صنعه وأسسه الملك الهمام محمد الخامس تكريما لفلذة كبده وولي عهده

يجب أن نقدم تاريخ جلوس جلالة الملك محمد الخامس على عرش أجداده الميامين 23 جمادى الأولى 1346 هـ الموافق 18 نوفمبر 1927.

في هذا اليوم بالذات تربع على عرش المغرب الملك الشهم الشاب **الطموح محمد الخامس طيب الله ضريحه**، ويعد هذا اليوم عند الوطنيين الأوائل أحرار الضمير، يوم ارتباط الوطنية بالعرش، والعرش بالوطنية، نعم انتقل لرضوان الله يوم الخميس 9 رمضان 1380 هـ الموافق لـ 25 يبراير 1961م، ودفن ليوم الجمعة 10 رمضان بضريح جده محمد بن عبد الله جوار القصر الملكي العامر بالرباط، وبعد أعوام نقل جثمانه الطاهر لضريحه برحاب صومعة حسان أسكنه الله جوار النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا.

لنرجع لتاريخ ولادة ولي العهد، صاحب الذكرى 9 يوليوز 1929 **يوم عيد الشباب.**

فيه عمت البشرى الشعب المغربي أجمع بمولود صاحب الجلالة مولاي الحسن حفظه الله.

تفاعل الوطنيون الأوائل الأحرار أن هذا المغرب ينتظر العزة والكرامة والاستقلال والحرية، في عهد الملك الصالح محمد الخامس طيب الله ضريحه، فتحققت الرغائب، والله كريم جواد.

وينتظرون التقدم والازدهار والوحدة الترابية في عهد الحسن الثاني أيده الله.

وهكذا نجد الملك محمدا الخامس يحتضن ابنه وفلذة كبده ووارث سره وولي عهده منذ ازدياده، لا يفارقه الا لماما.

إذا ما تتبعنا عناية صاحب الجلالة بمولوده السعيد نشاهد البشرى والابتسامة لا تفارق جلالته، نشاهد مجلسه الدائم يزدهر ويعبق رائحة طيبة، فيحتضنه وباستمرار ويسهر على تربيته وتكوينه علميا ودينيا وخلقيا وجمانيا.

وعلى ما أذكر ان لم تخنني الذاكرة، في سنه 1933م والأمير في سنه الخامسة، تشرفنا **نحن جمعية المحافظة على القرآن الكريم** من مدينتي سلا والرباط بالحضور إلى القصر الملكي العامر، بدعوة كريمة من جلالة الملك محمد الخامس بواسطة باشا مدينة سلا العامة الحاج محمد الصبيحي رحمه الله، حضرنا إلى القصر في وقت معين تحت رئاسة **الفقيه العدل الخطيب نيابة عن والده** ج محمد بن علي **عواد**، ولدى وصولنا للقصر وجدنا جمعية المحافظة على القرآن بالرباط تحت الرئاسة الشرفية لإمام المسجد الأعظم الفقيه سيدي **محمد بن الغازي**

رحمه الله، أصبحنا جميعا نتساءل عن القصد من الدعوة ؟ لقد استقبلنا باحترام وإكبار وأدخلنا لدويرة مزدهرة داخل القصر الملكي تؤذن بالحدث الجلل، ذلك هو عزم ملك البلاد على إدخال ولي العهد **للكتاب القرآني** واختاره للقيام بهذه المنقبة العظيمة التربية الإسلامية حفاظا على عرش المغرب المسلم، اختار العلامة الصالح أحد أركان كلية القرويين بفاس **صاحب الفضيلة سيدي محمد أقصبي رحمه الله.** أمرنا بالجلوس في الحلقة لتلاوة كتاب الله لنختم عدة سلك نختتمها بالقراءة الجماعية للخمسة الأحزاب الأخيرة. وكنت بجوار الفقيه العابد الذاكر حاجب صاحب الجلالة سيدي **الحسن بن يعيش رحمه الله،** آخذا بيده الطفل المبارك الميمون مولاي الحسن، شرعنا نحن في تلاوة آيات كتاب الله العزيز ويجلس أمامنا على كرسي «محمد الخامس» يستمع إلينا تارة ويقرأ معنا أخرى ودموعه تتساقط ! والطيب يعبق وملائكة الرحمان تحيط بنا، مصداقا للحديث الشريف الوارد في الموضوع، «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله... إلى آخر الحديث»، نعم إنني استمع نجوى الرجل الصالح بن يعيش من جلوسنا في الحلقة حوالي الثامنة مساء إلى الثانية عشرة.

والذكر الذي يلهج به، والدعاء الذي يصدر منه ويداه الكريمتان تمران باستمرار على جسد الطفل المبارك الميمون. داعيا وخاشعا : **اللهم اجعله من حملة القرآن،** من المحافظين على القرآن من **العاملين بالقرآن من.... الخ.** لا يفتر لحظة واحدة، ولا تصدر منه أية كلمة عدا هذا الدعاء الكريم، وسيدنا المنصور بالله، تارة يقرأ وتارة يدعو حتى اختتمت الحفلة بسلام.

عقب ذلك اشتغلنا بالأناشيد الوطنية والأغاريد القومية بين يد صاحب الجلالة وهو مسرور ومبتهج يدعو الله لولده ووارث سره بجميع أنواع الهداية والرشاء والتوفيق لأقوم طريق.

أكرمنا جلالته وعظمنا وصافحنا وطلب منا صالح الدعوات لخلفه وولي عهده وثمرة غرسه.

وتمر الأيام بسرعة ويبلغنا استدعاء ضمني للحضور في حفلات التبريك **باسم الشباب السلوي** في أحد الأعياد ويقع الاختيار على شابين يرأسان جمعيتين الأولى : المحافظة على القرآن والثانية النادي الأدبي، فيحضران للقصر على خلاف العادة ! ويتساءل الباشا السلاوي عن الذي استدعاهم ؟

ويأتي دور باشا مدينة سلا فيقول رئيس المشور باشا سلا نعم يا سيدي : ويقدمه مع الأعيان دون مشاركة الشابين ! ولدى قراءة الفاتحة يسمح للباشا بالخروج مع الأعيان، ثم ينادي رئيس التشريفات **شباب سلا، نعم ياسيدي،** فيدخل الشابان ويتأخر معهم سعادة الباشا، ويذهبان توا إلى مصافحة جلالة الملك على خلاف ما اعتاده الباشا والأعيان ؟

ويقوم الأول بإلقاء كلمة **التبريك باسم المحافظين على القرآن،** ويقوم الثاني بالتحية والتبريك **باسم النادي الأدبي السلاوي.**

يترنح صاحب الجلالة ويتزحزح من مقعده، ويخاطب الشباب، ويحيي فيهم روح التضحية والوطنية وصدق المحبة للعرش والبلاد ويخاطب الباشا بقول جلالته، أوصيك **أيها الباشا بالشباب خيرا،** لأنه أهل لكل فضل وخير.

ويسلم الجميع وتنطلق الأسئلة ما هذا الحدث الجلل ؟

جلالة الملك يقدر الشباب ويخطب عليه ويوصي به خيرا، فيفور شباب سلا بهذه المنقبة.

يبلغ الخبر لشباب الرباط الذي لم يحضر في هذا الحفل الحافل ويسمع ما جرى لشباب سلا من اعتزاز وتكريم، فتتحرك على بركة الله. واسجل الخير لأهله أن المحرك الحقيقي للجماعة القرآنية بالرباط هما الشعبيان الأخوان العزيزان **«الخليل بناني، ومحمد كراكشو»** يبحثان عن مصحف كريم بخط جميل في ملكية شخصية محترمة ويتخذان إجراءات مدهشة، ويتطوع صاحب المصحف فيهبه لهم فيتخذ له غلافا فاخرا، ويذهب

المكلفان لباشا الرباط الأكرم **الحاج عبد الرحمان بركاش** كي يستأذن جلالة الملك في زيارة المحافظين على القرآن الرباطيين لجلالة الملك قبل صلاة الجمعة.

يتلكأ الباشا أول الأمر !، لم يجد بدا من الاستجابة فيقدم الطلب فيجاب بالرضا والقبول، **فيغتنمها شباب المحافظة على القرآن بالرباط ويسجل العريضة** الممتعة يشرح فيها العوائق التي أصبحت تقف في وجه الكتاتيب القرآنية خاصة في **المناطق البربرية**، ويشرح ما يكاد من حيل ومكر لإبعاد الشباب المغربي وخاصة الشباب من الأسرة البربرية عن الديانة الإسلامية ؟ والعمود الفقري لديننا الحنيف هو القرآن وتبقى **هذه العريضة من الأسرار**، تحضر الجمعة ويقترب وقت الصلاة ويحضر وفد الرباط للقصر على رأسه الفقيه العالم إمام المسجد سيدي محمد بن الغازي، يستقبلهم صاحب الجلالة بالبشر والترحاب فيقدمان لجلالته المصحف الكريم والعريضة التي سجلت الأحداث ! فيأمر جلالته بإحضار صاحب السمو **مولاي الحسن ليتقبل الهدية الثمينة** المصحف القرآني الهدية التكريمية، فيحضر الأمير ويتقبل الهدية بابتهاج ويشكر القائمين بها، وينطق صاحب الجلالة لهذا الوفد الكريم بأن جلالته سيبذل قصارى جهده بالقضية الإسلامية الكبرى، **قضية الاعتناء بالكتاتيب القرآنية** ودفع الشر عن أصحابها ومساعدتهم والوقوف في وجه كل من يعتدي عليهم وتنتهي الزيارة بسلام.

ثم يأتي دور هام من هذا الشكل، ذلك أن الجمعية الرياضية الرباطية السلاوية تأسست سنة 1932م وانبثق عنها فريق الكشاف المغربي تحت رئاسة وإدارة الأستاذين أحمد بن غبريط رئيس والأستاذ السيتل العيساوي رئيس الفرقة، وتحصل الاتصالات المباشرة والغير مباشرة، وتطلب الجمعية من الجلالة أن يضفي عليها اسم ولي العهد الكريم «الكشفية الحسنية» فيستحسن جلالته الفكرة، وتأخذ الفرقة طريقها للحصول على الإذن الشرعي الرسمي لجميعتهم **الكشفية الحسنية**، فيتقبل الملك الفكرة ويرتضيها ويأذن بتنفيذها.

يغتنم فريق الكشافة حضور جلالة الملك وبجانبه ولي العهد من فرنسا في زيارة رسمية، ويحضر اليوم المعين للاستقبال خارج باب زعير، فيقف باشا الرباط والأعيان بجانبه، وباشا سلا والأعيان بجانبه، ثم تأخذ الكشافة مكانها بعدهم الأمر الذي لم يسبق له نظير والذي لا خبر عن هذا الاستقبال عند الباشوات ولا السلطات العامة والخاصة، رغم ما لها من أنصار وجواسيس ومقربين ! لا خبر عند الجميع.

الأمر بين الشباب وصاحب الجلالة، حضر فريق الكشافة **بزيهم الرسمي وعدد أفرادهم يبلغ نحو** العشرين يحملون العلم المغربي وباقة زهرية، ويلتف حولهم الشباب الرباطي والسلاوي، المنظر بهيج ومدهش والسلطات الاستعمارية في قلق وضجر ! المراقبون والجواسيس الكل مندهش من هذه المغامرة. كيف تمت الاتصالات بين العرش والشعب ؟ يبحثون كيف وأين ؟ فلا يجدون جوابا ! فيتخذون شعارهم في التدليس وحبك المؤامرة بسرعة ويلعبون أدوارا بهلوانية، يوجهون رسولا في غيبة عن جلالة الملك في طريقه، وتعطى أوامر **لسائق سيارة صاحب السموان** يبادر ويلتحق بالقصر حالا ! فيستجيب السائق ويسرع بالدخول دون أن يشعر بالمؤامرة، ويتقدم البوليس الرسمي والسري لمحاصرة الفرقة الكشفية وإبعادها عن مكان الاستقبال الرسمي !

يحضر جلالة الملك ويتقدم باشا الرباط وسلا والأعيان ينتهي العرض، وفي هذه الدقيقة الفاصلة يهتف شباب العدوتين يحيى جلالة الملك، كأن هذه الكلمة كانت رعدا قاصفا ويردفها بقوله يحيى ولي العهد مولاي الحسن، فيضطرب البوليس والحكام ويندهش الكل ! ويلتفت صاحب الجلالة متسائلا عن ولي العهد ليتقبل الباقة الزهرية التي شاهدها بين الكشاف فيخبر جلالة الملك بأن سمو ولي العهد سبق للقصر ! فيتفطن جلالة **الملك للمناورة المكشوفة**.

يمر هذا الحدث بسلام، ويأخذ الشباب المحيط بالفرق الكشفية والباقة الزهرية والعلم المغربي **طريقه في شبه مظاهرة صامتة** إلى مركز الكشاف بإحدى أحياء

المدينة القديمة، والكل في قلق وتعب وشدة «والغالب الله».

وفي باب نادي الكشفية يخطب أحد الشباب ويطالب الحاضرين بتبرع بسيط لشراء إطار من الزجاج توضع فيه الباقة الزهرية احتجاجا على تصرفات المستعمرين وعملهم الشنيع، وينهي الحفل بسلام.

يستغلها صاحب الجلالة محمد الخامس مناسبة فريدة، ذلك أن حفلا دينيا سيقام يوم الجمعة لتدشين تجديد مسجد السنة بعد إصلاحه وفتحه في وجه المؤمنين، بعد أن صدرت ضده تدابير خسيسة تؤذن بالقضاء عليه في سرية !

يبلغ الخبر لصاحب الجلالة ويتخذ الإجراءات المناسبة، رغم أنف الخصوم، ويؤذن لنا بالحضور تحن شباب العدوتين وفريق **الكشافة، يحضر الكل بباب المسجد** وجماهير العدوتين مبتهجة والنساء يزغردن، وشباب المغرب في نشوة الانتصار، والقيمون على الحفل بالمسجد يرأسهم الرجل الملم السيد العالم بناني رحمه الله الذي أضفى على هذا المسجد منظرا خلابا، فرش بالزرابي والطيب في كل جوانبه يعبق والتنظيم بديع ومدهش.

يحضر جلالة الملك محمد الخامس في روعة، الموسيقى والأعلام والجيش والمخازنية والهيآت الرسمية، الكل مصطف يحضر جلالته ويدخل من الباب العادي وسط جمهور الشعب، ويقوم العلامة المصلح **الشاعر الوطني الشهم الحاج محمد اليمني الناصري** ويفتتح الحفلة باستقبال صاحب الجلالة يقول الله العظيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا....**﴾ الخ صدق الله العظيم، يرتفع صوت المؤمنين حامدين شاكرين الله على ما هدى إليه، ويخطب الخطيب فيعظ وينذر وتنتهي الصلاة ونخرج من باب المسجد، فيؤذن لنا سريا أن لا نتحرك حتى نخرج عن **باب تواركة (باب السفراء)** حينئذ ارتفعت أصوات الشباب والشيوخ والأطفال وحمي الوطيس وحللنا نحن الشباب محل الحرس الملكي حيث أحطنا **بغرس صاحب الجلالة في هيام** وحيرة وبكاء وفرح وزغردة وأناشيد وأغاريد، عرس وطني أقامه جلالة الملك هذه الساعة، امتزج الشعب بالعرش سرنا خطوات حتى بلغنا القصر الملكي العامر، وأذن لنا بالدخول، وما هي إلا فترة قصيرة يغيب فيها جلالته، ها هو يتخلى عن البروتكول ورمى به، وحمل بين يديه ولده **البار صاحب الذكرى الحسن الثاني** والعبرات تتساقط، والزفرات تتوالى، والدعوات تتجه إلى الله بحياة صاحب الجلالة ووارث سره، صاحب ذكرى عيد الشباب.

اختتمت الحفلة بصالح الدعوات لسيدنا المنصور بالله بالتوفيق والرشاد ولولي عهد بالنجاح والتأييد والنهج السديد.

هذه أوصاف لبعض المعارك المتوالية بين الوطنيين المعتزين بالقرآن وعرشهم المفدى حارس القرآن، وبين المستعمرين وأذنابهم من جهة أخرى والله غالب على أمره.



ذكرى عيد الشباب في عام الخير

للأستاذ محمد قشتيليو

تحل هذه السنة ذكرى عيد الشباب مقترنة بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة على عرش أسلافه الكرام، ويعد بحق هذا العام عام خير على الأمة المغربية بكل ما في الكلمة من معنى، فقد أنعم الله عليها بالمطر الغزير الذي هو مصدر الخير الكثير، وأنعم عليها بالانتصارات المتتالية في الميدان الرياضي الذي رفع رأس المغرب عاليا بين الدول المتقدمة والنامية على السواء، وكل هذا من فضل الله على هذه الأمة التي جعل الله مقاليد أمورها في يد أمينة تسهر على مصالحها، إنه العاهل الكريم الذي يعطي من وقته الكثير للسهر على مصالح أمته، ونحن نرى بالعين المجردة ونلمس باليد المحسوسة، ثمرة جهاده فهو لا يفتأ يدعو إلى حفز الهمم للعمل المجدي، والتمسك بحبل الله المتين وخاصة دعاؤه وتشجيعه للجيل الصاعد من الشباب الذي يعد عمدة المستقبل، إن جلالته يعرف ويدرك ما للشباب من دور خطير في كل أمر، إنهم حملة التقدم، وبناة المستقبل الأفضل إذا وجهوا توجيها مجديا، فكل من يريد لبلاده التقدم يتحتم عليه الاعتماد على الشباب، ومما لا ينكر أن دور الشباب في تاريخ الإسلام كان في منتهى الأهمية، وقد لعب الشباب في عهد الرسول عليه السلام أفضل دور، فقد كان الرسول يعتمد عليهم ويثق بهم، ووكلت لهم مهمات خطيرة جدا، ويطول بنا المقام إذا نحن أردنا سردها وهي كثيرة، فنكتفي بواحدة منها كمثال على ذلك وهي مهمة أسندها الرسول ﷺ في آخر حياته لشاب لم يتجاوز عمره السبع عشرة سنة ونعني به الصحابي الجليل «أسامة» الذي أسند له الرسول عليه السلام إمارة الجيش الذي عرف في تاريخ الإسلام بجيش أسامة الذي بعثه أبو بكر بعد تولي الخلافة لقتال المرتدين.

لذا يدرك صاحب الجلالة هذه الأشياء وهو الرائد الذي ينهج على منوال جده المصطفى عليه الصلاة والسلام في كل أعماله، لهذا فمنذ نعومة أظفاره وهو حفظه الله يهتم بشؤون الشباب ويخطب فيهم في كل مناسبة ويوجههم إلى الطريق القويم، ونذكر من بين هذه المناسبات وهو مازال في عنفوان شبابه عند ما خاطب الشباب سنة 1952 موجها إليهم نداء سياسيا قال فيه : «قد يصعب علينا معشر شباب المغرب الادعاء بأننا جد يرون بكل إطراء وثناء، فكل ما نأمله في هذا الطور هو التشجيع والاعتناء، وعلى من حنكتهم تجارب الأيام أن يأخذوا بيد شبيبتها إلى الأمام، فيدلوها على أقوم السبل لتسلكها وينبهوها إلى المهاوي لتجتنبها، عليهم أن يرشدوا هذا الجيل الجديد إلى رسالة الشباب المقدسة...».

ثم يضيف قائلا : «إن المغرب أصدقائي، لا يزال ينتظر منكم شتى الجهود، إن المستقبل يتطلب منكم أن لا تركنوا للجمود والركود».

ثم قال : «إن التاريخ وهو الحكم العادل سيقول كلمته فيكم، فإما ثناء على إخلاصكم وصدقكم، وإما لوم على تهاونكم وتفريطكم».

ثم زاد حفظه الله قائلا : «فإذا لم يكن بإمكاننا اليوم أن نزاحم أبناء الشعوب الأخرى في ميادين الإنتاج المادي فإنه بإمكاننا أن ندلو بدلونا ونزاحمهم في ميادين الفكر والثقافة والأدب والفلسفة».

وهكذا نراه في كل مناسبة من المناسبات يخاطب الشباب فيما يعود عليه بالنفع العميم أيام طغيان وجبروت الاستعمار ليبث فيه روح الكفاح والنضال ويهيئه للمستقبل الذي ينتظره، ولا ننسى تلك الأيام الحالكة التي كان لا يسمع فيها للمغرب صوت في الخارج إلا ما يقوله الاستعمار عنه من أكاذيب وأراجيف، وإذا بقائد الشباب في رحلة مع والده المكرم إلى طنجة يطلقها صرخة مدوية في ثغر البوغاز بحضور الدبلوماسيين الأجانب، وفي وسط تجمع شباب المغرب في شماله، حيث سمعوا وأسمعهم أمير الشباب ما يريد المغرب وملك المغرب لشعبه من حرية واستقلال وكرامة كباقي الشعوب المحبة للتعاون والسلام، وتركت توجيهات قائد الشباب في نفوس الشباب روحا وثابة فلم تمض إلا سنوات وجيزة حتى أعطت ثمارها المرجوة بالنهضة المباركة التي تحمل أعباءها الشباب في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال بقيادة جلالة محمد الخامس وولي عهده المحبوب، وتابع الأمير الشاب توجيهاته للشباب قبل الاستقلال وأثناء المفاوضات من أجل الاستقلال ومازلت أتذكر بعضا منها - والذكرى تنفع المومنين - يوم قدم جلالته رفقة والده المنعم وحكومته الموقرة إلى مدريد للتفاوض مع إسبانيا من أجل استقلال شمال المغرب ووحدته، وكنت من ضمن الطلبة الجامعيين فخطب حفظه الله في حفلة التكريم التي أقامها له الطلبة والجالية المغربية بمدريد، وقد ارتسمت في أذهاننا، وطبعت في قلوبنا تلك الذكرى العزيزة، فقد قام قائد الشباب في ذلك الحفل خطيبا في الجموع بحضور جماهير غفيرة من المغاربة والأسبان والأجانب، فما أن انتهى الأمير الشاب من خطابه، حتى اهتزت القاعة من التصفيقات الحارة، وكان الحضور قد أخذوا من بلاغة وفصاحة هذا الشاب العظيم، والجميع يريد أن يتشرف بمصافحته من الأسبان والأجانب، ويهنئون المغاربة ويطمئنونهم على مستقبل المغرب الذي أنجب هذا القائد، فزاد ذلك من اعتزازنا وافتخارنا وعشنا أسعد الأيام في حياتنا بعد، وقد تغيرت نظرة الأجانب نحو المغرب والمغاربة عند ما سمعوا ولمسوا بأنفسهم الحقائق التي تبرهن على عظمة المغرب من خلال أميره.

وها نحن نرى الآن ما يبذله عاهلنا من الجهود المتزايدة والكثيرة لصالح الشباب في جميع الميادين، ففي ميدان الرياضة نجده يبذل أقصى الجهود للدفع بشبابنا إلى الأمام بتهييء جميع الإمكانات والوسائل والتشجيعات بجميع أنواعها حتى يحقق الهدف المنشود، فالمؤسسات الرياضية بجميع أشكالها وأنواعها متوفرة في المغرب، بل له فيها اليد الطولى والقدح المعلى بين الدول المتقدمة فمن ميادين لسباق الخيول تخف إليه فرسان العالم من أجل المساهمة في مسابقات دولية، وميادين لعبة الكولف التي أصبح المغرب من الدول الممتازة فيها دوليا يقصدها أصحابها للتباري فيها من جميع أنحاء المعمور فصار يضاهي أكبر دول العالم المتحضر في هذا الميدان، أما المسابقة في العدو فقد أصبح المغرب فيها مضرب الأمثال وقد أحرز على ميداليات ذهبية في المباريات الدولية رفع بها رأس العالم الثالث بأكمله.

أما كرة القدم فحدث عنها ولا حرج إذ أصبح المغرب فيها عالي الرأس بما حققه من انتصارات باهظة بل رفع رأس غيره من قارات العالم الثالث الذي أصبح يزهو ويفتخر بفوز المغرب الذي ينتمي إليه.

أما اهتمام جلالة الملك بالشباب في الميدان الثقافي بصفة عامة وميدان العلم بصفة خاصة فهو شغله الشاغل فقد رأى بثاقب نظره ما يعانيه الشاب فهيأ له أسبابا تنقذه من الضياع بإنشاء مدارس لتكوين شباب متخصص في

الدراسات المهنية تؤهل الشاب لمستقبل شريف وينقذه من الضياع والانهيار المعنوي والمادي معا فيصبح صالحا لو لوج جميع ميادين الحياة سواء كانت على الصعيد الرسمي أو الخاص، فبهذا يصبح الشاب صالحا للمجتمع ولنفسه، كما فكر ـ حفظه الله ـ في التكوين الروحي والديني للشباب بل جعله أيضا من الدعاة ومن العاملين في حقل الدعوة الإسلامية إذ يشير في خطابه الموجه إلى الأمة الإسلامية بشأن الشباب بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري إذ يقول : «...وان تعيد للتربية الدينية والخلقية ما كان لها من الاعتبار والأهمية في تنشئة الأجيال وأن تجعل من الأم المسلمة أما مثالية تعتز بأن تكون هي المربية الأولى للناشئة والأطفال فداء لدينها وإخلاصا لوطنها وأن تجعل من المدرسة والكلية والجامعة إلى جانب المسجد الملتقى المفضل والدائم للعلم وللإيمان...».

وقال جلالته أيضا في هذا الصدد في خطابه العام أمام المجلس الأعلى والمجالس العلمية الإقليمية بالمملكة في العاشر من رمضان عام 1401 «إن شبابنا يشتكي من الجوع الفكري ويشتكي من الفقر بالنسبة لدينه وحضارته وأخلاقه وفضائله».

وزاد قائلا : «إننا نريد المزيد من العلم ونريد المزيد من جعل العلم والسنة النبوية وتفسير القرآن الكريم كل هذا يساير العصر بل يساير الشره والنهم الذي يشكو منه الشباب المغربي بكيفية خاصة والشباب الإسلامي بكيفية عامة، فعلا شبابنا يشتكي من الجوع الفكري يشتكي من الفقر بالنسبة لدينه وحضارته وأخلاقه وفضائله، يشكو من العوز لأن النبي ﷺ قال : «الدين المعاملة».

إن جلالة الحسن الثاني لا يترك فرصة تمر أو مناسبة تحل إلا ويتذكر فيها الشباب ويذكره في خطبه ويكثر من التوجيهات للحاضرين والمسئولين في شأنه حتى يكونوا على بينة من أمره ومن مستقبله الذي هو مستقبل البلاد وضمان استقرارها وسعادتها والنهوض بها، وهكذا نراه يوجه نصائح وإرشادات بشأن الشباب في خطابه الموجه إلى المجلس الأعلى العلمي ويقترح توجيه الشباب للدعوة الإسلامية في أقطار المعمور إذ يقول : ...أنا أريد أن اقترح عليكم مرحلة تسبق المرحلة العليا وهو أن توجد في أقرب وقت ممكن من أولئك الذين لهم الباكالوريا العربية ولا يدركون ولا يتحكمون في لغة أجنبية أن نعطيهم الدليل بالوسائل المرئية السمعية اليوم في ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر أما الإنجليزية أو الفرنسية أولئك هم الذين سيكونون دعاة الإسلام في المدارس الابتدائية في بنغلاديش في الباكستان في الصومال في جيبوتي في جزر القمر في غينيا في السنغال في جميع الدول الإسلامية التي لا تتكلم العربية وهذا أسهل لأننا عندنا وفي كبير من الشباب الحاصلين على الباكالوريا بالعربية ولكن وقفوا هنا فلو أمكن أنه اقليميا أو جهويا أن تكونهم في ظرف ثلاثة أشهر ويمكنهم أن يتكونوا في ثلاثة أشهر إما بالإنجليزية ويذهبون إلى الدول الإسلامية المتكلمة بالإنجليزية وهم في حاجة إلى ذلك أو بالفرنسية ليذهبوا إلى الدول المتكلمة بالفرنسية».

كما لا ننسى أن جلالته أعطى تعليماته في شهر رمضان الأخير (1406) لوزير التربية بإنشاء كرسي في كليات الجامعات المغربية خاص بالإسهام المغربي في بالحضارة الإفريقية وما كان له من دور في بث الدعوة الإسلامية وما أسداه في هذا الميدان الروحي من خدمات للإنسانية في تلك القارة، ويريد بهذا جلالته أن يحيط الطالب الشاب علما بكل ما لوطنه وأمته من ميزة وما أسداه من خير ببث الإشعاع الروحي بين بني الإنسان، وبالتالي يعلم الشباب ما كان لأمثاله أيضا من دور في الكفاح من أجل الدعوة الإسلامية في عهد الرسول عليه السلام وعهد الصحابة والخلفاء ومن تبعهم، وقد ذكرنا مثالا على هذا آنفا بإسناد الرسول عليه السلام مهمة خطيرة لأسامة وهو لم يتجاوز بعد السابعة عشرة من عمره، وحذا الصحابة حذوه أيضا فكان عمر بن الخطاب يوصي ويقول : «علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم أن يثبوا على الخيل وثبا».

وكثيرا ما ذكر لنا القرآن الكريم ما قام به الشباب في سبيل الدعوة إلى وحدانية الله تعالى كقوله تعالى : ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾. وقال يحكي عن سيدنا إبراهيم وهو ما يزال شابا : ﴿**قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم**﴾. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة التي تحض على الاعتناء بالشباب والأخذ بيده، لذا نرى العاهل الكريم يهتم وهو المسلم القوي الإيمان بربه والذي يسير في كل حركاته وسكناته على سنة جده الأعظم المصطفى عليه الصلاة والسلام يكرس جهوده وحياته ووقته كله لصالح الشباب والتفكير في مستقبله، ومن استمسك بالعروة الوثقى، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

من توجيهات جلالة الملك الحسن الثاني

لقد أكرمنا الله بدين متين الأساس راسخ البنيان صالح لكل زمان ومكان ما من شعيرة من شعائره ولا شريعة من شرائعه الا وهي مؤسسة على تقوى من الله ورضوان فهو دين يقرر «كرامة الإنسان» ولا يرضى له بالتعرض للذل والهوان وهو دين العلم والحرية.

ملامح من مساهمة شباب الصّحابة

للأستاذ المصطفى صغيري

الشباب عدة الحاضر، وأمل المستقبل، هو الدرع الواقي للأمة، ورأس الحربة في المنعطفات التاريخية الدقيقة، والطاقة المتوثبة التي تتفجر نشاطاً وحيوية، في حاجة إلى توجيه سليم، ورعاية متبصرة، وحكمة الشيوخ وحنكتهم.

والمغرب وطننا العزيز يتوفر على نسبة عالية من الشباب، وخير ما يرشد الشباب ويوجه سلوكه الرسول الكريم محمد ﷺ مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم. فقد اهتم الرسول عليه السلام بالصحابة الشباب، واعتمد عليهم في المهمات الصعبة التي قام عليها بناء الدولة الإسلامية في مجالاتها المتعددة: في التنظيم، في التعليم، في السلم، في الجهاد، في ضروب الفداء والتضحية...

وسأكتفي بنماذج من هؤلاء الشباب الذين كرعوا من منهل المدرسة المحمدية التي جعلت شعارها الإيمان والعمل ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**﴾.[1]

عن جندب بن عبد الله قال : كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (أقوياء أشداء) فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً».[2]

في حياة الرسول عليه السلام نماذج فذة من الشباب آمنت في ريعان شبابها، وتحملت عبء الدعوة إلى الله والدفاع عنها. والأمثلة أكثر من أن تحصى، من ذلك : علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاصي وابنا عفراء : معاذ ومعوذ ومعاذ بن جبل، وكعب بن مالك، وأسامة بن زيد، رضوان الله عليهم.

من توجيهات الرسول عليه السلام للشباب قوله : «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه». رواه الترمذي[3] عن أنس بن مالك. والرسول أعلم الناس بنزق الشباب وطيشه، فلذلك وجه نظره إلى إكرام الضعيف السن كان قريباً أو بعيداً.

والصحابة الشباب دافعوا عن الإسلام في أحلك الظروف وأدقها وأعقدها، واسترخصوا أرواحهم وبذلوها فداء لإعلاء كلمة الله قبل الهجرة وبعدها.

من المواقف التي حفظها التاريخ للإمام علي كرم الله وجهه وهو شاب لما يتجاوز العشرين من عمره أن الرسول عليه السلام تركه على فراشه، عندما أذن له ربه بالهجرة إلى المدينة المنورة، تركه ليؤدي عنه الأمانات

---

1) الكهف 13.
2) سنن ابن ماجة 23/1.
3) عارضة الأحوذي 179/8.

التي كانت في بيت النبوة إلى أهلها. لم يتردد عليّ كرم الله وجهه لحظة في أداء هذه المهمة الفدائية التي كان يقدر مدى خطورتها، لكن الواجب يسمو فوق كل اعتبار، والرسول عليه السلام كان أعلم بأن علياً أفضل من يقوم بهذا الواجب، لأنه كان عليه السلام مطلعاً على ما يبيته المشركون من حشد شبابهم وترصدهم لبيته : **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..﴾**[4]

بعد الهجرة النبوية وفي أول صدام مسلح بين محمد عليه السلام وصحابته الكرام ضد المشركين الذين حشدوا كل طاقاتهم المادية والمعنوية، في معركة «بدر الكبرى» أبلى شباب الإسلام البلاء الحسن في الدفاع عن رايتهم ونفذوا أخطر العمليات العسكرية، بل الأمر لم يقتصر على الشباب بل تعداه إلى من دونهم من الغلمان.

في صحيح الإمام البخاري عن أنس قال : أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت يارسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فقال إنه في جنة الفردوس.[5]

في هذه المعركة حرض الرسول ﷺ على الجهاد ووضع لذلك مكافأة خاصة، هذا النداء ألهب مشاعر الشباب بالحماسة فقاموا بدور طلائعي في هذه المعركة بالذات.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ من صنع كذا وكذا، فله كذا وكذا فتسارع في ذلك شباب القوم، وبقي الشيوخ تحت الرايات». رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.[6]

ومن صور البطولة، والانضباط والتسارع إلى تنفيذ أمر القائد في بدر ما يحكيه عبد الرحمن بن عوف عن بطولة أخوين ابني عفراء رضي الله عنهم قال : إني لفي الصف يوم بدر، إذا التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل، فقلت : يا ابن أخي وما تصنع به ؟ قال عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله. قال - عبد الرحمن - فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء».[7]

وقد شهد أبناء عفراء بدرا وهم : معاذ ومعوذ، وعوف، استشهد منهم في بدر عوف - رضوان الله عليهم - بعدما سأل رسول الله ﷺ عما يضحك الرب من عبده ؟ فقال عليه السلام : غمسه يده في العدو حاسراً، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل[8].

بعد معركة بدر الكبرى تسابق الصحابة الشباب في عرضهم أنفسهم على رسول الله ﷺ للمساهمة في المجهود الحربي، وكان الرسول عليه السلام أرحم بهم من أنفسهم، فلم يقبل منهم صغار السن، والجيش الإسلامي يومئذ في حاجة إلى الصبيان.

ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انه قال : عرضت على النبي ﷺ عام أُحُد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني».

وشهد ابن عمر الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، ومما شهده فتح مكة وهو في ميعة الشباب فدخل جوف الكعبة على رسول الله ﷺ ومعه بلال وعثمان وأسامة (ض). قال ابن عمر : وكنت رجلا شابا قويا فبادرت الناس فبدرتهم».[9]

أي أنه كان من السابقين الذين دخلوا جوف الكعبة بعدما طهرها الرسول عليه السلام وجيشه المظفر من رجس الوثنية.

والشباب مسؤولية علينا أن ننمي رعايتها في شبابنا، مسؤولية دنيوية وأخروية. في جامع الترمذي عن ابن مسعود (ض) عن النبي ﷺ قال : «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره

4) الأنفال 30.
5) صحيح البخاري 98/4.
6) للاستئناس انظر تفسير ابن كثير 276/3.
7) صحيح البخاري 100/5.
8) السيرة النبوية لابن هشام 29/3.
9) مسند الإمام أحمد 15/6.

قيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»[10].

والشباب قد يشدد على نفسه ويسرف عليها لما له من تحمس وقناعة، وهذا التشدد قد يكون في الطاعات المطلوبة، ويتغافل عن سماحة الإسلام وفطرته، فالإسلام دين الوسط لا تزمت فيه ولا انحلال، والرسول عليه السلام رحيم بالمؤمنين، يخاف على أمته الملل الذي قد يؤدي إلى الإعراض والتخلي عن القيام بالواجبات «إن الله لا يمل حتى تملوا» كما جاء في الحديث الشريف.

عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه قال : «جمعت القرآن فقرأت به في كل ليلة، فبلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أخشى أن يطول عليك زمان تمل. اقرأه في كل شهر، قلت يارسول الله : دعني أستمتع من قوتي وشبابي. قال : اقرأه في كل عشرين، فقلت يارسول الله دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال : اقرأه في عشر، قلت يارسول الله دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال : اقرأه في كل سبع، قلت يارسول الله : دعني أستمتع من قوتي وشبابي، فأبى».[11]

كان الشباب من الصحابة - رضي الله عنهم - يؤمون مسجد رسول الله ﷺ قصد التعلم فيقيمون الأيام العديدة يتعلمون العلم والسلوك، وعندما يشعر الرسول الكريم أنهم في مستوى المسؤولية يأمرهم بالعودة إلى أهليهم قصد نشر الإسلام وتعاليمه وتولي موقع القيادة.

في صحيح مسلم عن مالك بن الحويرث قال : أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيما رقيقاً، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمن تركنا من أهلنا، فأخبرناه فقال : أرجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم»[12]

10) العارضة 253/9.
11) مسند أحمد 163/2.
12) صحيح مسلم 466/1.

وفي مسند الإمام أحمد :

«عن أنس بن مالك قال : كان شباب من الأنصار سبعين رجلا يقال لهم القراء، قال : كانوا يكونون في المسجد فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة، فيتدارسون ويصلون، يحسب أهلوهم أنهم في المسجد، ويحسب أهل المسجد أنهم في أهليهم، حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء، واحتطبوا من الحطب، فجاءوا به، فأسندوه إلى حجرة رسول الله ﷺ، فبعثهم النبي ﷺ جميعا فأصيبوا يوم بئر معونة فدعا النبي ﷺ على قتلتهم خمسة عشر يوماً في صلاة الغداة».[13]

ما كان يأنف شيوخ الصحابة الأجلاء أن يأخذوا علوم الشريعة عن الصحابة الشباب ويستفتوهم ويحتكموا إليهم.

في مسند الإمام أحمد عن أبي مسلم الخولاني قال : أتيت مسجد أهل دمشق، فإذا حلقته فيها كهول من أصحاب رسول الله ﷺ، وإذا شباب فيهم أكحل العين، براق الثنايا، كلما اختلفوا في شيء ردوه إلى الفتى، فتى شاب، قال : قلت لجليسي من هذا ؟ قال معاذ بن جبل...»[14].

وأكبر دليل على اهتمام الرسول الكريم بالشباب واعتماده عليهم في تسيير البلاد والدفاع عن المقدسات الإسلامية أنه أمر على آخر بعث له بعثه إلى فلسطين حبه وابن حبه أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أمّره على جيش كثيف فيه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعمر أسامة بن زيد إذذاك لم يتجاوز العشرين[15].

ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه، وإيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي،

13) مسند أحمد 235/3.
14) نفس المصدر 236/5.
15) السيرة لابن هشام 246/4.

وإن هـذا لمن أحب النـاس إلي» وزاد في روايـة مسلم : «وأوصيكم به فإنه من صالحيكم».[16]

وإنما طعنوا في إمارتـه ـ كما وجه ذلك الإمـام السهيلي رحمه الله ـ لأنه مولى مع حداثة سنه.[17]

وأنفذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ جيش أسـامة بالرغم من موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان يرى أن يولي أمر القيـادة إلى من هو أسن منه وأجلد، فأخذ أبو بكر بلحية عمر رضي الله عنه وقال له : يابن الخطاب : أتأمرني أن أكون أول حالّ عقداً عقده رسول الله ﷺ، والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إليّ أن أمالئكم على هذا الرأي»[18]

بهذا الحماس دافع أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قيـادة الشبـاب وثقتـه فيهم في تحمل المـسؤوليـات الكبرى. وذلك استمراراً لموقف الرسول الكريم منهم.

لهذه المعاني وكثير غيرها، وربطا للحاضر بالماضي وتطلعاً إلى المستقبل الباسم، نظر المغاربة لهذا القطـاع الحي من المجتمع، وخلدوه «بعيد الشباب»، اعترافاً منهم بما بذلـه الشباب من تضحيات جسام من أجل الدفـاع عن المقدسات الدينية والوطنية واقترن هذا العيد بميلاد أمير المؤمنين سبط النبوة جلالة الملك الحسن الثاني أمد الله في عمره، وأقر عينه بسمو ولي عهده المولى سيدي محمد وصنوه الرشيد المولى الرشيد وسائر الأمراء والأميرات، إنه مجيب الدعاء.



16) للاستئناس انظر تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي 114/1.
17) الروض الأنف للسهيلي 248/4.
18) المصدر السابق 272/4.

دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني

للأستاذ أحمد بوكاري

• مدخل :

الزاوية المغربية مؤسسة دينية وعلمية واجتماعية، تبلورت أنشطتها وخصوصياتها منذ القرن 8 هـ / 14م، ثم توسع نشاطها وتجذر داخل المجتمع المغربي مما جعلها تساهم في مختلف اهتماماته المادية والمعنوية بل والتعبير عنها بكل صدق وموضوعية، ولاشك أن من أهم تلك المهام وأنبلها ما قامت به الزاوية المغربية من تدعيم وترسيخ للثقافة الإسلامية الصحيحة والأصيلة، سواء تعلق الأمر بالمعتقدات أو الفقهيات أو التربية الصوفية، ذلك أنها في كل تلك المهام، ظلت تستمد أصولها ومنابعها من الكتاب والسنة والسلف الصالح.

انطلاقا من هاته الأهمية التي مثلتها الزاوية المغربية، كان لابد أن تجد اهتماما خاصا ومتزايدا من الباحثين والمهتمين بتاريخ الفكر الإسلامي ومؤسساته، وهذا ما ظهر فعلا من خلال كتابات المستشرقين ورواد المدرسة التاريخية الاستعمارية، فاعتبروا الزاوية المغربية مؤسسة دينية واجتماعية متكاملة، تتميز بالتجذر داخل المجتمع المغربي، وأن لها إمكانيات خارقة في التأطير والتعبئة، وأنه يجب المرور من خلالها لفهم خاصيات المجتمع المغربي وأسسه الحضارية هذا الفهم الذي تعتبره الايديولوجية الاستعمارية، خطوة رئيسية نحو سلب المجتمعات الخارجة عن إطار الحضارة الأوربية، كل مقوماتها الحضارية المادية والمعنوية.

من هذا المنظور، ستحاول هذه المداخلة، التعريف بالزاوية المغربية ومختلف أنشطتها، ودورها في تدعيم المذهب السني مذهب الجماعة والإجماع، واعتمادها القرآن الكريم والسنة النبوية منطلقا ومرجعا، سواء تعلق الأمر بالعبادات أو المعاملات، بيد أن الزاوية المغربية قبل كل شيء أحد إفرازات التصوف الإسلامي والتصوف السني بصفة خاصة.

• التصوف المغربي تصوف سني :

إن مصدر التصوف الإسلامي هو الكتاب والسنة، كما أكدت ذلك عدة دراسات في الموضوع، إلا أنه تأثر كباقي مناحي الحياة الفكرية والحضارية الإسلامية بعدة روافد ومؤثرات، وكان من نتائج ذلك ظهور عدة مدارس واتجاهات صوفية بعضها تأثر بمقولات كلامية وفلسفية، فظهر ما يشبه التعارض بين تصوف سني أكثر التزاما بالسنة، وتصوف فلسفي بلغ أحيانا درجة التطرف.

بيد أننا هنا سنركز على الجوانب التي لها ارتباط مباشر بالتصوف المغربي الذي جد تجاوب وغيرة المغاربة

على كل ما هو سني وتشبثهم وتعلقهم بأهدابه، وسنعتمد في ذلك على ما جاء به صاحب المرشد المعين في هذا الباب.

يقول عبد الواحد بن عاشر :

في عقد الاشعري وفقه مالك
وفي طريقه الجنيد السالك

فالطريقة الصوفية الشاذلية المتصلة بالامام أبي القاسم الجنيد من أسلم الطرق الصوفية وأقربها إلى السنة، ومن ثم كان اتساع انتشارها بالمغرب وتمثل شيوخ التصوف لقواعدها دون سواها، حتى إنها لتكاد تكون الطريقة الوحيدة في هذه البلاد إلى جانب المذهب المالكي في الفقهيات والمذهب الأشعري في المعتقدات.

يعتبر أبو القاسم الجنيد من كبار متصوفة القرن الثالث الهجري (توفي 277 هـ) ومن الاعلام الذين أغنوا الفكر والثقافة الصوفية السنية.

سئل الجنيد عن التصوف فقال :

«الخروج عن كل خلق رديىء، والدخول في كل خلق سني».

وقال أيضا :

«الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام».

يتصل سند الجنيد الصوفي بالإمام الحسن البصري أحد التابعين المتوفى عام 110 هـ، وهذا الأخير من كبار علماء السنة والجماعة، بالإضافة إلى كونه أحد المتصوفة الزهاد.

ويمثل العالم والفقيه والصوفي أبو الحسن الأشعري (توفي 330 هـ/942م) نقطة فصل، في تاريخ التصوف الإسلامي عامة، والتصوف السني بصفة خاصة، ذلك أن تحوله عن مذهب المعتزلة وإعلانه الخروج عنهم، أوجد في العالم الإسلامي مذهبا جديدا هو المذهب الاشعري، استخدم أدلة خصومه لينقض بها آراءهم وحججهم، مذهب يقوم على القرآن والسنة، ولا يهمل المعطيات العقلية والفلسفية للانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة فهو بذلك مذهب وسط يأخذ مادته من منابع الإسلام الصافية، ويعتمد المنهج والأسلوب الجدالي المعتزلي والفلسفي.

من أقواله :

«قولنا الذي نقول به، وعقيدتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه السلام، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون».

وقد انضم إلى المذهب الاشعري معظم المتصوفة، وبواسطته اكتسبوا الشرعية في المجتمع الإسلامي، وفي نظر الفقهاء والعلماء.

ونختم الحديث عن متصوفة أهل السنة، الذين كان لهم أبعد الأثر في تبلور التصوف بالمغرب، بذكر شخصية كان لها أثرها البعيد وحتى إلى وقت متأخر. وأعني به حجة الإسلام الإمام الغزالي، الذي عاش في القرن الخامس الهجري. في فترة تميزت باضطراب الأحوال والأفكار والقيم في العالم الإسلامي. وتأتي أهمية الغزالي من كونه أحد القلائل الذي وقفوا بشجاعة في وجه موجة الانحراف والتطرف والغلو، بعد أن استوعب مقومات ثقافة عصره، فكان رفضه واعتراضه من داخل هذه الثقافة وبواسطة هاته الثقافة. وفي نفس الوقت يطرح البديل السني البعيد عن الجمود والتقوقع، بديل ينطلق من فهم عميق لمختلف التيارات الفكرية المتفاعلة، إلى رسم حدود التعامل والاستفادة منها، دون تهافت أو استلاب.

جاء في رسالة الغزالي :

«إن النصح يؤخذ من معدن النبوة، فإن كان قد بلغك منه شيء، فأي حاجة لك في نصيحتي».

وذكر الغزالي عند المتصوفة المغاربة يكون مقرونا بذكر كتاب «الإحياء» الذي يعتبر تدوينا علميا ومعرفيا للتصوف الإسلامي السني.

ومما جاء في المتصوفة عند الغزالي.

«إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

بعد تعرفنا على منابع ومصادر التصوف المغربي السني سنحاول في القسم الثاني من هذا العرض، التعرف بإيجاز على مدى تمثل الزاوية المغربية لهذه الأسس علما وعملا، وهل هناك خصوصيات تميزت بها ؟ إلا أن ما يستحق التنبيه إليه لحينه، هو أن الزاوية المغربية لم تفصل بين رسالتها الدينية ومهمتها العلمية، بل جعلت من المهمتين معا صورة واحدة للإسلام الصحيح الذي لا يقبل التجزء أو الفصل بين الإيمان والعلم والعمل، بين سلوك الفرد الذي يجب ألا يفصل عن سلوك الجماعة، قدوتهم في ذلك سيرة الرسول ﷺ الذي قال فيه عز وجل ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ صدق الله العظيم.

- **وظائف الزاوية المغربية.**

تجسد الزاوية المغربية من خلال وظائفها المتعددة حقيقة الإسلام ورسالته الشاملة، التي لم تجعل فاصلا بين الاهتمامات الدنيوية والأخروية، بل أن الأولى فعلا مزرعة للأخرى.

فمثل رجل الزاوية داعية للإسلام ومفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، وفي نفس الوقت الوصي على مصالح المسلمين، والعامل على صيانتها والذود عنها. وعند الضرورة تقدم صفوف المسلمين للتضحية بالنفس والنفيس ضد الأخطار المحدقة.

وهذه المهام والوظائف سنحاول توضيحها بشكل مختصر، على أنني أحيل المهتمين بالموضوع لبعض الدراسات القليلة التي عالجت بتوسع موضوع الزاوية المغربية، والتي منها كتاب الزاوية الدلائية للأستاذ محمد حجي وكتاب الزاوية الشرقاوية الذي صدر في الفترة الأخيرة.

- **الزاوية مركز لنشر الإسلام والدعوة إليه.**

تحتفظ لنا المصادر التاريخية باسم «الرباط» كأحد المصطلحات الأولى التي حملتها الزاوية المغربية، وأبرز نموذج لها رباط عبد الله بن ياسين في قلب الصحراء المغربية والذي يمثل الخلية الأولى لتكوين الدولة المرابطية السنية. ونستشف مهمة هذا الرباط ودوره الجليل من خلال ما أقر به يحيى ابن ابراهيم الكدالي زعيم صنهاجة إلى شيخ القيروان وشيخ المالكية الفقيه أبي عمران الفاسي عندما سأله عن أحوال سكان بلده فأجاب :

«قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كبير علم. وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلا عن العلم. فلو رغبت في الثواب من الله تعالى لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن، ويدرس لهم العلم ويفقههم في الدين» (الاستقصا ج II ص : 6).

إنها الرسالة التي رافقت كل الرباطات التي عرفها المغرب، وما أكثرها، والتي حملت لواءها الزوايا المغربية فيما بعد، إلى جانب بقية مهامها والتي كان من ثمراتها نشر الإسلام في مختلف مناطق المغرب وتعهده وتجديد رسمه من وقت لآخر، وتجاوزت أنشطة الزوايا المغربية في هذا الميدان التراب الوطني في مناطق مختلفة من العالم، بل إن الزاوية المغربية منذ العصر المريني المتأخر وبعده أصبحت نموذجا لجامعة إسلامية جهوية تدرس فيها مختلف العلوم، ومنها يتخرج العديد من الفقهاء والعلماء الذين تنتدبهم الزاوية إلى القرى والأماكن النائية للقيام بمهمة الوعظ والإرشاد ونشر تعاليم الإسلام وتعليم القراءة والكتابة، وتعمير المساجد بقراءة القرآن وتفهيمه وشرح أحاديث الرسول والاهتداء بهديه والاقتداء بأخلاقه وسيرته، حتى إن الزوايا في وقت من الأوقات نافست المراكز العلمية التقليدية في كل من العاصمتين فاس، ومراكش، وشكلت علوم القرآن والحديث وكتب الأئمة الصحيحة الأساس العلمي والمنهجي لحلقات الدراسة والتعلم.

- **الزاوية مركز التربية الصوفية السنية.**

لقد غلب نشر الإسلام وتجديد معالمه على الحركة الدينية بالمغرب بسبب ظروف هذه البلاد الخاصة، باعتبارها بلد التخوم، فتحمل أبناؤها من علماء وفقهاء وصلحاء مهمة نشر الإسلام وتبليغ رسالته، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال جرد تاريخي سريع لتاريخ هذه البلاد، بدءا بالفاتحين ومرورا بالأدارسة والمرابطين وصولا إلى عهد الاشراف السعديين والعلويين. فلا غرو أن تمتزج التربية

الصوفية بهذه الخاصية وتتميز بها. ذلك أن العلم بالشريعة كان الأسبق على تفهم مقاصد علم الحقيقة، باعتباره التربة الخصبة التي يجب أن تبذر فيها بذور الإيمان والطهر الروحي.

يقول الفقيه والشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد الصالح شيخ الزاوية الشرقاوية على عهد السلطان مولاي اسماعيل العلوي، يقول في هذا المعنى ينصح تلامذته :

«وعليك بالعلم، فالعلم زينة الفقر وعماده وفراشه وغطاؤه ووساده، وفقر بلا علم فضيحة ومكر وخديعة. وهو ظلمة بلا سراج» (عن كتاب اليتيمة للعبدوني ص 35).

كما عرف هذا الشيخ التصوف بقوله :

«أعلم أن التصوف علم شريف لمن أكرمه الله بمعرفته، وحال منيف لمن تفضل الله عليه بكمال أوصافه وحسن سيرته، وليس هو كما يزعمون بلبس المرقعات والمشي حافيا في الطرقات، وتعرية الرأس وانزعاج النفس، وتقشف الثياب وتغير الحالات والشطح والرقص والتصفيق والتغاشي في الطرقات، بل التصوف كما قال أبو علي سيدي الحسن اليوسي : هو صفاء القلوب من الاكدار.

(الزاوية الشرقاوية : إشعاعها الديني والعلمي، ص 128 / 129).

ولذلك اهتمت التربية الصوفية بالزاوية المغربية أول ما اهتمت بترسيخ تعاليم ومثل الإسلام السمحة وأخلاق الرسول عليه السلام الكريمة، كما أن أذكار وأوراد الزاوية المغربية لم تخرج عن ترديد جملة من الآيات القرآنية الكريمة أو الاستغفار من الذنب والصلاة على الرسول الأكرم مع مراعاة مستوى المريد العلمي والمهني والتفريق بين المرأة والرجل. ويحق لنا أن نذكر بالمناسبة الشيخ أبا عبد الله محمد المعطي الشرقاوي شيخ الزاوية الشرقاوية زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي، والذي بلغت أذكاره وأوراده وأمداحه النبوية شأوا بعيدا كما هي مسلجة في أحزابه، وفي مؤلفاته العديدة المعروفة «بأسفار الذخيرة» والتي قال فيها أحد المشارقة بعد تصفحها ومطالعتها : «أنها من أعظم الكتب التي فاق بها المغاربة على غيرهم».

• الزاوية في خدمة المجتمع المسلم :

لقد مثل شيخ الزاوية المغربية نموذج الراعي المسؤول عن رعيته في مختلف شؤونها الدينية والدنيوية، خاصة في الفترات العصيبة مثل حالات تعطل جهاز الدولة أو ضعف نفوذها في المناطق النائية، وكذلك أيام الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية والروحية، ولا شك أن أبرز مثال بالنسبة للتاريخ المغربي يتمثل في أواخر دولة بني مرين خلال القرنين 8، 9 الهجري فانتصبت الزاوية المغربية محليا وجهويا كساهر على أمن السكان، وساهم في حل مشاكلهم اليومية كالتقاضي وحل المنازعات بين الأفراد والقبائل، وكمرجع لنشر أخلاق الإسلام وقواعده وتطبيق تشريعاته وفق الكتاب والسنة ومحاربة مختلف أنواع البدع ومظاهر الانحلال والانحراف ثم في حالة قصوى، وعلى المستوى الوطني وجدت نفسها مسؤولة عن حرمة دار الإسلام أمام خطر الهجوم الصليبي المسيحي، فتحولت الزاوية إلى مركز للتعبئة وتأطير المجاهدين والتقدم بهم نحو الثغور والسواحل المهددة أو المحتلة، فكان من نتائج ذلك إفشال مخططات الغزو والتسرب إلى داخل البلاد، وفي مستوى آخر هيأت للبلاد قيادة سياسية تنظم الجهاد وتترأسه، وسخرت الزاوية آنذاك كل إمكانياتها المادية والمعنوية لتحقيق الوحدة الداخلية وإتمام تحرير التراب وطرد المحتل. وهذا ينسجم مع شعار الزاوية المغربية القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الزاوية من خلال مختلف ممارساتها المتشعبة والتي تعتبر بحق متكاملة ومنسجمة مع الرسالة الإسلامية ونموذجها الخالد الرسول عليه الصلاة والسلام، قد وجدت من ملوك الدولة السعدية والعلوية كل توقير واحترام، فأضفوا عليها كل مظاهر الإنعام مساعدة لها على القيام بمهامها، وأبرز مثال على ذلك، الزاوية الناصرية بدرعة والزاوية الشرقاوية بتادلا والزاوية التجانية زمن السلطان مولاي سليمان والتي وجد شيخها من السلطان المذكور كل مساعدة بعد إخراجه من الجزائر التركية.

إن ما تم تسطيره آنفا لا يعدو أن يكون مجرد رؤوس أقلام، لموضوع في اتساعه وشموله ينسحب على مجمل التاريخ المغربي، وأنه بالفعل لا يمكن فهم خصوصيات هذا التاريخ دون المرور عبر الحضور الفعلي لهاته المؤسسات في كل أحداثه وتفاعلاته وعطاءاته ولذلك سنختم هذا العرض ببعض الملاحظات الآتية :

- حددنا كموضوع لهذه المداخلة دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني، وهذا فعلا ما تم تسجيله من خلال المواقف الآتية :

- التشبث بمبادىء الإسلام وأسسه المثلى والصحيحة التي تقوم على الكتاب والسنة والسلف الصالح.

- اعتبار الزاوية أو الرباطات خلايا لنشر الإسلام والدفاع عنه، مما يجعلنا نقر هنا، أن انتشار الإسلام وتدعيمه في هذه الديار كان فعلا من مهام هاته المراكز الأساسية، فلا غرو إن كان انطلاق معظم السلالات الحاكمة من هاته الرباطات أو الزوايا.

- الإسهام في نشر الثقافة الإسلامية، بانسجام تام مع رسالة المساجد والجوامع الكبرى في العواصم، فكان لها فضل إشاعتها في مختلف المناطق الدانية والنائية في داخل البلاد وخارجها، وبذلك دعمت الزاوية وحدة المغرب الثقافية والمذهبية وساهمت في توسيع الرقعة الجغرافية لدار الإسلام.

- إن موقع المغرب الجغرافي بالنسبة لمراكز الحضارة الإسلامية من جهة، وموقعه على التخوم المجاورة للدول المسيحية من جهة أخرى جعلت منه حارسا ومسؤولا عن الدفاع عن هاته الحضارة التي تحمل شعار القرآن والسنة، فكانت الزاوية الرديف المساعد لأولي الأمر، والمستنهض للهمم، بحيث أنه يصعب قراءة تاريخ المغرب الإسلامي دون استحضار دوره الجهادي، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو المذهب السني وبذل النفس من أجل ذلك...

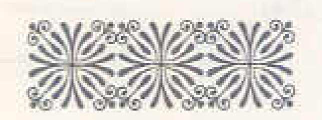
- إن الزاوية من خلال مختلف أنشطتها، مثلت خلية حية نشطت عبر مختلف أطوار التاريخ في لحم عناصر المجتمع وجمع شتاته، حول قيمه ومثله وحول قياداته السياسية والدينية، ولم تكن عنصر تفتيت كما زعمت الكتابات الأجنبية.

- إن تمثل الزاوية المغربية للمذهب السني، لم يكن أكثر من انعكاس لتطلعات وغيرة الشعب المغربي على دينه ووحدته وحضارته وأرضه ومقدساته التي لم يبغ عنها بديلا، ولذلك اعتبرت الزاوية المغربية والتصوف المغربي في سنيته والتزامه وطابعه العملي البعيد عن التفلسف، انعكاسا صريحا لهذا المجتمع واستجابة حتمية لخصوصياته.

- ولا شك أن الدراسات المقبلة حول هذا الموضوع ستزيد من تعميق هذه الملاحظات وإغنائها وتطعيمها، حتى نحقق ما يمكن تسميته بالتصالح مع تاريخنا وثقافتنا التي أجهد المستعمر نفسه في تشويهها وتكثيف الضباب حولها، وما الندوات والأبحاث الحالية إلا صورة صادقة لهذه العزيمة الأكيدة التي ستثمر ولا شك في أقرب الآجال وتعطي نتائجها.

﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ صدق الله العظيم.

والسلام



شبابُ المجتمعات الإسلاميّة

بين الثوابت والمتغيرات

للأستاذ المهدي السيني

احتدّ النقاش في الآونة الأخيرة حول «الثوابت» والمتغيرات وبمناسبة عيد الشباب المجيد، رأيت من المناسب أن تكون مساهمتي في الاحتفال به، إثارة النقاش حول هذا الموضوع، سيما وقد عرف عن صاحب الجلالةأمير المؤمنين حرصه الشديد على الذود عن الثوابت في الشخصية المغربية، المتجلية في مذهبها المالكي، وعقيدتها الأشعرية، وتصوفها النقي، وأرجو أن يكون إسهامي هذا فتحا لباب النقاش... والله من وراء القصد...

في المجتمعات غير الإسلامية : المادية أو العلمانية يرون أن من «القيم» ما يكون اليوم من الثوابت وقد يصح أن يكون غداً من المتغيرات، إذ أن قيمهم كقيم سوق العملات، خاضعة للعرض والطلب، للتقليص والتعويم؛ في حين أن «القيم» في المجتمعات الإسلامية قيم ثابتة، وأن «التغيير» لا يمس الجوهر بحال من الأحوال، مهما تغيرت البيئات زمانياً أو مكانياً.

وقد يكون لبعض المجتمعات الإسلامية خصوصيات تصير العادات فيها بمثابة القيم الإسلامية، فترسخ وتتجذر في خلايا المجتمع فتكتسب الثبوت لتواضع التعامل بها؛ لكن فيصل التفرقة بين مشروعيتها وعدمه هو ميزان الشرع : فما حسنه الشرع فهو الحسن، وما قبحه الشرع فهو القبيح، إذ لاعبرة بمن تكون مواقفهم نظير مواقف أولئك الذين تصور هذه الآية تمسكهم بالموروث، لأنه موروث فحسب : «قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإن على آثارهم مهتدون»[1].

وقال ﷺ : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد[2].

---

1) سورة الزخرف : آية 22.

2) متفق عليه، أخرجه البخاري موصولا في الصلح، في الباب الخامس؛ ومعلقاً في الاعتصام، وفي البيوع. وأخرجه مسلم في الأقضية : باب نقض الأحكام...

إنّ الشباب في المجتمعات الإسلامية يتشرّبون «القيم» من السلوك العملي في الممارسات اليومية لذويهم وجيرانهم ومعلميهم، فما تواضع الناس على احترامه وعدم تجاوزه، يصير كذلك في قناعة الشباب، ولو أمام الملأ؛ ومعنى ذلك أن للرأي العام الإسلامي تأثيرا وسلطاناً على النفوس، وهذه ظاهرة محمودة تعكس السلوك الحي المحتشم وعدم المجاهرة بالمعاصي امتثالاً للهدي النبوي : «من أصاب من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»[3].

إن ما يمكن أن يقع فيه بعض شباب المجتمعات الإسلامية من أنواع السلوك المشين، يقاسمهم أوزاره من وضعوا من موقع التوجيه والريادة، فقد قال ﷺ : من سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها..[4].

وسأشير إلى ظاهرتين من مجتمعنا المغربي المسلم : ظاهرة «اللامبالاة، أو حب السلامة»، وظاهرة «النجدة ونصرة المظلوم»، فالظاهرة الأُولى مشينة وهجينة، ولا تتجلى عند جمهور الناس، في حين أن الظاهرة الثانية أصيلة وعامة لا يتلكأ عن تطبيقها إلا من اضطرته ظروف ما، أو وقع تحت ضغوط ما.

ففي البيئات التي لم تفسد فطرتُها، لا يتصور أن من يمر في الشارع العام ـ مثلا ـ ويسمع الأطفال يتسابون بفحش القول وبذئ الألفاظ، يتابع سيره غيرَ مبالٍ كأنه لم يسمع شيئاً، وإنما ينبه الأطفال إلى عواقب الوقاحة وخطورة مس الأعراض، وهذا هو الموقف السائد في بيئاتنا المغربية الأصيلة. أما في البيئات الهجينة، فقد يسمع المارّ في الشارع العام ما يندى له الجبين وتهتز له المشاعر، فيمر بسلام ويعتبر تدخله من باب الفضول.

فهذان الموقفان المتناقضان، وأمثالهما كثير، مما يثير لدى الأجيال الصاعدة بلبلة حول «القيم الأصيلة» التي ما كانت بالأمس القريب محل تساؤل، ومجالاً لاختلاف وجهات النظر، مثل نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وتغيير المنكر.

وتمسك مجتمعنا المغربي الأُصيل بهذه القيم، هو تمسك بجوهر الإسلام؛ وحرص الكهول والشيوخ على تطبيق ذلك وممارسته، هو نقش في ضير الأجيال الصاعدة وترسيخ في تصورها، إذ هو من كيان هذه الأُمة، لا يتغير بتغير الظروف، ولا تزعزعه رياح التشكيك والارتياب، فقد قال ﷺ : «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لا يصبح ويمسي ناصحاً لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم»[5].

والحديث وإن كان ضعيفا، فللعلماء اختلاف في العمل أصلا من أُصول الدين.[6]

إن التصور بأن موقف اللامبالاة من قضايا المجتمع الأساسية، هو الموقف السليم، وأن المرء ما ينبغي له أن يكون فضولياً يحشر نفسه فيما لا يعنيه، تصور غير إسلامي؛ وقد أوضح ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو يصحح الفهوم حول تأويل قوله تعالى : **﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم، لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾**.[7]

فقد أورد أبو الفداء ابن كثير في تفسيره : ليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان ذلك ممكناً.

وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم

---

3) الموطأ : كتاب الحدود : الحديث الثاني عشر.
4) من بلاغات الموطأ : كتاب القرآن : الحديث 41، وهو موصول في صحيح مسلم : كتاب العلم : باب من سن سنة حسنة...
5) أخرجه الحاكم في الرقاق من المستدرك، والبيهقي في الشعب. والهيثمي في مجمع الزوائد ج 1 ص 248.
ط 2 : دار الكتاب بيروت.
وعن تضعيفه : المقاصد الحسنة رقم 1182، وكشف الخفاء ج 1. رقم 2617.
6) كلام الإمام أحمد، نقله ابن تيمية في مجموع الفتاوي ج 18. ص 67، 68، ط الرباط.
علوم الحديث للتهانوي : الفصل الثالث ص 92، ط،دار القلم بيروت 1972.
ـ توضيح الأفكار للصنعاني ج 2 ص 107 ـ 113، ط. الخانجي.
7) سورة المائدة : آية 105.

قال : «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه[8]».

وفي رواية ثانية للترمذي بسنده إلى ثعلبة الخشني أنه سئل عن تأويل هذه الآية فقال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً : سألت عنها النبي ﷺ فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام...[9]

ولابن مسعود رضي الله عنه في تأويل هذه الآية قوله : فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء،وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه...[10]».

إن رعاية الشباب رعاية لا تغير فطرته، ولا تزعزع تصوره حول «القيم»، مسؤولية كبرى، وأمانة عظمى، وهي جزء من الأمانة التي تحملها الإنسان لعمارة الأرض وفق منهج الله : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولاً**﴾[11]».

وهي رعاية خاصة وعامة لقوله عليه السلام : «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته...[12]» وكل تفريط أو تقصير في رعاية الأجيال الصاعدة، يمكّن شياطين الإنس والجن من العمل على انحرافها، مصداقا لقوله تعالى في الحديث القدسي : إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...[13]

ومعلوم أن شياطين الإنس والجن متحالفون لتحقيق ذلك الاجتيال، قال تعالى : ﴿**شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾[14]

إن رعاية الشباب رعاية إسلامية، وتوجيههم توجيها إيمانياً ربانياً، يعمق من نفوسهم التمسك بالقيم التي تتفق وفطرة الله التي فطر الناس عليها، ويجعلهم في مناعة من رياح التشكيك التي يكمن الماديون وراء زوابعها، لإقناع شباب المجتمعات الإسلامية بأن «القيم» في حاجة إلى مراجعة، منطق مادي، إذ الحق حق، والباطل باطل، والخير خير، والشر شر، مهما تغيرت البيآت زمانياً ومكانيا.أهـ.

---

8) تفسير ابن كثير : سورة المائدة، وهو في ج 1 من مسند الإمام أحمد ص 5، 7، 9 : نشر المكتب الإسلامي.
9) سنن الترمذي : كتاب التفسير : سورة 5.
10) مجموع الفتاوي لابن تيمية ج 17 ص 371، 372، ط. الرباط.
11) سورة الأحزاب : آية 73.
12) متفق عليه : أخرجه مسلم في الإمارة باب فضيلة الإمام العادل. وأخرجه البخاري في عدة أبواب من جامعة : في الأحكام : الحديث الثاني، وفي الجمعة : الحديث 12.
13) أخرجه مسلم في كتاب الجنة من صحيحه ج 63.
14) سورة الأنعام : آية 112 اهـ.

الشباب أمام مسؤولياته الحاضرة والمستقبلية وتحديات العصر

للأستاذ علال البوزيدي

تحت ضغط وتأثير التصادم الحضاري يعاني الشباب المعاصر أزمة التوتر والقلق، ويواجه ظروفاً من الهوس والصداع مما يجعله غير قادر على اتخاذ القرار الحاسم والموقف الحازم من نفسه أولا، ومن ضرورة اندماجه في مجتمعه الأصيل ثانيا، بل أجده يتأرجح بين الأصالة والمعاصرة وهو في تيه من جلية أمره وهويته، وفي وضع الجاهل أو المتجاهل لحقيقة واقعه، وهذا التأرجح كثيرا ما يجعل حياة الشباب غير متوازنة، ولكن على العكس مضطربة ومليئة بالمشاكل، وهنا يجدر بالمتحدث في الموضوع أن يتأمل بعمق واقع الشباب في هذا الظرف الدقيق الذي يجتازه العالم، والذي لا سبيل إلى حصر ذلك الخضم من المشاكل الذي يموج ويتمسرح في ساحة المجتمع الإنساني، فمن أية نافذة حاولنا الإطلالة على مشكلات الشباب إلا وتراءت عويصة، ولعل هذا ما زاد في الطين بلة.

1) العلاج رهين بالحفاظ على الأصالة والتمسك بالعقيدة السليمة

وربما هذا بالذات ما أدى إلى تنشيط ظاهرة انحراف الشباب، وتسرب هذه الظاهرة واكتساحها للجهات السليمة بانتقال العدوى من الجسد المريض إلى الجسد الذي هو في صحة جيدة، وتلك في الواقع طامة كبرى نتجت عن الانفتاح والهجرة والإعلام غير الملتزم، وغير ذلك من العوامل المبتدعة والمفتعلة لأهداف إيديولوجية أو عقائدية، وأمام ذلك يحتاج الباحث والمحلل فيما آلت إليه وضعية الشباب في الوقت الراهن، وهذا الاحتيار يتجلى في العجز عن انتقاء الأسلوب المناسب لمعالجة قضاياه المطروحة بحدة على مختلف الأصعدة والمستويات، والناتج بعضها عن الانحراف في السلوك وسوء التصرف وانعدام الاستقرار في التفكير والاتجاه، وهذه المعطيات السلبية التي طرأت على حياة الشباب في العصر الحاضر لها انعكاساتها المحسوسة وعواقبها الملموسة في ترسيب ظاهرة الانحراف واجتياحها للوسط الشبابي بكيفية سريعة، تصعب مواجهتها رغم البرمجة والتخطيط، ورغم جهود علماء التربية والإصلاح الاجتماعي، وبالتالي رغم منهجية التطوير والتحديث، إذ كلما بذل مجهود في هذا المجال اصطدم برد فعل معاكس، ويبقى العلاج الحقيقي رهينا بالمحافظة على الأصالة بعيدا عن التزمت والانطواء، وإذا كان من نصيحة توجه للشباب إنما تكون هذه النصيحة بعد عرض مشكلاته عرضاً منطقيا وموضوعيا حتى يتضح من خلال العرض الآثار التي يمكن أن تنجم على تخلي الشباب عن القيم السامية والمثل العليا،

كما تقتضي هذه الوضعية تنبيه الجيل الجديد إلى الأخطار المحدقة به إن هو تمادى في غيه واستمر في إقباله على الطوارئ الدخيلة عليه، باسم الثقافة الأجنبية والحضارة الحديثة والمعاصرة البراقة التي استحوذت على بعض فئاته المخدوعة، واطلاعه بكيفية واضحة وصريحة على تراثنا الثقافي الذي ورثناه عن الآباء والأجداد وحفزه على السير في مسار السلف الصالح وعلى القيم التي كانوا يتحلون بها، وما أحوج الشباب إلى تلك القيم التي بفقدانها يتجرد الإنسان من إنسانيته ويؤول الأمر إذا تواصل واقع الحال على ما هو عليه إلى ما لا تحمد عقباه، يفلت الزمام ويستعصي العلاج ولهذا لابد من إشعار الجميع بأن وراء الأكمة ما وراءها وأن هناك خطرا كبيرا يتهدد القلب النابض للأمم والشعوب وأن مواجهة هذه الأخطار تقتضي بالأساس الرجوع إلى الأصول والابتعاد عن كل ما يعارض هذه القيم والمثل، وخصوصا في هذا الظرف المتميز بالحدة والصراع على كل الواجهات نتيجة التواصل البشري والتصادم الحضاري.

2) بين الإعجاب والتقليد الأعمى

ومن هنا فإن الإعجاب المفرط والمبالغ فيه بالغرب يؤدي إلى المغالطة، ذلك أن هذا الإعجاب لم يتجاوز مرحلة التقليد الأعمى للسفاسف والمجون وتعاطي المخدرات والمسكرات إلى غير ذلك من الخزعبلات، بدل الإعجاب بما تحقق في بعض الأقطار من تقدم علمي واقتصادي وصناعي، كما على الشباب أن يستحضر في أعماقه الوعي الإسلامي الحقيقي الذي يقود إلى الفضيلة، وعليه كذلك أن يستنير في مسيرته بمعالم الماضي المجيد لمجتمعه الإسلامي الطاهر، والاقتداء بالسلوك المستقيم والتصرف السليم اللذين كانا يطبعان ذلك المجتمع، بدل التأثر بالجفاف الفكري والفراغ الأخلاقي والروحي، هذه السمات التي جعلت المجتمع الغربي يعاني أزمة الانحلال والإباحية والتفسخ والاستهزاء والاستهتار بالقيم والمثل. حتى أصبح غير منسجم ولا منصهر مع أفراده، فتارة تجد أن المجتمع طغى على أفراده، وتارة أخرى تجد الأفراد يسخرون من مجتمعهم ويستهترون بالقيم التي يرتكز عليها هذا المجتمع، وهذه الهوة أخذت تتسع نتيجة تحديات العصر وشكلت شبه انفصام بين المجتمع وأفراده، وإذا افتقد عنصر الترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع حصل بدون شك التأزم النفسي المؤدي إلى الانحلال والاضطراب، وهذا النمط من الحياة مرفوض وغير مقبول في المجتمع الإسلامي الذي يركز أساساً على الترابط والتكافل والتوازن، ونشوء الفرد يتم على هذه الوتيرة وبهذا يقوم بكل مسؤولياته الإنسانية وبهذا اكتسب المجتمع الإسلامي فضيلة التناسق والانسجام، وبهذا تمكن هذا المجتمع من حماية نفسه وأفراده من الأخطار المتربصة.

3) الشباب وتجاوز الصعاب والمعوقات

إن خير ما ينبغي قوله في هذا المضمار هو أن ما ينتظره المجتمع من أبنائه هو الجد والصدق والبذل والتضحية ونكران الذات في كل ما يمارسونه من أعمال، وأن يحاسبوا أنفسهم دائما ويراجعوا ما هم عليه من سلوك ويعلموا بأنهم مسؤولون أمام ضمائرهم وأمام الله، وأن يشعروا بأنهم حملة المشاعل وبناة الأوطان، وعلى عاتقهم أمانة ورسالة تحتمان عليهم القيام بالمسؤولية وأداء الواجب مهما كانت الظروف، بل عليهم أن يستحضروا نصب أعينهم حتى في الملمات ويوم تدلهم الخطوب تلك القولة الشهيرة : كل صعب على الشباب يهون، وإذ ذاك تلين أمامهم الصعاب وتذوب المعوقات وتعالج الإشكاليات ويتسنى بالتالي الصمود في وجه كل التحديات، وللشباب المسلم ما يساعده على ذلك إن هو فهم بوعي عميق الدعوة الإسلامية التي تدعو إلى الاعتدال وتحذر من الجحود والتطرف، وإذا كان الاعتدال فضيلة من الفضائل الإسلامية فحري بالشباب أن يتمسك به ويسعى إليه في حياته وممارساته الفكرية، وأن يتجنب الغلو الذي يجر إلى مسالك السوء والانحراف، والشباب أصبح أقرب إلى الغلو بحكم مؤثرات متعددة جاءت مصاحبة لتطور العصر.

4) طاقة خلاقة وأوقات ضائعة

والذي يلاحظ عند بعض الشباب اليوم هو التهافت والتهالك على الحياة المادية وجعل ذلك أكبر همه، وبهذا فقد توازنه الأخلاقي والاجتماعي كما فقد القناعة وهي الكنز الذي لا يفنى، وضعف إيمانه لأن الإيمان الحقيقي هو كما قال الحافظ ابن حجر : الإيمان هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، فالشباب الذي هو طاقة خلاقة لا يليق به أن يضيع طاقاته وأن يصبح ضحية الفراغ الأخلاقي والروحي دون أن يستغل طاقته الهائلة في القيام بواجباته ومسؤولياته على أساس الوازع الإيماني، ويركز عمله على محاور الأركان والقواعد التي حددها الإسلام ونصت عليها شريعته الخالدة، وبالنظر إلى كل ما جاء في هذا الباب من مواعظ وتوجيهات يتساءل المرء عن موقف المسلم بصفة عامة والشباب على الخصوص في هذا العصر الحافل بالبدع والمستحدثات والاستيلاب الثقافي يهدد الوسط الشبابي بالضياع ؟

وقد قال البعض بأن انحراف الشباب ناتج في بعض خلفياته عن فساد الجو الثقافي والإعلامي. مما ضاعف حيرته وأوقفه أمام محنة ومتاعب مقصودة سلاحها التناقضات والمغالطات وإقحام الشباب في دائرة مغلقة وإشعاره بكونه غير مرغوب فيه لعدم توفره على التجربة العميقة وبالتالي إحساسه بالغياب عن الساحة، وبهذا تضعف فيه الإرادة المنتجة وينمو عنده عنصر الاستهلاك والتقوقع والانعزال.

5) نحو حوار بناء وصريح مع الشباب

وخلاصة القول إن الشباب في حاجة إلى حوار بناء ونقاش صريح لتدارس مشاكله وإشراكه بتقربه من العلماء وذوي الخبرة والاختصاص، وبمواجهة الواقع على أساس الاحتكاك بالناس وبعيدا عن الأنانية والخيال، فما أكثر المجالات التي تحتاج إلى جهود الشباب وطاقاته الخلاقة ومساهمته الفعالة في الحملات الشاملة والتعبئة العامة الهادفة إلى تطوير المجتمع ورفع مستواه، بالمشاركة النشيطة والتطوع الإيجابي في معالجة الأمراض الاجتماعية، كمحو الأمية ومحاربة التسول والقمار والبغاء والمخدرات وتوعية الجمهور والترفيه عن الأيتام والمعوقين فذلك يدخل في نطاق دور الشباب الطلائعي ورسالته الحيوية في بناء الوطن وخدمة الأسرة والمجتمع العام. ولا ينكر بأن الشباب من الجيل الماضي قام بدوره على الوجه الأكمل حيث كانت جهوده تلتقي في تناسق وانسجام داخل تنظيمات وجمعيات وحركات عتيدة قامت بخدمات مهمة في مجالات العمل الاجتماعي والتربوي والتوعية والتوجيه بجدية وحماس قياما بالواجب وشعورا بالمسؤولية وأداء للأمانة، وما أحوج شباب اليوم أن يواصل المسيرة، ذلك لأن العبء الذي كان يثقل كاهل شباب الأمس ويعتبر بمثابة رسالة هو نفس العبء يعد بمثابة أمانة على عاتق شباب اليوم وما أعظم الأمانة التي جاء في شأنها قوله تعالى : ﴿**إن عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾.

وجدير بالشباب أن يقتفي أثر الجيل الذي قبله لترسيخ الأمجاد والحفاظ على المكاسب والذود عن الحياض وما ذلك على الشباب بعسير خصوصا والمصاعب أمام عزيمته تلين وصدق الذي قال : كل صعب على الشباب يهون.

6) يتحدثون عن حيرة الشباب

حتى لا تبقى حيرة الشباب مستمرة نتيجة غياب التوجيه السليم وفقدان القدوة في بعض المجتمعات التي تروم السير في ركاب الغرب وترجح المعاصرة عن الأصالة، يحتاج الشباب إلى دعوة الحق التي تقول للحسن أحسنت وللمسيء أسأت.

وعيد الشباب المجيد مناسبة للتذكير بأن جلالة الملك أمير المؤمنين هو قدوة شباب الأمة، فعلى الشباب أن يستلهم من سيرته التي تزخر بمواقف الحكمة والشجاعة والفداء والتضحية والنبل والاخلاص، حفظه الله لشعبه وأمته ذخرا وملاذا، وحقق على يديه عزة الإسلام والمسلمين. وأمتع بطول حياته شباب شعبه وأمته.

مناقشات

حول قصة "جئت لا أعلم..."(☆)

للدكتور عبد الله العمراني

في العدد 248 من مجلة (دعوة الحق) قرأت للأستاذ مبير أزهرى مقالا نقديا بعنوان (حول قصة «جئت لا أعلم» قراءة إشكالية)، فلفتت فيه نظري مقولات أحببت أن أقف عندها وقفة قصيرة لأناقشها الحساب، لأنها في الواقع تستوقف الباحث، وتستوجب منه التعقيب أو التصحيح.

قدم الكاتب نفسه بدأة بدء ـ فعرفنا أنه محرز على الإجازة في الأدب الإنكليزي، وأنه حريص على الاستفادة من ثقافته الإنكليزية، حرصه على التعرف على مدى علاقة هذه الثقافة بالواقع والأدب المغربي. وبغية تحقيق هذا المطلب الأدبي اختار قصة «جئت لا أعلم» لمؤلفها أحمد كمال العلمي كي يطبق عليها مفاهيم ومصطلحات إنكليزية.

هذا شيء جميل ! لكن، ألا يفهم القارىء من هذا الكلام أن مؤلف «جئت لا أعلم» هو أيضا مثقف ثقافة إنكليزية، وأنه استوحى في تأليفه قصة للكاتب الإنكليزي هنرى جيمس دعاها السيد أزهرى «ماذا علمت ميزى» ؟ يعزز هذا الفهم، ما صرح به الناقد في العمود الأول من صفحة 122 من المجلة حيث قال بالحرف الواحد :

«يلاحظ القارىء أن هناك تشابها بين قصة «جئت لا أعلم» وقصة «ماذا علمت ميزى» من حيث العنوان. هذا التشابه لا يقتصر على العنوان فقط، بل يتعداه إلى محتوى القصة بأكملها. لهذا السبب سأعمد إلى «ماذا علمت ميزى» في كثير من الأحيان للمقارنة».

هنا أبادر إلى القول : إني لا أعرف مؤلف «جئت لا أعلم» معرفة شخصية تمكنني من التعرف على نوع ثقافته

☆) قصة «جئت لا أعلم...» هي للكاتب الأستاذ أحمد كمال العلمي، وقد صدر الجزء الأول منها عن المكتبة الشعبية بالرباط (4 زنقة غزة)، ويقع هذا الجزء في أربعين فصلاً (237 صفحة)، وينتظر صدور الجزء الثاني من هذه القصة، نتمنى أن يتم ذلك قريبا.

الغربية، كما لم يسبق لي أن قرأت قصته، لذا لا يمكنني أن أحكم أو أوافق على تشابه القصتين، وتوافق محتواهما : كل ما أعرفه هو ما زودنا به الناقد من أقوال أو أحكام تتعلق بالقصة ومؤلفها، مثل قوله : «إن القصة تجربة قابلة للنقاش، قابلة للأخذ والرد أكثر من الأعمال الأدبية الأخرى المبنية على تجارب طويلة المدى، الراوية (يعني بطلة القصة) إلى جانب كاتبها (يعني المؤلف) مضافا إليهما الناقد (يعني نفسه) كلهم يتقاسمون شيئا واحدا هو حداثة عهدهم بفن القصة». ثم يضيف قوله : «فكل واحد من الراوية، والكاتب، والناقد يلتمس عفو ورضى القارىء، لأنه يعرف مسبقا أن نتاجه مجرد محاولة وتجربة، والقارىء هو الذي له الكلمة الأخيرة».

مرحى ! إنها كلمة حق لم يرد بها باطل ! إن آفة الإنتاج الأدبي - وخاصة في شعوب الدول النامية - الاستعجال والابتسار ومحاولة جني الثمار قبل النضج، ثم مرحى ! لهذا القول الذي ينم عما تتسم به نفس الناقد من صراحة واعتراف حميد، وسعة صدر قابلة للنقد، الأمر الذي يحفز إلى الحوار البناء، ويدعو للمناقشة الهادئة الحرة البريئة.

عنوان القصة

زعم الناقد - كما أشرنا من قبل - أن هناك تشابها بين قصة «جئت لا أعلم» وبين قصة «ماذا علمت ميزى» من حيث العنوان، وهو زعم لا أقره عليه، وأخالفه في التشابه المزعوم كل المخالفة، وسيتضح ذلك بعد قليل، وحتى إذا كان هناك تشابه واقتباس للعنوان، فالعنوان في الواقع ليس مقتبسا من قصة الكاتب الإنكليزي كما ادّعى، ولكنه مأخوذ أخذا من بيت شعري وارد في قصيدة (الطلاسم) لمنشئها الشاعر المهجري إيليا أبي ماضي، تلك القصيدة الفلسفية التي فتنت الأدباء والفنانين فلحن الموسيقار العربي محمد عبد الوهاب بعض أبياتها وغناها.

تقول القصيدة :

«جئت لا أعلم» من أيـ
ـن، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدا
مي طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن
شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصر
ت طريقي ؟ لست أدري

أما زعم السيد الناقد بأن عنوان قصة «جئت لا أعلم» شبيه بعنوان قصة الكاتب الانكليزي هنرى جيمس : «ماذا علمت ميزى : What Maisie Knew» فإني أرفضه، وأبادر إلى تفنيد هذا الزعم من زوايا ثلاث :

أولاها : أن الناقد ترجم اسم جيمس هكذا : دجيمس - بزيادة الدال - ولولا أنه أورد الاسم بالحروف اللاتينية، لظننت وظن غيري أن الأمر يتعلق بمؤلف أنكلو - لاتيني ممن يبتدىء اسمهم العائلي بكلمة : «دى» مثل الروائي William De Morgan. على أني لم أر في حياتي من ترجم حرف الجيم J فأورده بالدال والجيم كما فعل الناقد هنا، والغريب أنه فعل نفس الشيء في اسم المؤلفة الإنكليزية جين أوستن فكتبه هكذا : دجين.

ثانيتها : أن هنرى جيمس ليس كاتبا انكليزيا، بل هو روائي Novelist أنكلو - أمريكي، فإنتاجه روائي كله، رغم أن أخاه الأكبر ويليم جيمس كان عالما نفسانيا شهيرا، وفيلسوفا أمريكيا محضا. أما هنرى المولود بالولايات المتحدة سنة 1843م والمتوفي بها عام 1916م فقد هاجر وطنه وعاش في انكلترا، وفي لندن خاصة، منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يعد إلى بلاده إلا في سنة 1906 فألف في السنة التالية روايته : The American Scene ثم بعد ذلك أنتج روايته Fine Grain. وقبل وفاته بعام، منح الجنسية الانكليزية.

ثالثتها : أن الناقد زعم أن عنوان قصة «جئت لا أعلم» شبيه بعنوان قصة «ماذا علمت ميزى» قال هذا وكرره مرارا، مما حفز الناقد إلى عقد مقارنة بين القصتين، بيد أني لا أعرف للروائي هنرى جيمس رواية بهذا العنوان، كل ما أعرفه هو أن روايته المقصودة تدعى «ماذا رأت ميزى» لا

«ماذا علمت ميزى»، ولا أدرى كيف خلط الناقد بين كلمة Saw بمعنى رأى أو نظر، وبين كلمة Knew بمعنى عرف أو علم ؟ مع أن الفرق بين الكلمتين كبير، لا من حيث اللفظ، ولا من حيث الخط، ولا من حيث المعنى، ذلك أن «رأى» العربية ذات معنيين فهي إما بصرية تتعدى لمفعول واحد، وإما علمية تفيد اليقين أو الظن الراجح، وتنصب مفعولين. أما «رأى» الانكليزية فليس لها إلا معنى واحد هو الإبصار أو النظر. ومن ثم كان البون جد شاسع بين Saw وKnew.

إن من أعمال هنرى جيمس الروائية غير ما ذكر، روايات : «الأمريكي» و«البوستونى» نسبة إلى مدينة بوستن بالولايات المتحدة، و«ديزى ميلر» و«صورة سيدة»؛ وله كتاب آخر كان في استطاعة السيد الناقد أن يلجأ إليه في مجال المقارنة وتطبيق المفاهيم والمصطلحات الإنكليزية على الأدب العربي، وتعني كتابه The Art of Fiction and other Essays؛ كما كان في استطاعته أن يستشير أحد الكتب التالية : «صور من الرواية : Aspects of the Novel لمؤلفه فورستر Forster, E.M أو «بنية الرواية : The Structure of Nouvel» لمؤلفه موير Muir, E. أو «أشكال القصة الخيالية الحديثة : Forms of Modern Fiction» لمؤلفه O'Connor, R. أو «بعض مبادىء القصة الخيالية Some Principles of Fiction» لمؤلفه Liddel, RK

المعاصرة والواقعية

يعود السيد الناقد إلى صلب الموضوع ـ كما قال ـ فيقرأ قصة «جئت لا أعلم» من خلال محورين : المعاصرة والواقعية.

أمّا المعاصرة فمعناها مفهوم وبسيط، وقد أشار إليه في العمود الثاني من صفحة 125 حيث وصف الرواية المعاصرة «بأنها تخضع لمتطلبات الحاضر»، ولكنا نأخذ عليه هنا أنه ترجم المعاصرة بالحداثة Modernism وهي ترجمة غير دقيقة، وأنه عرّف الحداثة ـ لا المعاصرة تبعا لناقد إنكليزي ـ بأنها «موجة أدبية وفنية، تأخذنا إلى ما وراء حقيقة الواقع العادي المتعارف عليه، وأنها المدرسة التي تقطع الصلة بالوظائف المسلمة للغة (كذا ؟)، كما أنها لا تعير أي اهتمام إلى القواعد المتفق عليها للأشكال الأدبية».

يا حفيظ ! يا عليم ! أهذا تعريف للمعاصرة أو الحداثة ؟ أم أنه ثورة جامحة ترمي لهدم ما بنته الأجيال من معالم وأمجاد أدبية وعلمية وفنية وحضارية ؟ لكأني بهذا الناقد الإنكليزي الذي لم يشر الكاتب إلى اسمه أو كتابه، إنما كان ـ حين إدلائه بهذا التعريف ـ يخرف، أو يهرف بما لا يعرف؛ أو كأن تلك الموجة الأدبية الفنية التي تحدث عنها، كانت من العتو بحيث قذفت به إلى ما وراء الحق والصواب ! **(فماذا بعد الحق إلا الضلال)**. (سورة يونس : 32).

إن الفرق بين الحداثة والمعاصرة واضح أبلج، والخلط بينهما باطل لجلج، فالحياة المعاصرة لنا مثلا هي التي نحياها اليوم، بينما الحياة الحديثة هي التي عاشها آباؤنا وأجدادنا الأقربون منذ بداية عصر النهضة، إلى بداية العصر الذي نعيش فيه.

وأمّا الواقعية فهي مدرسة حدثت كرد فعل للمدرسة الإبداعية الرومانسية، فهي تعنى بطرْق الموضوعات العادية المألوفة، وتعرض الحوادث والظروف السائدة، وتمثل الحياة الواقعية كما هي في العصر الذي تتحدث عنه. تقول كلارا ريف C. Reeve في كتابها Progress of Romance : «الرواية هي صورة من الحياة الواقعية وسلوكها وأخلاقها، ومن الوقت الذي كتبت فيه. أما القصة الخيالية Romance في لغتها المهذبة، وأسلوبها الرفيع، فتصف ما لم يحدث قط، وما ليس من المحتمل أن يحدث».

هذا، ونشير إلى أن بعض البطاء المغرورين، فهموا الواقعية فهما سقيما، حيث قصروها على لغة الحديث الدارجة، وزعموا أن الواقعية تفرض أن يتحدث أشخاص الرواية ـ بعضهم على الأقل ـ بلغتهم الدارجة، فهذا في نظرهم عين الواقعية، وجهلوا أو تجاهلوا أن الروائي حينما يُنطق أشخاص روايته التاريخية مثلا، ويعبر عن أحوالهم وتصرفاتهم، إنما يخاطب معاصريه باللغة التي يفهمونها ـ أو

يجب أن يفهموها - والتي من شأنها أن تسهم في ترقية عقولهم ووجدانهم، وترفع من مستواهم الثقافي والاجتماعي، إن الشاعر المسرحي العالمي الكبير ويليم شكسبير حينما كان يُنطق أشخاص تمثيلياته مثل : عطيل، وتاجر البندقية، وهاملت، إنما كان يعبر عما في ضائرها باللغة الإنكليزية الصيمة (المختلفة نوعا ما عن إنكليزية اليوم)، ولم يعن البتة بإنطاق كل واحد منهم بلهجته أو لغته المحلية الدارجة.

ويبدو أن السيد أزهري يفهم الواقعية على ذلك الأساس الخاطىء، فهو يقول في العمود الأول من ص 124 : «حبذا لو كان خطاب الأب والجدة بالدارجة، أو تضمن على الأقل بعض المفردات والجمل باللغة العامية، ليزيد من واقعية الموقف من جهة، وليصور عن كثب الشخصية المغربية الأمية من ناحية أخرى».

هنا يحق لنا أن نتساءل : ماذا يستفيده قارىء القصة من تعابير الأميين وأفكارهم الساذجة ؟ الضحك ربما ! ولكن إذا لم يكن ضحكا كالبكاء، فما أسخفه من هدف ! إن مهمة الأديب أن يرفع مستوى قرائه لغويا وعلميا وأدبيا واجتماعيا، لا أن يتدلى هو إلى مستواهم الدنيء. إن من أكبر الأخطاء التي يرتكبها بعض القصاصين الذين يكتبون قصصهم بلغة أجنبية، وكذا السينمائيون بدول المغرب العربي هو إلحاحهم في كتاباتهم القصصية، وفي أفلامهم السينمائية، على المشاهد والأحداث التي تقوم بها الطبقات الدنيا في مجتمعاتهم، والتي كان يقوم بها أجدادهم منذ آلاف السنين. إن مثل هذه الأقوال أو التصرفات ليست من الأصالة في شيء، وإن كانت تعجب الغربيين، ويشجعونها، لأنها تكشف عورات الشعوب الإسلامية، وتبرز تأخرهم الحضاري، وتزكى انحطاطهم الفكري.

كان الوطنيون - قبل الاستقلال - يحاربون الترهات، ويعيبون مثل هذه المناظر المؤذية التي تسيء إلى سمعة البلاد، وقد تحول دون طموحهم إلى العلا، بينما الآن - وبعد الاستقلال - نرى قومنا منغمسين في الخُزَعْبِلات، ونرى تشجيع الحادبين عليهم، ينهال عليهم من كل جانب. يحسبون أنهم يرقون ببلادهم وشعبهم، بينما هم يتزلون بهما إلى الحضيض !.

ثم يتساءل الناقد عن المانع الذي منع مؤلف «جئتُ لا أعلم» من أن يستعمل الدارجة، ولكنه لا يلبث أن يجيب عن تساؤله في نفس العمود والصفحة فيقول : «المانع هو تشبث الكتاب والنقاد العرب باللغة العربية إلى درجة التقديس».

ونجيب نحن فنقول عن هؤلاء الكتاب والنقاد العرب : إنهم خيرا فعلوا. فمن لا لغة له، لا شخصية له، ولا كيان، ولا حضارة.

ثم يضيف الكاتب قوله : «أعرف أنه إذا كتب الكاتب لا أقول كل الخطاب، بل جزءا أو فقرة منه بالدارجة، فإن النقاد سوف يلومونه على هذه البادرة».

ونقول له نحن : إن من حق أولئك النقاد أن يفعلوا، إنهم يقومون بواجبهم المقدس المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ثم أرى الناقد الحصيف يتنبأ مسبقا بفشل كل محاولة من هذا القبيل، حين يقول : «لقد حاول بعض الكتاب المصريون تكسير هذه القيود، وإقحام العامية في «الحكى» (يقصد مصدر حكى يحكي، ولكنه خانه التعبير فأتى بكلمة «الحكى» التي لا وجود لها في لغة الضاد) إلا أن محاولتهم باءت بالفشل».

وكأن هذا الفشل لم يعجب السيد الناقد، ولم يرضه، ففضل ألا يلقي السلاح، وألا يستسلم مادام هناك أمل في إنجاح المحاولة، والأمل آخر ما يفقد، ثم إن النقاد العرب ربما كانوا في نظره مخطئين، محتاجين إلى من يرشدهم إلى الجادة، ويضرب لهم مثلا لعلهم به يتعظون ! ثم، لم لا يكون هو ذاك المرشد الذي يدلي بنصيحته، بل يلقي بقنبلته الزمنية، وينتظر - وكله أمل - أن تنفجر في الوقت المناسب. قال في نفس العمود والصفحة : «إن هذا النوع من الكتابة أصبح مسلما به، ليس فقط في الرواية الإنكليزية، بل كذلك في الرواية الفرنسية والإسبانية... فلم لا العربية والمغربية ؟».

هنا يحلو لي أن أهمس في آذان المستغربين - عكس المستعربين - من أبناء العرب المفتونين بتقليد الغربيين، والداعين إلى التجديد في زعمهم، وما تجديدهم سوى تقليد : إن هذه اللغات الغربية التي فتنتم بها، وما فتئتم تحتجون بها على العربية في مجال الطواعية، وقبول الإصلاح، وتقبل الجديد، إنما هي لغات مستحدثة، نشأت من لهجات محلية مستجدة : لاتينية هنا، وجرمانية هناك، وأنجلو - سكسونية هنالك... وهكذا؛ فهي حديثة بالنسبة للغة العربية، قابلة للزيادة والنقصان، مفتقرة أحيانا إلى مزيد من التقعيد والتقنين. أما لغتنا العربية فقديمة لا نعرف شيئا عن بدايتها، كل ما نعرفه أنها وصلتنا مكتملة ناضجة، وأن نزول القرآن الكريم زادها رسوخا وثراء وقداسة، فهي غنية بقواعدها ومفرداتها ومصطلحاتها، ولها طرقها وأساليبها في النحت والاشتقاق والتعامل مع الجديد، فمن الإجرام العدول عن هذه الثروة اللغوية الفريدة من نوعها، إلى لهجات محلية فقيرة لا هي في العير ولا في النفير ! إن اللغة العربية في عصورها الزاهرة، وفي تألق نجم أبنائها الأشاوس في سماء المجد، كانت تسع كل المصطلحات الأدبية والعلمية والفنية والفلسفية، فكانت اللغة الأولى في العالم، ولم يشعر أبناؤها حينئذ بأي نقص من أي نوع. أما اليوم فنجد حتى من بين أبنائها من يرميها بالقصور أو العجز أو التأخر، بينما القاصرون أو العاجزون أو المتأخرون هم طبقة من أبنائها أرادوا التخلص من سيئاتهم فنسبوها إلى لغتهم، ورموها بدائهم وانسلوا. ولعل هذا القصور الواضح الفاضح، هو الذي دعاهم إلى الانغماس في حمأة ما يعرف بالشعر المنثور أو الشعر الحر، كما أن الجهل والعجز والتأخر هو الذي حدا بهم إلى الاستغراب والاستلاب الفكري.

ملاحظات أخرى

أخشى أن يكون حبل الموضوع قد طال أكثر من اللازم، لذا أكتفي - فيما يلي - بإبداء بعض الملاحظات التي تهدف إلى تصحيح ترجمة أو تقويم عبارة، غير عابىء ببعض الأخطاء التي قد تكون هفوات مطبعية، ولا يحتاج فيها القارىء إلى تنبيه أو لفت نظر.

☆ في العمود الثاني من ص 122 نقرأ : «محور الحكى Centre of consciousness» الخطأ هنا مزدوج - يتجلى الخطأ الأول في ترجمة «محور» بـ «Centre» بينما علم الهندسة يبين عن الفرق الكبير الموجود بين المحور وبين المركز، فينبغي ألا نخلط بين الاثنين، وألا نفسر أحدهما بالآخر كما هنا.

أما الخطأ الثاني فهو ترجمة «الحكى» - وقد تقدم القول بأنها لا وجود لها في العربية - بكلمة إنكليزية تعنى الوعي أو الشعور، على أن الناقد ترجم الكلمة الإنكليزية ترجمة صحيحة في العمود الأول من صفحة 125 الآتية.

☆ في العمود الأول من ص 123 ترجمت «المشاغل والأحكام المسبقة» بالكلمة الانكليزية Prejudices، مع أن «المشاغل» يقابلها في الإنكليزية Preoccupations بينما «الأحكام المسبقة» يقابلها Prejudgments. أما كلمة Prejudices فتعنى التحيزات أو التحاملات. إن الواجب الأدبي، وكذا قواعد الترجمة المعمول بها في جميع أنحاء العالم، كلاهما يقتضي أن نخصص لكل كلمة معناها الاصطلاحي الدقيق، حتى لا يقع القارىء في أي اشتباه أو التباس.

☆ في العمود الثاني من ص 126. وردت عبارة «التفريج الكوميدي» ووضع الكاتب إزاءها عبارة : Comic relief. ولو كنت مكانه لوضعت بدل التفريج الكوميدي كلمة عربية صميمة هي «الإحماض» وتعنى الانتقال من الجد إلى الهزل أو من المأساة إلى الملهاة، بغية الترفيه والترويح عن النفس.

☆ في العمود الثاني من ص 128. نرى الكاتب لا يطمئن إلى ترجمة واحدة معينة، بل يأتي بأكثر من واحدة، وعلى القارىء بعد ذلك أن يخمن أي الترجمتين هي الصواب، أو عليه أن يغلط فيحسب الكتاب كتابين. وهكذا نجده يتحدث عن كتاب للروائية الإنكليزية جين أوستن (1775 - 1817) فيسميه : «أنانية وأحكام مسبقة»

اعتزاز وتعصب؛ ولولا أنه أتبع التسميتين بالعنوان الإنكليزي الأصيل Pride and Prejudice ـ بمعنى الكبرياء والتحيز ـ لـوقـع القـارىء في حيص بيص، ولظن أن لجين أوستين كتابين أحدهما موضوع بين علامتي تنصيص، والآخر مجرد من أية علامة.

وجدير بالملاحظة أن لجين أوستن عدة كتب أخرى منها كتاب : الحس والحساسية : Sense and Sensibility، وأنها في عهدها كانت تعتبر أقوى وأقدر إنكليزية على معالجة القصة الخيالية Fiction.

تلك بعض هفوات الترجمة، أما بعض هفوات اللغة والأسلوب فنشير إليها فيما يلي :

ـ في العمود الأول من ص 125. نجد هذه العبارة : «حيث يصبح للنص ليس معنى واحدا فحسب» فنجد الركاكة واللحن معا، فإذا أردنا التخلص من اللحن قلنا : حيث يصبح للنص لا معنى واحد... أما الركاكة فتبقى كما هي. وأي كذا خلقت كما يقول النحاة.

ـ في العمود الأول من ص 126. نجد هذا التعبير العامي الرَّكيك الذي يعامل الأشياء غير العاقلة (القصة، الأحداث، المشاهد، الإطار) معاملة العقلاء فيجمعها جمع مذكر سالما. فلنستمع إليه يقول : «من خصائص الرواية الواقعية أن يوهم الكاتب القارىء بأن القصة حقيقية، وأن أحداثها ومشاهدها وإطارها العام **ليسوا** فقط **منبثقين** من الواقع، بل **يكونون** صورة للواقع». إن الأشياء غير العاقلة إذا جمعت، عوملت معاملة المفردة المؤنثة، بل كذلك جمع العاقلين يعامل أحيانا معاملة المفرد المؤنث. قال تعالى : ﴿**قالت الأعراب آمنا**﴾ (الحجرات : 14) فالأعراب : جمع أعرابي وهو مذكر عاقل.

ـ في العمود الثاني من نفس الصفحة، لم يفرق الكاتب بين لام التعليل الناصبة، وبين لام الأمر الجازمة، ولـذا نقرأ هذه العبارة : «فلنرى عن كتب الأحداث والشخصيات في «جئت لا أعلم». بينما الصواب أن يقول : «فلنر...».

إن عدم التفريق بين اللامين كثير الورود على الأقلام والألسن، فصرنا نقرؤه ونسمعه كثيرا من مثقفينا، وهي غلطة فظيعة نأبى أن يقعوا فيها، ولذا وجب علينا التنبيه عليها، ليتسنى الحذر من ارتكابها.

من توجيهات
جلالة الملك
الحسن الثاني

إن الطريق الى مركز الصدارة بين الأمم مفتوح في وجه الأمة الإسلامية لايحول بينها وبينه حائل، لكن يلزم لضمان ذلك أن لاتقتصر عنايتها على الجانب المادي وحده وعليها أن توجه حظا كافيا من اهتمامها الى الحفاظ على تلاحم الأسرة المسلمة وحمايتها من عوامل التفكك والانحلال وأن تعيد للتربية الدينية والخلقية ما كان لها من الاعتبار والأهمية في تنشئة الأجيال

مُناقشات

قراءة في : قصيدة

للأستاذ محمد الحلوي

رفع الأستاذ عبد الكريم التواتي إلى شعب الإمارات وإلى أميرها الجليل زايد ابن سلطان آل نهيان (تحية إكبار وتقدير) بمناسبة زيارته لأبي ظبي لإلقاء محاضراته الرمضانية كما قال : وهي رسالة مفتوحة وتحية موجهة إلى بلد يحبنا ونحبه، وإلى أمير جليل يبادلنا ولاءً ووفاء بوفاء، تمنيت لو كانت رسالة معبرة عن عمق الروابط التي تجمع بين شعبينا والنضال المستمر الذي يوحد قائدينا تعبيراً يجمع بين الصدق وحرارة العاطفة ويرتفع فيه الشاعر إلى المستوى الفني المرموق، ويترجم من خلال هذه اللوحة مشاعر حبنا وإعجابنا بالجهود الجبارة التي يحققها شعب الإمارات، وهي لوحة رائعة لو استوحى منها لأعطت تحيته دفقا من الحيوية والإشراق ومنحتها نبضات تقترب بها من الكمال.. غير أنه أغفل هذا العنصر الفني المتوهج وركز كل اهتمامه على أن ينقل إلينا صورة عن جمال الإمارات وحسنها الخلاب وصحرائها المخضلة الأعشاب، وبهاليلها سادة الأعراب. وهي صورة جميلة لو نقلها إلينا بغير الشعر الصحفي لكانت أجمل..

ما لم أتوقعه في تحيته هو هذه الهفوات التي كان يجب أن تخلو منها قصيدة إكبار وتقدير والتي جاءت كالقذى في العين، والكلف في وجه الحسناء، والحق أني ترددت في كتابة هذه الكلمة بعد قراءتي لها مخافة أن لا يتسع لها الصدر.

فليأذن في عرض بعض الخدوش التي غيرت ملامح طائفة من أبياتها مع التذكير بأني لم أهتم كثيراً بمضمونها، إذ أن المضمون في نظري يفقد الكثير من قيمته إذا لم يستوف الشكل كل مقوماته وعناصر صياغته، وهذا لا يعني التنقيص من مضامينها باعتبار ذاتها... ومن المدهش أن أكثر هذه الهفوات رضوض صارخة في الوزن تخرج الشعر عن إيقاعه السليم، أو مخالفة لأصول اللغة وضوابطها.

أو فساد في المعنى لا يقبله الذوق.

وبكل إيجاز نمرّ مع الشاعر على هذه الأبيات المتعاقبة ليعيد النظر فيها من جديد.

• يقول :

نبـــل **الأصـــل** والفروع وأرض
قـد حبـا اللـه شيبهـا بـالشبـاب

فالبيت لا يستقيم في الخفيف إلا بحذف الهمزة في الأصل (نبل لصل) وهي همزة لا يجوز حذفها لأنها فاء الكلمة وأصل من أصولها، ويعجبني قوله :

قد حبا الله شيبها بالشباب

فهي ومضة شعرية لو قيلت وحدها لأغنت عما بعدها من فضول الكلام.

• ويقول :

هم غطاريف يعرب وبهاليل الإمارات سادة الأعراب !

وهو بيت هزيل المحتوى ولا رائحة فيه من شعر، فالغطاريف والبهاليل والسادة ثلاثة لمعنى واحد.

أما الأعراب فهي تذكرنا بتفرقة ابن خلدون بين العربي والأعرابي وبالوصف القرآني للأعراب - **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** - ويوحي بهذه التفرقة أيضا مقابلته ليعرب في صدر البيت، فهي إن لم تكن عنده غيرها في المعنى كانت بالضرورة تكرارا لها.

فما كان أحراه أن يتحاشى عنها لولا القافية التي كان يلهث وراءها.

• ويقول :

ومغـــانيـــك لـــلأبـــاة عرين

شـــامـــخ الصرح **راسيٌ** الأعتـــاب

فمن المستثقل في الفصيح إظهار الضمة على ياء المنقوص، وكان له عن ذلك مندوحة لو قال ثابت أو راسخ الأعتاب.

• ويقول :

أين يممت **أبهرتك** مشاريع نماء مغدودون الأهداب

وفيه استعمل الرباعي : أبهر، ولم تورده المعاجم إلا ثلاثيا فقيل : بهره، غلبه فهو مبهور، وبهر القمر : سطع ضوؤه فهو : باهر...

• ويقول :

سر شمالا أو سر جنـــوبـــا وشرقـــا

أو **غربـــا** تجـــد عجـــاب الرغـــاب

فقد أصرّ على أن يجعل من البيت «بوصلة» تستقطب كل الجهات الأربع، فألحق ذلك بالعجز كسراً لا يستقيم معه، ولو قال ثم غرباً لضمن سلامته من الكسر.

• ويقول :

ما لأقداسنا الحرام سوى العرب يفدون أهلها والروابي

والحرام ما يحمى ولا تنتهك حرمته

جاء في القرآن : ﴿**جعل الله الكعبة البيت الحرام**﴾ وجمعه حرم كما ورد فيه ﴿**منها أربعة حرم**﴾ ولكنه هنا وصف الأقداس الحرُم بالحرام أي إنه وصف الجمع بالمفرد. ولو كان جائزا لقيل أربعة حرام. ونحن معه في أن العرب وحدهم الذين سيخلصون أهلها وروابيها كما قال.. ولكننا لا نرى للروابي خصوصية أو مزية شرف تستوجب ذكرها بالذات فالاقتصار عليها استبعاد لما سواها..

• ويقول :

وأرى المغرب المعبأ شعبا يتحدى - **والله** - كل الصعاب

ولا أحد يشك اليوم في أن المغرب معبأ وراء قائده وأنه قادر على أن يتحدى كل الصعاب، فمن أحوجه واستحلفه بالله ؟ وهل كان مخاطبه في شك من ذلك لاسبيل إلى رفعه إلا بيمين ؟ لا أعتقد ذلك ولو أنه قال يتحدى بالعزم كل الصعاب لتجنب يمينا لم يطالبه بها أحد...

• ويقول :

والمثنى وآل نهيان صنوان وشعباهما **متحدي** الحباب

فمع الكسر الذي شوه عجز البيت يظهر عدم التطابق واضحا بين (شعباهما) متحدي العباب.

• ويقول :

والإمـــارات للعروبـــة مـــال

وللشرق منتـــدى الأحبـــاب

والكسر في عجز البيت واضح لا يستقيم إلا بكلمة (هي) :

هي للشرق منتدى الأحباب

وبعد فما كان أغنانا عن الخوض في هذه الصغائر لو أنها جاءت من متدرب يضع قدمه أول مرة، على سلم الشعر، ولكنها حسناء، والحسناء لا تعدم ذاما !

قراءة في "ديوان دعوة الحق"

للأستاذ عبد الجواد السقاط

تعززت المكتبة الأدبية في المغرب، بالمجموعة الشعرية التي أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تحت عنوان : «ديوان دعوة الحق، ووفاء وولاء»، وهي - كما جاء في الغلاف - «باقات شعرية مهداة إلى رمز الأمة المغربية، وباني وحدتها الترابية، سليل الدوحة النبوية الشريفة، وجوهرة عقد الدولة العلوية المجيدة، صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه».

ويضم هذا الديوان، الواقع في جزأين، مجموع القصائد التي جادت بها قرائح نخبة من الشعراء في مدح صاحب الجلالة أيده الله ونصره، طوال الخمس والعشرين سنة التي مرت على تربع جلالته على عرش أسلافه الميامين، والتي سبق لمجلة دعوة الحق الغراء أن نشرتها في حينها تباعا؛ هذه المجلة التي تعتبر منبرا يعنى بشؤون المعرفة والفكر، ويعمل على نشر الثقافة الإسلامية والوطنية ببلادنا منذ أن أسسها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه سنة 1376 هـ - 1957 م، فكانت بحق كما قال الشاعر :

ديـوان معرفـة تـدر ... ع قـالـة الفصحى إهـابـه
نطقت بكـل دقيقـة الـ ... مستحـدثـات بلا معـابـه
ونفت عن الفكر المـد ... فـق مـا اطلخم ومـا تشـابـه
وقضت على العقم السحيـ ... ـق ومـا استلـذ من الرتـابـه
لتكـون حقـا «دعـوة الـ ... حق» الحريـة بـاستجـابـه
برعـايـة الملـك الـذي ... أملى على الليـل انجيـابـه
الـذائـد المغـوار عن ... دين الهدى الحـامي جنـابـه[1]

ويجمع هذا الديوان بين دفتيه مائتين واثنتين وثلاثين قصيدة (232)، قدم لها معالى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بكلمة رقيقة استهلها بقوله :

«العرش مبادىء وقيم وتاريخ وحضارة وأمل وهو قدر المغرب

وهو وجهه وقلبه وروحه وفكره

1) الشاعر محمد الهاشمي زين العابدين، ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 122.

وإن شئت قلت هو المغرب والمغرب هو العرش»[2].

ومن هذا المنطلق الراسخ راح السيد الوزير يحلل ذلك التلاحم المتين القائم بين المغرب والعرش على امتداد العصور والأجيال، هذا التلاحم الذي هب «فرسان البيان وفحول الشعر منذ خمس وعشرين سنة وهم يتسابقون في حلبة التعبير، ويتنافسون في مضمار التحرير والتحبير، ويتجارون لأسر أوابد الشعر وشوارد التصوير، يحاولون التعبير عن الولاء والوفاء»[3].

وكانت مجلة دعوة الحق - يقول السيد الوزير - منبرا لهؤلاء الشعراء ومنتداهم، إذ «جمعت هذه الباقة الجميلة من شعر شعرائها، ووقفت بالأعتاب الشريفة تهديها إلى أب المغاربة جلالة الملك الحسن الثاني في الذكرى الخامسة والعشرين لتربعه على عرش أسلافه الكرام، راجية أن يشملها بعين الرضى والقبول»[4].

ويكتسي هذا الديوان أهمية كبرى سواء على الصعيد المعرفي أو الأدبي.

ففيما يتعلق بالصعيد المعرفي يعتبر هذا الديوان وثيقة تاريخية هامة، تمد القراء بجملة من الحقائق التي سجلها التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز لقائد الأمة المغربية وصانع مجدها جلالة الحسن الثاني أعز الله أمره، كما تخلد طفرة من الأحداث الأساسية التي طبعت تاريخ المغرب، وميزته بين غيره من دول المعمور. وهي حقائق وأحداث نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

1) تعلق الشعب المغربي بعاهله العظيم، وتشبثه بأهداب عرشه المجيد، ذلك التعلق الذي ما فتىء الشعراء يعبرون عنه كلما أتيحت لهم المناسبة، والذي لا يصدر عن المغاربة منهم فحسب، بل كذلك عن أشقائهم العرب مهما بعدت الديار وشطت المسافات، فهذا الشاعر الجزائري مفدي زكريا يقول :

أمير المومنين، فداك روحي
بياني عن مديحك لا يكل
عشقت حجاك عن ثقة وعلم
ومثلي في الهوى ثقة وعدل
ظلالك للأماجد وارفات
وعند وريفها كم أستظل
ولم أمدحك عن ملق وزلفى
فمدح الأكرمين لدى نبل[5]

وهذا الشاعر التونسي الطاهر القصار يفرز عواطفه نحو جلالة الملك، مؤكدا أنه خير خلف لخير سلف، إذ يقول :

أهنيك بالملك الذي أنت أهله
وبالعرش مرفوع العماد مدعما
أهنيك بالرضوان من خير والد
حدا بك للمثلى وأنشاك مسلما
ولقنك العرفان والعقل والهدى
وأسدى بما أسدى إليك وأنعما
فكنت بذا نعم الخليفة وارثا
مناقب شهم بالمكارم قد سما[6]

وهذا الشاعر الموريطاني المختار بن حامد يعترف أنه لن يوفق إلى الإجادة في مدح جلالة الملك مهما حاول إذ يردد :

فتنافس البلغاء في أمداحه
وتزاحم التسجيع والتقصيد
عزا بنثر كالنظام تقطعت
أسلاكه فانساب منه فريد
وعدوت في آثارهم أقتصها
وإجادة في المدح كنت أريد
وأبى نضوب الفكر عن تجويده
إن العيي يؤوده التجويد[7]

وعلى غرار ما جاشت هذه العواطف الصادقة والمشاعر النبيلة من نخبة من شعراء المغرب العربي، كذلك جاشت

2) ديوان دعوة الحق، ج 1، التقديم.
3) ديوان دعوة الحق، ج 1، التقديم.
4) ديوان دعوة الحق، ج 1، التقديم.
5) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 217.
6) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 36.
7) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 229.

عواطف إخوانهم في المشرق، يذكيها ما جبل عليه جلالة الملك من كريم الصفات وشريف المقاصد والغايات، فهذا الشاعر السعودي عثمان الصالح يقول من قصيدة :

يا أيها الحسن العظيم كفاحه
وبه ارتقيت على لأخطر منصب
أنت الأصيل جذوره وفروعه
من هامة الشرف الأعز بيعرب
حررت ملوب البلاد بحكمة
بعميقها أدركت أنبل مطلب[8]

وهذا الشاعر العراقي الدكتور باقر سماكة يعلن عن محبته وإجلاله فيقول من قصيدة :

يا سيدي جئت من بغداد أحملها
عواطفا من هوى في القلب موار
عواطف الحب كالأغصان ناشرة
ظلالها غب هطال ومدرار
إليك أرفعها رمز المحبة من
عراق بابل فجر النور والنار[9]

وهذا صوت ينطلق من رحاب الأزهر الشريف، على لسان أحد علمائه عبد الفتاح إمام فيقول :

مدحتك إنصافا وحبا ورغبة
ومن مدح الأشراف عاش مكرما
لئن وافت الأقدار آمال أمة
فكل رجانا أن تعيش وتسلما[10]

وهكذا يتضح أن الأمة العربية، على لسان شعرائها، تشارك الجماهير المغربية في التعلق برمز وحدتها وسيادتها، كما أن هؤلاء الشعراء يشاطرون الشعراء المغاربة في التعبير عن هذا التعلق، أمثال الشاعر محمد بن محمد العلمي القائل :

فمحبة العرش المجيد عقيدة
ما حدها في العالمين حدود
للعرش أخلصنا ونحو ندائه
قد هب أبناء لنا وجدود[11]

والشاعر عبد الكريم التواتي الذي يخاطب العرش قائلا :

يا عرشنا عرش شعب بالوفا لهج
وبالولاء هواه الجم مقترن
دامت عهودك للتشييد خالدة
آياتها بأثيل العز ترتهن[12]

وليس جديدا أن نقول إن العرش مهوى أفئدة المغاربة قاطبة، ومعقد آمالهم وطموحاتهم، ومجسد وحدتهم وتساكنهم، ومن ثم راح الشعراء - وكما يشهد بذلك هذا الديوان - يلحون على تأكيد هذه الآصرة المتينة، متنافسين في التعبير عن مشاعرهم نحوه، على حد ما نقرأ في مطلع قصيدة للشاعر عبد الكريم التواتي حيث يقول :

الله بارك عرشا للعلى بدرا
تتلو المفاخر من آياته سورا
عرش بنته أصول طاب محتدها
وسودته فروع تعشق الظفرا
عرش على العدل والإيمان أسسه
بنو علي فكان النور مزدهرا[13]

2) التأكيد على نسب جلالته الشريف، وما يرمز إليه هذا النسب من معاني السمو والطهارة، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾[14]. ونقتطف من هذه الباقة الشعرية قول الشاعر إدريس الجاي :

8) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 538.
9) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 523.
10) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 636.
11) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 77.
12) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 614.
13) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 101.
14) سورة الأحزاب، الآية 33.

سوى الإلـه من الطين الجسـوم ولـ
ـكن من شعـاع رسول الله سـواه[15]

وكذلك قول الشاعر قدور الورطاسي :

فـأنت يـا ابن رسـول اللـه أسـوتنـا
منـا الـولاء ومـا في الـود نقتصـد[16]

3) التنويه بما يتحلى به صاحب الجلالة من شيم نبيلة وصفات حميدة، تحله المقام الأسمى في النفوس، وتبوئه المكانة العليا في الضمائر والقلوب، وهي الشيم التي جمع الشاعر أبو بكر المريني بعضها في قوله :

العـزم ديـدنـه والحـزم صهـوتـه
واللين شيمتــه والعفـو والحــذر
والـدين حجتـه والقسـط ضـالتـه
والصـدق منطقــه والخير منهمر
آراؤه حكم، أفكـــــــاره غرر
أفعــالــه عبر، أقـوالــه درر[17]

4) الإشادة بمنجزات جلالة الملك في شتى الميادين، والتي سيذكرها التاريخ لجلالته بكل اعتزاز وفخر، نظرا لما جناه المغرب منها من طمأنينة ورخاء، وما نعم به بسببها من نهضة وتقدم على مستويات متعددة، كالتي أشار إليها الشاعر الحسن الحجوي من قصيدة :

ســادت بفضلكم البـلاد جميعهـا
وتفـــاخرت طرا بنيـل رجـــاء
أيقظتهـــا من نـومهـــا فتنبهت
لمـــا أنطت مصيرهـــا ببنـــاء
وأعـدت بـالنظم القـويمة مجـدهـا
فسمت بهمتكم إلى الجـــــــوزاء
وسرى التقـــدم في ربـوع ترابهـــا
من نفـح كـدك مثـل موج ضياء[18]

ومن بين هذه المنجزات نذكر على سبيل المثال إعادة بناء جلالته لمدينة أكادير بعدما هدها زلزال عام 1960 م، حيث يقول الشاعر عبد الكريم التواتي في هذا المجال :

أكـــادير أعيــد لهـــا رواهـــا
وأرغمت الـــزلازل أن تـــؤودا
أعــدت جحيمهـــا نعمى فـــأضحى
أوار القيـــظ ظـلا أو جليـــدا
أردت لهـــا النجـــاء وأنت أمن
فشـدت لأهلهـا الحصن المشيـدا[19]

ومن هذه المنجزات أيضا حرص جلالته على إقامة السدود التي من شأنها أن تفجر الخير والنماء في ربوع المغرب، كما نقرأ في شعر محمد بن علي العلوي وهو يخاطب وادي زيز الذي أقيم عليه السد المشهور :

إذا كنت يـــا زيـز فيمـــا مضى
تكن الخراب وتمحـــــــو القرى
فقـــد جــــاءك الحسن المرتقى
ليجعـل من مـــائــك الكـوثرا
يحـق لمن كـــان ذا فعلـــه
لمـــوطنــــه الحر أن يشكرا[20]

5) تخليد الأحداث البارزة في تاريخ المغرب خلال الخمس والعشرين سنة المنصرمة، وهي أحداث تعطي الدليل على متانة الروابط التي تجمع بين العرش والشعب، وتعكس ما يتمتعان به من تلاحم وتماسك. وفي هذا لإطار نشير مثلا إلى حدث المسيرة الخضراء المظفرة، الذي تغنى به شعراء كثر نقتطف من بين دررهم أبياتا للشاعر محمد الحلوي من قصيدة يصور فيها مراحل هذا الحدث

15) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 55.
16) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 602.
17) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 498.
18) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 89.
29) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 64.
20) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 87.

العظيم الذي قام على كتاب الله سبحانه، والإيمان بعدالة القضية، يقول :

أمـــة حققت مــواكبهـــا الخضـ
ـراء فتحـــا لم يكتسب بـــالجنـود
ذعر الغرب من مسيرة شعب
حـل فيهـا الهـدى محل الحـديـد
فتـــداعى بنــوه من كـل صــوب
ليروا زحفنـــا لأرض الجـــدود
بـالمصـاحيف مشرعـات وبــالأغـ
ـصـــان تسعى لفــك أعتى القيـود
حــدث رائـع يـجلــه الــدهـ
ـر لشعب مـــؤهـــل للخلـــود
وتعـــالت «اللــــه أكبر» في كـ
ـــل كثيب وعبر وهم الحـــدود
زلـزلت مـا بنـاه طغيـان مـدريـ
ـــد ودكت صنيـع كـل حقـود[21]

ومن هذه الأحداث أيضا نشير إلى الرحلات الميمونة التي مـا فتىء جلالـة الملك يقوم بهـا لصالح هـذا الـوطن وأهله، سواء تمت رحلات الخير والبركة هذه داخل المغرب لتفقد أحوال الأقـاليم المختلفـة، أو خـارج المغرب لتمتين الروابط مع الدول الشقيقة والصديقة؛ من ذلك مثلا قصيدة للشاعر إدريس الجاي هنأ فيها جلالة الملك إثر عودتـه من الديار التونسية، استهلها بقوله :

عــاد المليــك وعين اللــه ترعــاه
بشرى بمــا حملت للشعب يمنــاه
مـا أشرقت بـالأمــاني أرض مغربنـا
إلا التفتنـــا فـــألفينـــا محيـــاه
يسر سمـع إذا تروى محـــامـــده
ويفرح العين بعـــــد القلب مرآه
إن غـــاب عنــا قليــلا بــالكثير أتى
لـــذا نهلـل دومـــا حين لقيـــاه[22]

ومنه أيضا قصيدة للشاعر محمد بن محمد العلمي خلد فيها الزيارة الملكية المباركة إلى الأقاليم المسترجعة، جاء في مطلعها :

في رحلـــة الـوحـــدة والنمـــاء
أحلى معـــاني الحب والـــولاء
مـــا بين عرش نـــاصـع الصفـــاء
وشعبــــه السبــــاق للفــــداء
فـــالخير فيهمـــا بــلا انتهـــاء
يسر أهــل الأرض والسمـــاء[23]

وإلى هذا تضاف أحداث أخرى خلدها شعراء هذا الديوان بإبداعاتهم، وتنافسوا في الإعراب تجاههـا عن عواطفهم ومشاعرهم، كتدشين جلالته لحملة الكتاتيب القرآنية، وإقامته للدروس الرمضانية، واستقباله لبعض رؤساء الدول، وما إلى ذلك من الأحداث والمواقف.

6) بلورة اهتمامات جلالة الملك بالقضايا العربية والإسلامية، ومساهمته المستمرة في لم شتات الأمة العربية، وإذابة أسباب التفرقة بين شعوبها. وقد عبرت قصائد عديدة عن هذه الاهتمامات، كالأبيات التي نقرأها من قصيدة للشاعر محمد بن محمد العلمي في موضوع القضية الفلسطينية حيث يقول :

هـــــــــــذي فلسطين الحبيـ
ـبـة وهي بـــاكيـــة خجـولــه
مـــأســـاتهـــا في العـــالم الـ
ـمجنـون قـــد زادت ذهـولـــه
والمسجـــــــد الأقصى عنت
في قـدسـه الأيـدي الـدخيلـه[24]

---

21) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 286.
22) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 54.
23) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 627.
24) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 203.

والشاعر إذ يصور خطر القضية وضخامتها، يطمئن أخيرا إلى وجود جلالة الملك الساهر على هذه القضية باهتمام وعناية إذ يقول :

لكن هنا حسن الثـ

ـنل ساهر يملي حلوله[25]

وفي الإطار نفسه نقرأ أبياتا للشاعر وجيه فهمي صلاح حول المسجد الأقصى، إذ يصيح مستغيثا بجلالة الملك :

بطل المسيرة يا حفيد المصطفى

يا ملهم الأبطال قهر صعاب

أدرك رعاك الله مسرى المصطفى

في القدس من جور وأسر مرابي

المسجد الأقصى يئن ويشتكي

وبنوه أشتات أمام ذئاب

محرابه بيد العدو مؤرق

مَنْ غيرك المرجو للمحراب ؟

فيك الجلالة والمهابة والنهى

والعبقرية فوق كل حساب[26]

كما أشارت قصائد الديوان إلى المؤتمرات العربية والإسلامية التي حضرها المغرب ممثلا في شخص جلالة الملك الذي كان يتميز فيها جميعها بالصدارة والتفوق؛ وفي ذلك يقول الشاعر الحسن البونعماني منوها بمواقف جلالة الملك تجاه القضايا العربية والإسلامية عامة :

لبيك لبيك يا أندى الملوك يدا

ومن له الاعتلاء فوق كيوان

في كل مؤتمر أو كل معترك

نلت انتصارا بإقدام وإيمان

وأنت للسلم في الدنيا مدعمه

وأنت مذ كنت ذاك المصلح الباني

صنت الجوار فلم تعبث بحرمته

وكنت ملجأ أحباب وجيران[27]

وإلى جانب القضية العربية هذه، يبرز اهتمام جلالة الملك بالقضايا الإسلامية، ورعايته السامية للسنة النبوية الغراء في كل خطوة يخطوها جلالته. ولعل من أبرز ما يعكس هذا الاهتمام الملكي إقامة جلالته للدروس الرمضانية التي تعتبر منبرا إسلاميا متميزا يبلور سعة علم جلالته وشمولية إحاطته وإدراكه. وفي هذا المجال يقول الشاعر عبد الرحمن الدكالي من قصيدة :

يا أيها الحسن الإمام المرتجى

للعدل للإصلاح للعرفان

أحييت في شهر الصيام لياليا

تحيي أجل مقاصد ومعان

وتتبع الشعب الكريم دروسكم

في السنة الغراء والفرقان

في كل جمع كنت تسمع مثيننا

يثني على الحسن الحبيب الثاني

بالدين يا مولاي ترفع شأننا

فبه الهدى والرشد للإنسان[28]

وفي المجال نفسه تستوقفنا قصائد أخرى تعكس اهتمام جلالته بالعلم والمعرفة، وتؤكد حرص جلالته على نشر الثقافة الإسلامية في كافة ربوع المملكة. وكدليل على ذلك إحياء جلالته للكراسي العلمية التي تشع المعرفة والنور، وتشبع نهم المتعطشين إلى منابع الهدى والعرفان. ومن هذه القصائد أبيات للشاعر محمد بن حماد الصقلي بمناسبة أمر جلالته بإحياء كراسي العلم بجامع القرويين حيث يقول :

هو الحسن الثاني فكل كريمة

بهمته فالعسر من أمرها يسر

---

25) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 204.

26) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 457.

27) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 51.

28) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 41.

فأعظم بحامي الدين والعلم والإخا
وأعظم بأعمال يخلدها الدهر
كراسي الهدى بالأمس أعلى منارها
فأنوارها عمت وضاء بها القطر
وهذي كراسي العلم تبعث، إنه
ليوم مجيد لا يضاهى له قدر[29]

7) تجاوب الكلمة الشعرية مع المناسبات المختلفة التي يعيشها المغرب، والتي تعرب بدورها عما يجمع العرش والشعب من أواصر المحبة والهيام، وروابط التعلق والوصال.

ولعل أبرز هذه المناسبات، احتفال الشعب المغربي بعيد العرش المجيد، حيث يطفح هذا الديوان بالقصائد العرشيات التي يتبارى الشعراء بها في الإفصاح عن صادق عواطفهم وخالص أحاسيسهم بهذه المناسبة الخالدة، على غرار ما نقرأ من قصيدة للشاعر محمد أجانا وهو يستعرض بعض مميزات العرش قائلا :

هو عيد العرش رمزا لبلادي
قد حمى وحدتنا من كل شر
إنه يجمعنا في وحدة مث
لى وينفي كل تمزيق ونكر
يجمع الشمل وقد كان شتيتا
يجعل الشعب قويا دون كسر
إنما العرش لواء تحته نحـ
يا جميعا دون تمييز وعسر[30]

وكما تجاوبت الكلمة الشعرية مع هذه المناسبة الخالدة كلما حلت ذكراها العطرة الميمونة، كذلك تجاوبت مع غيرها من المناسبات التي نذكر منها :

• ذكرى عيد الشباب، وفيها نقتصر على قول الشاعر المدني الحمراوي من قصيدة بمناسبة الذكرى الأربعينية لميلاد جلالته :

هذه الأربعون جد ومجد
وأياد كريمة زهراء
وستحيا من بعدها تتفيا
ظل ملك أقطاره خضراء
ويمد الإله عمرا زكيا
يتولاه لطفه والوقاء[31]

• ذكرى ثورة الملك والشعب، ونستشهد عليها بقول الشاعر محمد بن محمد العلمي وهو يؤكد ما ترمز إليه هذه الذكرى من ثورة ضد التخلف بقيادة جلالة الحسن الثاني نصره الله :

هو الحسن الرائد المرتضى
عظيم المشاريع في الخطة
به المغرب الحر قد صار ورشا
يحث خطاه إلى العزة
يكافح في عمل مستمر
ويبني الصروح مع الدولة
تصاميمنا ثورة ونمو
عميم نراه بعفوية
أقاليمنا وقرانا انبعاث
فما أحسن الجد من فكرة ![32]

• ذكرى عيد الاستقلال وعودة الأسرة المالكة من المنفى، وفيها نقف أمام قصيدة للشاعر عبد الكريم التواتي يشدنا بها إلى تلك المرحلة الحاسمة في تاريخ المغرب، والتي توج الله كفاحه خلالها بعودة الأسرة المالكة إلى وطنها وعرشها واستقلال المغرب في عزة وكرامة، يقول في مطلع هذه القصيدة :

هي الأفراح تغمرنا فتونا
وتبدي من مباهجنا شؤونا
شؤونا قد كتمناها زمانا
وأخفينا ملذتها سنينا

29) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 610.
30) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 617.
31) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 110.
32) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 322.

كتمناهـا نغـالب من شجـاهـا
براكينـا تـؤج هـوى دفينـا
وأحـلامـا تهـز النفس شـوقـا
وتغمر بـالسنـا القلب الحـزينـا
لقـد رأت ابن يـوسف آب حرا
وأبنـاء ابن يـوسف مكرمينـا
وبشر بـالهنـا الحسن المفـدى
وقـال أبـوه : عـدنـا فـائـزينـا
لقـد عـادوا فهللت الأمـاني
بعـودتهم وأرقصت الشجـونـا
لقـد عـادوا وكـان العـود حمـدا
ونصرا قطـع الأعـدا الـوتينـا[33]

• إشراق طلعة سمو ولي العهد الجليل سيدي محمد، الذي ابتهج المغرب لميلاده السعيد، كما يقول الشاعر المدني الحمراوي من قصيدة :

الشعب من أعمـاقـه
عن بشره قـد عبرا
في كـل حي حفلـة
هـزت من الطرب الثرى
وبكـل بيت فرحـة
غمرت ببهجتهـا الـورى
القطر منهـا راقص
وبهـا زهـا وتنـورا[34]

• مناسبة ختان سموه المحبوب، وفي ذلك يقول الشاعر مفدي زكريا من قصيدة :

ختنـوه بفـاس، ينظر لـه الله
ـه ويحرس شبـابـه والمقـامـا
ختنـوه وليشهـد الحفـل إدريـ
ـس ويكبر في أصغريـه الفطـامـا

33) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 194.
34) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 157.
35) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 179.

ضمـدوا جرحـه الطهـور بفـاس
أي جرح لم يلق فيهـا التئـامـا[35]

• تأبين سمو الأميرة للا نزهة التي لبت داعي ربها في شهر رمضان الأبرك، والتي تجد الشاعر المدني الحمراوي يبكي فقدانها في شعره، ويعزي شقيقها جلالة الحسن الثاني فيقول :

إن تكن نـزهـة العـزيـزة أودت
فـإلى اللـه راجـع كـل أمر
ولنـا فيـك إذ بقيت عـزاء
يـا حبيبـا نراه أنفس ذخر
ورعى اللـه أسرة نفتـديهـا
وحمـاهـا من كـل خطب ونكر[36]

• مناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي، وفيها نقتطف قصيدة للشاعر محمد العربي الشاوش يذكر فيها بعظمة الرسول ﷺ وجهاده في سبيل نشر كلمة الله، ويختمها بمدح حفيده جلالة الحسن المفدى فيقول :

هـو الحسن المحسن المرتجى
لخير البـلاد ونيـل المرام
لـه في سبيـل الحمى خـدمـات
كشمس تبـدت بـدون غمـام
لـه في سبيـل النهـوض أيـاد
تفـوق نـدى حـاتم ذي الخيـام[37]

إلى أن يقول :

فـدم للبـلاد عـزيـزا عظيمـا
وللشعب تخطـو بـه لـلأمـام
وزادك ربـك عـزا ومجـدا
وللمغرب الحر أبقـاك حـام
سـلامي عليكم وحـي ثنـائي
وشكري لكم هـو مسـك الختـام[38]

36) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 393.
37) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 118.
38) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 119.

• إطلالة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، حيث نجد الشاعر محمد بن محمد العلمي في إحدى مطولاته يؤكد على مصداقية الإسلام كدين حطم الأوثان، ونظم الحياة الإنسانية بما دعاها إليه من نبيل الصفات وكريم الأخلاق، ويأمل أن يكون بزوغ القرن الخامس عشر الهجري تصحيحا للمسار الديني في العالم الإسلامي، متجها في الأخير إلى الإشادة والثناء على جلالة الحسن المفدى الذي ما فتىء يبذل من جهده ووقته لتصحيح هذا المسار، يقول :

وفي المغرب الأقصى تصح بشارة
بمطلع هذا القرن ذي الغرة البكر
فنحن هنا في نهضة حسنية
كتبنا معانيها النفيسة بالتبر
نزف التهاني كالعرائس رونقا
وننشد ألوانا من الشدو والشعر
ومن عجب أنا نثرنا ورودنا
وأحسن ما في الملتقى نفحة النثر
وأمتنا بالعرش مشرقة الروى
وبالحسن المحبوب مشدودة الأزر[39]

8) تمجيد الملك الراحل جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه، حيث إن من قصائد الديوان ما اتخذه الشعراء مناسبة للتنويه بهذا الملك العظيم الذي كان خير سلف لخير خلف، والذي كانت وفاته أكبر فاجعة مني بها المغرب. وفي هذا الإطار نذكر أبياتا من قصيدة للشاعر محمد معمري الزواوي يقول فيها :

من يجمع الأشتات بعد محمد
من يزهر الأوطان بالإصلاح
من يملأ الآذان نصحا مثله
وينير رشدا أعمق الأرواح
من تقصد الركبان من أقصى البلا
د لتستنير برأيه الوضاح
من يرحم الضعفاء مثل محمد
ويزيح عنهم أثقل الأرزاح
من ينشر الحرب العوان على الجها
لة كي ينير عقولنا بصلاح
ويقول جدوا في العلوم لتصلحوا
والعلم ضد الجهل خير سلاح[40]

على أن الشاعر يعود بعد تساؤلاته هذه ليشعر بالسعادة والطمأنينة لأن الملك الراحل طيب الله ثراه، قد عهد بأمور هذه الأمة ومقاليدها إلى نجله ووارث سره جلالة الحسن الثاني أيده الله، إذ يقول :

نم هانئا في نعمة الله الكريـ
ـم منعما بثوابه الفياح
أما البلاد ففي النعيم بنجلك الـ
ـحسن المثنى خدن كل سماح
يحذو مناهجك الكريمة موقنا
أن اقتفاك بها ضمان نجاح[41]

وإذا نحن خلصنا بعد هذا إلى الجانب الأدبي، أدركنا أن الديوان يعكس جملة من الخصائص التي يمكن أن نتعرض بعضها كالتالي :

1) إن قصائد الديوان تتميز بوحدة الموضوع، حيث إنها جميعا تندرج تحت إطار المدح كغرض أساسي، مع ما يتفرع إليه هذا الغرض من جزئيات ودقائق. ولعل في النماذج المعروضة سابقا ما يزكي هذه الخاصية.

2) إن هذا الديوان يغطي فترة هامة من تاريخ الحركة الأدبية في بلادنا، تلك الفترة التي تميزت بوجود العديد من الحوافز والمنشطات لاتساع هذه الحركة، وإعطائها الحجم الذي انتهت إليه في ظل رائد النهضة

---

39) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 504.
40) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 26.
41) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 27.

العلمية والأدبية جلالة الحسن الثاني أعز الله أمره، لما يوليه جلالته لهذا القطاع من أهمية خاصة، وما يتعهده به من حدب ورعاية، أطلقت ألسنة الشعراء بالمدح والثناء، وكأن لسان حالهم جميعا يقول :

أمولاي طاب المدح فيك وإنني
وحقك لولا الصدق ما كنت أنشد[42]

3) إن قصائد الديوان تمثل الواقع الذي عرفته الكلمة الشعرية في بلادنا، حيث إن من شعرائنا من حافظوا على التيار القديم، فراحوا يقلدون القدامى من الشعراء، سواء في مضامينهم أو أشكالهم، ومنهم من انساقوا مع موجة التجديد التي استطاعت أن تفرض نفسها كواقع ساهم في تكريسه مجموعة من المبدعين والنقاد، وفي هذا أيضا نوع من التقليد والتبعية لجماعة أبولو مثلا، أو مدرسة المهجر، ومنهم أخيرا من مزجوا بين التيارين معا، فتراهم حينا يقلدون ويحافظون، وحينا آخر يجددون ويبتكرون. ومن هنا يمكن أن نصنف قصائد هذا الديوان إلى عينات ثلاث هي الآتية :

- القصائد التقليدية التي اعتمدت الأوزان الخليلية والقوافي الموحدة، وهي الصنف الغالب على محتوى الديوان بصفة عامة، حيث إننا نلاحظ غلبة البحور ذات النفس الطويل كالبحر البسيط والكامل والطويل، كما أننا نلاحظ وحدة القافية إلا في نماذج قليلة، علاوة على ما يشم أحيانا من رائحة النسج على منوال بعض الشعراء القدامى كابن كلثوم الجاهلي وأبي تمام العباسي وأضرابهما من فحول الشعر العربي وأقطابه. ونكتفي للتمثيل لهذه الظاهرة بنموذجين اثنين، أحدهما للشاعر محمد بن علي العلوي القائل من قصيدة :

سلوا الهيجاء عنا كم تركنا
خصوما في الحروب مجندلينا

وكم عرفت مواطننا انتصارا
وكم حمل المحيط لنا سفينا

وكم كنا نجوب البحر نهدي
إلى سبل الرشاد الغافلينا

وها هي ذي مسيرتنا تخطى
لصحرانا الحواجز والحصونا

بأقدام السلام تدوس حدا
أقام حصونه المتجبرونا[43]

فلعل في هذه الأبيات نفسا من نونية عمرو بن كلثوم التي يعدد فيها هو الآخر فضائل قومه وقدرتهم على المواجهة والصمود حيث يقول :

ونحن إذا عماد الحي خرت
على الأحفاض نمنع من يلينا

ندافع عنهم الأعداء قدما
ونحمل عنهم ما حملونا

نطاعن ما تراخى الناس عنا
ونضرب بالسيوف إذا غشينا

بسمر من قنا الخطي لدن
ذوابل أو ببيض يعتلينا[44]

وأما ثانيهما فللشاعر المدني الحمراوي القائل من قصيدة يناجي فيها الصحراء :

صبرا قليلا فقد جاشت ضمائرنا
ولاح فجرك في داج من السحب

وكاد صائحنا يعلي عقيرته
بالزحف في جحفل معصوصب لجب

يمده مثله بل ضعفه عددا
ولو إلى غاية الآماد والحقب

ولا نبالي بمن يجتر إحنته
ولم يبادر إلى الحسنى ولم يجب

---

42) إدريس الجاي، ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 44.

43) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 337.

44) شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص 396.

فنحن نحن إذا هــاجت عــزائمنـــا
وصمت لم تهن، كـــلا ولم تخب[45]

فلعل هـذا القول يـذكرنا ببائية أبي تمام في فتح عمورية، والتي مطلعها :

السيف أصــدق أنبــاء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب[46]

ولعل هـذا الصنف من القصائـد يغلب عليه أحيانـا طابع الطول، حيث إن من قصائده ما كان يتجاوز المائتي بيت، كواحدة للشاعر محمد بن محمـد العلمي تبلغ مـائتين وسبعة وأربعين بيتا مطلعها :

بــك زدنـا بين الأنــام فخـــارا
وأقمنــا فــوق الثريـــا منـــارا[47]

ـ القصائـد التي مـال أصحابهـا إلى انتهاج مسلـك التجـديـد، سـواء على مستوى الـوزن حيث اعتمـدوا على البحـور الخفيفـة، أو على مستوى القـافيـة إذ لم يتقيـدوا بالقافيـة الواحـدة، أو على المستويين معا. وقـد ظهر ذلـك عند جملة من الشعراء نمثل لاثنين منهما.

فمن نماذج الشاعر أحمـد عبد السلام البقـالي نختـار قوله من قصيدة بعنوان : شعب المسيرة :

وقف العــــــالم يرنـــــو
لـــــك يـــــا شعب المسيره
وقفـــة الإعجـــاب بـــالمل
حمـــــــــة الكبرى المثيره
ومراميهـــا الخطيــــــره
وشعـــــوب الأرض قــــامت
لـــــك يـــــا شعب بـــلادي
بقلـــوب ملـــؤهــــا الحـ
ـب وأفــــواه تنـــــــادي
عشت يا شعب الميـــــره[48]

ومن نمـاذج الشـاعر عثمـان جوريو قولـه من قصيـدة تحت عنوان : عرشنا وصحراؤنا :

وطني أنت الأمـــــــــــــاني
وتراث الأولينـــــــــــــــــا
لم تـــزل رمـــز المعـــــالي
لـــلأبـــاة الطـــامحينـــا

☆ ☆ ☆

أخصبت فيـــــك حقـــول
بجهـــود العـــــاملينـــا
وأمـــدتهــــا ســــدود
تـسكب المـــاء المعينـــا[49]

ـ قصائد تأخذ طابعا متميزا يجمع بعضها بين التقليد والتجديد، بينما يغرق بعضها الآخر في التقليد.

فعلى المستوى الأول نستطيع أن نمثل ببعض القصائد لشعراء أمثـال المـدني الحمراوي حيث تعتبر هـذه القصائـد بمثـابـة ملاحم يقسمهـا أصحـابهـا إلى فقرات ويضعون لكـل فقرة عنوانـا، دون أن يلتزموا بوحـدة القـافيـة، وإن التزمـوا بوحـدة الـوزن. ومن نمـاذج ذلـك قصيـدة للشـاعر المـدني الحمراوي بعنوان : الملاحم الحسنية[50]، وأخرى له بعنوان : تحية إلى بلادي العظيمة، حيث قسمهـا إلى فقرات هـذه عناوينها ومطالعها :

مدخـــل :
يــــا بـلادي إليـــك ألف تحيـــه
تتغنى ربـوعـــك الـــذهبيـــه

مشرق النور والحضارة (فاس)
مشرق النـــور والحضـــارة فـــاس
يـــا لنـــور زهـــا بـــه النبراس

45) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 339.
46) ديوان أبي تمام، دار الفكر للجميع، بيروت، ص 14.
47) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 233.
48) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 419.
49) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 666.
50) أنظرها في ديوان دعوة الحق، ج 1 من ص 305 إلى ص 314.

مهب الفيالق (مراكش)

تلـــك مراكش مهب الفيـــالـــق

ودوي الطبـول مثـل الصــواعــق

صولة الإنقاذ (مكناس)

حي مكنـــاس حي عرشـــا ودارا

بعثت أمــــة وأحيت فخــــارا

المنطلق الجديد (رباط الفتح)

حي عرشـــا وقبـل الأركـــانـــا

أيهـــا العـز والتـزم إذ عـــانـــا

طلائع الجيل الجديد (من كل الجهات)

هـــذه من شبـــاب شعبي طـلائـع

قـادت الركب في غمـار المعـامع

ختام : أمة وعرش يفرضان وجودهما

يـــا زمـان استمـع فهـذا نـــداء

رددتـــه الأزمـــان والأرجـــاء[51]

أما على المستوى الثاني فنستطيع أن نستدل عليه بأرجوزة الشاعر محمد بن محمد العلمي التي تربطنا بظاهرة التقليد حيث إنها تتصل بنمط من الشعر قديم، ولكنها تتقيد بالقافية الواحدة، بل بالقافية نفسها في كافة الصدور والأعجاز، مما أضفى عليها مسحة من الصنعة تبدو في مثل قوله :

مراكش في نشـــوة عـــــذراء

تنعم بـــــالعطف والاجتبـــــاء

فهي بمـــا تشمـل من أفيـــاء

منطلـق الحمـــائم البيضـــاء

تلـــك أكــــادير من النعمــــاء

ترفـل في أثـوابهـــا الحسنـــاء

تصـــدح في الـوصـــال بـالغنـــاء

وترتـــوي من كـــوثر الهنـــاء

بشرى لهـــا بـــذلـــك المينـــاء

مستـــودع النهضـــــة والثراء[52]

4) تتميز قصائد الديوان، أو معظمها، بصفاء اللغة وسلاسة الأسلوب، الشيء الذي يعكس مدى تمكن شعراء الديوان من اللغة فهما واستعمالا، ورغبتهم في الحفاظ عليها ناصعة واضحة مبينة. وقد نتج عن هذه الرغبة أن جاء أسلوبهم أميل إلى الوضوح والإشراق، وجاءت تعابيرهم تربط واقع الشعر العربي بماضيه، نظرا لما يطبع هذا الواقع من ميل نحو الخصائص الفنية القديمة، وتوسل بعناصر التشبيه والاستعارة والبديع، على غرار ما كان يفعل الشعراء القدامى عبر العصور المختلفة.

وتجنبا للإطالة، نكتفي بالإشارة في ميدان البديع مثلا إلى ظاهرة الاقتباس، متمثلة في قول الشاعر إدريس الجاي من قصيدة :

يـــا عـــاهلي جـادت يـداك بفيـ

ـض الخير، فـالشكر علينـــا وجب

كم منن للشعب أســــديتهـــا

فـــانهمرت كـــالـوابـل المنسكب

فـــاهتـزت الأرض لهـــا وربت

وانبت من كـــــل حب وأب[53]

فلعل مضمون الأبيات، وتعبير صدر البيت الأخير منها، مقتبسان من قوله تعالى من سورة فصلت : ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾[54].

وظاهرة الجناس في قول الشاعر عبد الكريم التواتي :

وأضـــاءت أنـواره سبـل الخيـ

ـر وعمت أنـواؤه كـل فـدفـد[55]

51) أنظرها كاملة في ديوان دعوة الحق، ج 1 من ص 140 إلى ص 147.

52) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 627.

53) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 249.

54) الآية رقم 39.

55) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 542.

وظاهرة الطباق في قول الشاعر المدني الحمراوي :

دوت رواعدها في كل دانية

وكل قاصية في السهل والحزن[56]

أما في ميدان الصور الشعرية، والتي كان أغلبها يقوم على التشبيه والاستعارة، فنقتصر على قول الشاعر محمد الحلوي وهو ينشد :

يا يومها والشمس در شعاعها

ذهبا على ذهب الكثيب المائد

دوت مدافعها فزلزلت الربى

وأضاءت الصحرا بنور واقد

وتفجرت برك النعيم كأنها

سيل من اللهب المطل الصاعد[57]

هذا علاوة على ما تتميز به بعض قصائد الديوان من تكرار إن على مستوى اللفظ أو العبارة، ولعل الشعراء، وهم يجنحون إلى هذا النمط من التعبير، يهدفون إلى الإقناع والتأثير، على غرار قول الشاعر محمد بن علي العلوي من قصيدة :

كم طريق وكم معابد شيدت

كم ديار بها الشبيبة تقرا

كم أراض قد وزعت وبذور

تملأ الحقل والمزارع برا

كم سدود وكم معامل أضحت

عن حمانا تزيل جدبا وفقرا[58]

وإذا كان هذا النموذج يرمز إلى تكرار اللفظ الواحد، فإن النموذج الآتي يرمز إلى تكرار التعبير نفسه، حيث يقول الشاعر عبد الكريم التواتي من قصيدة :

رأت فيه سناء عاش يسبي

بحب يملأ الدنيا فتونا

رأت فيه الذي بهر الليالي

وأخلب لبها وشفى العيونا

رأت فيه زعيما مشمخرا

أبي العزم فداء أمينا

رأت فيه أخا سمحا عطوفا

وأما برة وأبا حنونا[59]

على أن من الشعراء من كان يتوسل بالتكرار، لا على مستوى اللفظ أو العبارة، ولكن على مستوى الإيقاع الصوتي كما نلمس ذلك في أبيات للشاعر مقدي زكريا يقول فيها :

وما حسناته إلا سطور

محجلة يموج بها السجل

وما وثباته إلا سفين

به انطلق الشراع المستقل

وما هبواته إلا سرايا

يواكب زحفها دين وعقل

وما عرصاته إلا منار

إذا التبست لدرب المجد سبل[60]

5) تكاد قصائد الديوان تلتقي حول بناء هندسي واحد اعتمده شعراؤها حيث إننا نلاحظ أنهم يدخلون الموضوع مباشرة دون الاستهلال بتلكم المقدمات الطللية أو الغزلية التي اعتاد عدد من شعراء المديح أن يفتتحوا بها قصائدهم في الموضوع. وإذا كان منهم من اعتمد هذه المقدمة الغزلية ـ وهم قلة قليلة ـ فإنهم قلدوا فيها الشاعر الكميت بن زيد الأسدي الذي قال في إحدى هاشمياته :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا مني، أذو الشب يلعب

ولم يلهني دار ولا رسم منزل

ولم يتطربني بنان مخضب

56) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 435.

57) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 509.

58) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 231.

59) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 195.

60) ديوان دعوة الحق، ج 1، ص 216.

ولكن إلى أهـل الفضـائـل والنهى
وخيربني حـواء، والخير يطلب[61]

ونمثل لهذا بقصيدة للشاعر محمد البوعناني بعنوان : «فردوس المساعيد» حيث يستهلها بقوله :

لـيـلاي ردي إلى ليلي أنـاشيـدي
وبـاعـدي بين إبداعي وتقليـدي
سـأبـدع اليـوم لحنـا لم تغن بـه
عرب ولاسمعتـه الجن في البيـد
وبـدعـة الشعراء الظـامئين إلى
عينيـك مـاشربـوا إلا بتحـديـد
تنهلـوا وأمـــانيهم تـؤججهـــا
تحـولـة فـاستظلـوا دون تبريـد
إلا أنـــا فلقـــد أشبعت ملحمتي
وقـد علمت تهـاليلي وتغريـدي
كمـا علمت بـأني مـا قصدتـك في
شعري سـوى كي تمري خلف مقصودي[62]

وبعد ذلك تخلص إلى موضوعه الرئيسي - وهو المدح - فقال :

قصدت بـابـك يـا خـزان مكرمـة
وليـس بـابـك في القتوى بمسـدود
ولست أحنى لهـوجـاء الريـاح ولا
أهـوى الـدوالي بـلا ظـل وعنقـود
أثم من تـافيـلالت النخـل مقتبسـا
من الحجـاز شعـاعـا غير مـوؤود
وعرشنـــا خلف يقتـــات من سلف
منـاقبـا كلهـا تيجـان تخليـد[63]

على أن معظم شعراء الـديوان يختمون قصـائـدهم بخاتمة متشابهة يعربون فيها عن آمالهم في أن يمد الله سبحانه وتعالى في عمر جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله، ويقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب سيدي محمد وصنوه السعيد المولى رشيد، وفق ما يدل عليه النموذج الآتي للشاعر عبد الكريم التواتي :

أيهـــا المجتبى المثنى تحيـــا
ت أبي في مـــدحكم يتمـــادى
وبـــأمجـــاد عرشكم يتغنى
في ولاء ويصطفيهـــا اعتـــدادا
يكـلأ اللـــه سعيكم وخطـــاكم
ويفيض التـوفيـق والإرشـــادا
وبشبـــل إلى النبـــوة ينمى
قـــد أقر العيـــون والأكبـــادا
ولي العهـــد يـــا محمـــد زكيـ
ـت وأبقيت للمثنى عمـــــادا
والرشيـــد السعيـــد يحفظـــه اللـ
ـــه ويـولي أيـامـــه إسعـادا[64]

☆ ☆ ☆

وخلاصة القول أن ديوان دعوة الحق هذا يعتبر وثيقة تاريخية وأدبية هـامـة، ترصع مفرق الأمـة المغربيـة، كما يعتبر غرة ناصعة تنير جبين مجلة دعوة الحق الغراء، نقدمها اليوم للقراء، في هذه المناسبة الغالية على قلوب المغاربة كافة، والتي تخلد الذكرى السابعة والخمسين لميلاد حبيب الأمة المغربية ورائد وحدتها ونهضتها، وقـائـد مسيرتها نحو النماء والتطور، جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله أمره، وخلد في الصالحات ذكره، وأقر عينه بفلذات كبده الأجلاء، سمو ولي العهد الجليل سيدي محمـد، وصنوه المجيـد المولى رشيـد، وباقي الأميرات الجليلات، وحقق للمغرب على يـديـه الكريمتين مـا يصبو إليـه من طموحـات وتطلعات، إنه على كل شيء قدير، وبالاستجابة جدير.

61) الكميت بن زيد شاعر العصر المرواني وقصائده الهاشميات، لعبد المتعال الصعيدي دار الفكر العربي، القاهرة، مطبعة الرسالة، ص 118.
62) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 397.
63) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 397.
64) ديوان دعوة الحق، ج 2، ص 559.



• نص العرض الذي قدم به الأستاذ محمد الراوندي أطروحته بدار الحديث الحسنية لنيل درجة دكتوراه الدولة في موضوع «أبي الفتح اليعمري : حياته وتراثه وتحقيق أجوبته» أمام لجنة تتكون من الأساتذة : الدكتورة عائشة عبد الرحمن (مشرفة ورئيسة)، الدكتور محمد فاروق النبهان، الدكتور محمد بنشريفة، والدكتور محمد الكتاني.

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

أساتذتي الكرام، زملائي وإخواني الطلاب.

أقف اليوم في هذه الدار التي أسست على تقوى من الله ورضوان، لأقدم بين يدي أساتذتي الكرام وأصدقائي الطلاب أطروحتي التي تفضلوا رغم أعبائهم الثقال، وشواغلهم العلمية الجسام، فشرفوني بقراءتها وفحصها، وأجازوها لهذه المناقشة، ولقد مضى على تسجيلي لهذه الأطروحة عشر سنين، وكان في تقديري أن أتقدم بها ناجزةً قبل خمس سنوات على الأقل، لولا ظروف وعوائق أرجأت تقديمها،

ورب ضارة نافعة، ولعلي لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخترت هذا «الذي وقع»، ذلك أنه ما مرّ يوم من تلك السنين لم أعثر فيه على ما يضاف، استكمالا أو استدراكا أو تهذيباً، ولا مرّ موسم من المواسم دون أن أظفر بجديد من ذخائر التراث في علوم الحديث ورجاله، مما عاد على بحثي بالفائدة.

وشاء الله تعالى، له الحمد والمنة، أن يأتي يومنا هذا الذي عشت أرتجيه منتظرا متطلعاً، **على موعد مع الاحتفال التاريخي لشعبي ووطني بالعيد الخامس والعشرين لتربع مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني، أيده الله، على عرش أسلافه المنعمين - طيب الله ثراهم.**

وإنه لمن يمن الطالع، أن أشارك في أفراح هذا العيد، بتقديم أطروحتي في علوم الحديث، **إلى دار الحديث الحسنية التي أسسها مولانا أمير المؤمنين، دام عزه ونصره، لتكون مركز إشعاع وإحياء للتراث القرآني والحديثي، فعسى أن أكون من أبناء العهد الحسني الذين سهر مولانا المنصور بالله على إعدادهم وتوجيههم، ليكونوا جند الأمة المخلصين، الذين ناط بهم جلالتُه الوفاء بحاجة الأمة في مختلف الجبهات والمواقع.**

وإني لأرجو أن يكون لي من يمن هذا الطالع، ما يشدُّ أزري في موقف الامتحان والمناقشة، وما يؤنس إلى قبول عملي، ونجاح مساعي.

موضوع أطروحتي : «أبو الفتح اليعمري : حياته وآثاره، وتحقيق أجوبته».

وترجع صلتي بأبي الفتح ابن سيد الناس اليعمري وتراثه، إلى الوقت الذي كنت أشتغل فيه بموضوع الصحابة الشعراء، إذ كان كتابه «**منح المدح**» من أصل المصادر التي أفدت منها في ذلك البحث. فدعاني إعجابي بالكتاب وصاحبه إلى محاولة التعرف على المزيد من تراثه، فوقع بين يدي **مخطوط لأجوبة له على سؤالات وجهها إليه أحد أعيان تلامذته، في مواضيع من الحديث وعلله ورجاله** مما كان يشغل المهتمين بعلوم الحديث ورواته في عصر ابن سيد الناس، فاستخرت الله تعالى، وقيدت موضوع «**أبي الفتح ابن سيد الناس حياته وآثاره، وتحقيق أجوبته**».

ولعلي في اتجاهي إلى اختياره، كنت متأثراً، من حيث أدري أو لا أدري، بكونه يمثل طبقة من أعيان علماء الغرب الإسلامي، قلما اتجهت عناية الدارسين إليهم، وأعني بهم : مهاجرة المغرب والأندلس، ممن حملتهم ظروف وأوضاع على الرحيل إلى المشرق، لم يرحلوا إليه طلاب علم، كالعهد بالطبقات الأولى من المغاربة الذين رحلوا رحلاتهم العلمية المشهورة، وإنما نزحوا إلى المشرق، مزودين بما تلقوا من علوم، وحاملين ذخائر من التراث، ونوادر من الأصول.

واستطاعوا في مهاجرهم أن يرسخوا وجودهم العلمي، فانتهت إلى عدد منهم، غير قليل الإمامة والرئاسة، وتوارث خلف منهم ميراثهم العلمي، فكانت منهم بيوتات علمية، وأسر قضاء ورواية.

وقد ظلوا في غربتهم، على اعتزاز، بأوطانهم وأنسابهم، لا يعرفون إلا بها حيثما حلوا، لم يفرطوا فيها، ولم يتنكروا لها وبهذه الأوطان والأنساب عرف بنوهم الذين ولدوا في مهاجرهم.

وإذا كنا على وعي بقيمة من قدم المغرب للتاريخ من أعلام، فصرفنا العناية إلى الاهتمام بالمشهورين منهم، فإن في هؤلاء النازحين من سلفنا، ومن ولد لهم في مهاجرهم، من يستحق أن نصرف إليه عنايتنا، لنجلو ما قدمه من خدمة جليلة لعلوم العربية والإسلام تدريسا وتصنيفا.

كانت أولى خطوات البحث والتنقيب عن تراث أبي الفتح اليعمري أن وقفت على الأجوبة كما أسلفت، فوجدت فيها ذخيرة ثمينة في الحديث وعلومه ورجاله تجلو لنا ملامح شخصية مؤلفها حافظا محدثا راوية، راسخ الدراية بعلل الحديث وعلومه ورجاله ورواته وطبقاتهم، مع مشاركة مرموقة في اللغة والفقه وأصوله.

وتعلقت في هذه المرحلة من دراستي العليا بتقديم هذه الذخيرة إلى حياتنا العلمية وثيقة هامة، وبدا لي أن بذل الجهد في تحقيقها مرجو لأن يحيي ذخيرة مقضيا عليها بالضياع، ويثري المكتبة الحديثية بأثر قيم من آثار علمائنا المغاربة المهاجرة إلى المشرق.

ومنَّ الله عليَّ بأعوام عشتها مع الحافظ أبي الفتح اليعمري في تراثه ومصادر دراسته، وصلتني بمكتبة الحديث الشريف وحملته، في آفاقها الرحبة ومنهجها الأصيل الدقيق، وكانت أستاذتي المشرفة طوال هذه المدة تصحبني وتوجه خطاي، وتزودني بما كنت أحتاج إليه من توجيه إلى آفاق البحث، ومصادره...

وهكذا اقتضى النظر أن تكون الأطروحة في جزءين - كما ترون -

الجزء الأول : لأبي الفتح ابن سيد الناس حياته وآثاره.

الجزء الثاني : لتحقيق أجوبته.

☆ ☆ ☆

فأما الجزء الأول، فيقع في أربعة فصول :

الفصل الأول : لبيت أبي الفتح وميراثه وعصره.

الفصل الثاني : لحياته.

الفصل الثالث : لمشيخته.

الفصل الرابع : لآثاره وتلاميذه.

☆ ☆ ☆

يعتبر الفصل الأول تمهيدا ضروريا للكشف عن جذور أبي الفتح اليعمري، موصول النسب إلى آبائه، في هجرتهم من الشام إلى الأندلس، وتنقلاتهم فيها، ثم رحيلهم عنها إلى طنجة فبجاية وتونس، حيث انشعب البيت إلى فرعين، فرع ظل في تونس، واتجه الفرع الآخر إلى مصر حيث ولد أبو الفتح اليعمري.

وفيما بين العدوتين ومصر، كان للأسرة جاهها التالد في السياسة والعلم، فاقتضى ذلك الإلمام بأوضاع العصر والسياسة، هذا العصر الذي شهد تصدع الحصون الإسلامية في الأندلس، والإعصار التتري في المشرق، وضغط الصليبية في حملاتها المتتالية بالمشرق والمغرب، فجاء الفصل عن البيت والميراث والعصر في أربعة مباحث :

المبحث الأول : للبيت اليعمري :

وفيه تناولت نسبهم في يعمر، ومنشأهم في منبج بالشام، ومنها كان نزوحهم في كتائب الفتوح الأولى التي اتجهت إلى الأندلس، واستقروا بأبذة وما جاورها من أعمال جيانْ التي كانت دار اليعمريين بالأندلس.

ويظهر أن لقب ابن سيد الناس الذي غلب على هذا البيت، من الجد الثاني عشر لأبي الفتح، كان مما تأثلوه بأبذة جيان.

وفي الاضطراب الذي عاشته الأندلس في حركة الانتقال من الحكم المرابطي إلى الموحدي، وظهور بعض المغامرين الطامعين في الحكم، ظلت الأسرة بما لها من جاه ونفوذ على ولاء للبيعة الموحدية، مما عرضها لمحنة تغريب من ديارهم إلى العدوة، حتى استتب الأمر للدعوة الموحدية بالأندلس فأسعفوا بإرجاعهم إليها حيث أنزلوا في إشبيلية، وبها طال مقامهم، وتأثلوا أملاكا وجاها. وظلوا بها إلى تغلب العدو عليها.

بإحدى قرى اشبيلية كان مولد الفقيه أبي بكر ابن سيد الناس جد أبي الفتح، ومن اشبيلية كانت الهجرة إلى العدوة حيث ولد بطنجة أبو عمرو ابن سيد والد أبي الفتح - ووالده أبو بكر وقتئذ متصد للإقراء والإمامة بجامعها الأعظم إلى أن انتقل إلى سبتة. التي لم يطل مقامه بها، فاستقر مدة ببجاية حيث عرف فضله ودينه وعلمه، فقدم إلى الإمامة والتدريس بجامعها، ووصلت شهرته إلى عاصمة الحفصيين تونس، حيث استدعاه المستنصر الحفصي فقربه، وكان من أخص من يحضر مجلسه، وطاب مقامه بتونس إلى أن وافته المنية. وكانت مكانته العلمية سبب حظوته عند الأمير الحفصي.

في المبحث الثاني : «الميراث العلمي للبيت اليعمري» تناولت فيه المكانة العلمية لأجداد أبي الفتح منذ كانوا في جيان، حيث يلقانا جدهم الأعلى الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحي مغربا مع بنيه الأربعة الفقهاء الأنباه : أحدهم أبو محمد عبد الله، والد أبي العباس أحمد ابن سيد الناس والد أبي بكر ابن سيد الناس جد أبي الفتح.

أبو العباس المذكور كان من علماء القراءات، أضاف إلى ميراثه الفقهي من أبيه الفقيه أبي محمد، وجده أبي عبد الله، ميراث جده لأمه أبي الحسين اللخمي الإشبيلي المقرئ الإمام، ووالدته أم العفاف نزهة، كما أضاف أبو بكر

ابنه رصيده العلمي إلى تراث أجداده لأمه وأبيه، فكان حافظا للقرآن منسوبا إلى تجويده وإتقانه ذا حظ في التفسير ورواية الحديث مع الفضل والدين متسع الرواية عن شيوخ ضمنهم برنامجه الذي وقف عليه ابن عبد الملك ونقل منه ما نقل من أشياخ أبي بكر وقال : «يتعذر إحصاؤهم ويدعو إلى السآمة استقصاؤهم».

وتجاوزت شهرته الأندلس والمغرب، فعرفه المشارقة حافظا نظارا، به ختم هذا الشأن بالمغرب على حدّ عبارة الشريف عز الدين الحسيني في وفياته.

وحمل ميراثه العلمي ابنه أبو عمرو ابن سيد الناس والد أبي الفتح ونزح بهذا الميراث إلى مصر ومعه خزانة عامرة نوه بها المترجمون، وأخذ موضعه في مصر شيخا من كبار الشيوخ، فتولى مشيخة الحديث بالمدرسة الكاملية كبرى مدارس الحديث بمصر، وكان من كبار الرواة لكتب أندلسية معروفة.

وفي القاهرة ولد لأبي عمرو أربعة أبناء من أعيان المئة الثامنة، أشهرهم أبو الفتح صاحبنا.

☆ ☆ ☆

ولعل هجرة أبي عمرو من تونس كانت من آثار نكبة سياسية حلت بالبيت اليعمري بعد وفاة عميده أبي بكر بتونس.

فكان المبحث الثالث للميراث السياسي للبيت اليعمري : تناولت فيه ما كان لهذا البيت من جاه سياسي، ملأ به أعلام منهم تاريخ الأندلس وتونس لقرنين من الزمن، فمحنة تغريبهم من الأندلس إلى العدوة كانت شاهدا على خطر جاههم. كما كانوا من بيوتات إشبيلية التي يرجع إليها في المشورة، قال ابن خلدون : «واضطربت الأندلس وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو وثار ابن الأحمر يرجو التماسك لما بقي من رمق الأندلس، وفاوض أهل الشورى يومئذ بإشبيلية وهم : بنو الباجي، وبنو الجد، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون.

ولعل مكانة البيت اليعمري في إشبيلية من دواعي استدعاء المستنصر الحفصي لأبي بكر ابن سيد الناس عرفانا بسابقته عند والده الأمير أبي زكرياء.

هذا الجاه السياسي ظهر متألقا في تونس بقرب أبي بكر من المستنصر وما استوثق بينهما من ألفة حميمة تعبر عنها أبيات للمستنصر بعث بها إلى أبي بكر في علة رمد ألمت بعينيه، قال :

ما حال عينيك يا عين الزمان فقد
أورثتني حزنا من أجل عينيكا
وليس لي حيلة غير الدعاء فيا
ربي، «براوي الصحيحين» حنانيكا

فأجابه الحافظ أبو المطرف بن عميرة المخزومي، خدمة عن الحافظ أبي بكر ابن سيد الناس :

مولاي حالهما والله صالحة
لما سألت، فأعلى الله حاليكا
ما كان من سفر أو كان من حضر
حتى تكون الثريا دون نعليكا

بعد موت أبي بكر ابن سيد الناس، كان أول بنيه ظهورا في خضم الأحداث السياسية أبو العباس أحمد الذي تولى الحجابة لأبي فارس وسطع نجمه في أفق تونس مشاركا إلى مدى بعيد في توجيه الأحداث، في صراع شرس على السلطة بين الحفصيين، انتهى به إلى أن يستدعى إلى باب القصر حيث تعاورته السيوف فخلفه في هذا الجاه أخوه أبو الحسين بعد أن كان نجا من المذبحة، ولاذ بالهرب. حتى سنحت الظروف بعودته على مسرح السياسة فتولى الحجابة للسلطان أبي زكرياء إلى أن مات أعظم ما كان رئاسة، وأقرب من صاحبه مكانا وسرا، وترك ابنه محمد بن أبي الحسين وليدا يتيما فكفله السلطان أبو زكرياء فشب ربيب القصر يعامل معاملة الأمراء، ويعرف رجال الدولة موضعه من السلطان ويؤثرونه بالتجلة والاحترام.

في عهد أبي يحي بن أبي إسحاق بلغ محمد ابن سيد الناس من جاه الرياسة والإمارة ما لم يبلغه سلفه، فتقوى

مركزه وفوض في الأمور إلى أن تغير السلطان عليه، فامتحنه بأنواع من العذاب، وقتله.

وأسدل الستار على فرع البيت اليعمري بتونس بعد مصرع محمد ابن عم أبي الفتح ابن سيد الناس الذي استمر فيه الجاه العلمي للبيت اليعمري بمصر.

☆ ☆ ☆

وإذ اقتربت من أبي الفتح ألقيت نظرة على عصره في رؤية عامة، كانت موضوع المبحث الرابع.

حاولت فيه أن أركز على جوانب مستخلصة دون أن يغيب صاحبي عن هذه الرؤية التي تدرك أن الرجال يؤثرون في التاريخ، كما أن التاريخ يترك آثاره في شخصياتهم.

أبو الفتح من مخضرمي القرنين السابع والثامن الهجري عاش عمره في دولة المماليك الأولى التي شهدت الحروب الصليبية ونهايتها كما شهدت اجتياح التتر للشرق الإسلامي، وهذا العصر من أشد العصور حاجة إلى وضوح رؤية، فقد تضاربت الآراء فيه، وتدافعت أقوال الدارسين وأحكامهم، بحيث يشق تبين حقيقة العصر وواقعه، وقد حجبته فكرة شائعة عنه، أدخلته في ظلمات عصور الانحطاط التي يبدأ ليلها عند جمهرة المحدثين، من اجتياح التتر للمشرق الإسلامي في القرن السابع الهجري، ثم لا ينتهي ذلك الليل الطويل عندهم إلا ببزوغ فجر العصر الحديث.

وجرت الأحكام مطلقة على تاريخ الإسلام لستة قرون، بالتخلف الحضاري.

وقد أكون ممن ترددوا في التسليم بهذه الأحكام، ورابني من أمرها ما نؤول إليه في دراستنا، من ذخائر لأئمة من علماء السلف ينتمون إلى ذلك العصر المقول بدخوله في ظلمات ليل الانحطاط والتخلف، وكان يمر بي فيما أرجع إليه من تلك الذخائر، شهادات عالية للعصر من كبار مؤرخيه، لعلي لم ألق إليها بالاً من قبل، حتى أخذني «أبو الفتح اليعمري» إلى عصره، واحتجت إلى أن تصح لي فكرة عنه فرجعت إلى ما كتب عن العصر، وعرضته على ما صح لدي في رؤية شاملة، لشتى وجهات النظر : المغولية، والصليبية الأوربية، ودراسات المحدثين، ثم قابلت هذا كله على ما كتبه مؤرخو العصر من شهود أحداثه، فأعطت هذه الرؤية ظواهر عامة للعصر، لعل أهمها :

- ظهور العامة على مسرح الأحداث، ومكانة العلماء عند الشعب والسلاطين، وبدا لي أن الدراسات الحديثة لهذا العصر متأثرة إلى حد بعيد بوجهات النظر الغربية، بحيث لا تقوى على الوقوف أمام وثائق الشهود من مؤرخيه.

وقيل فيما قيل : إن علماء عصر المماليك، لم يزيدوا على تراث السلف إلا بالإثقال عليه بالشروح والذيول والحواشي والمختصرات...

فلئن صح هذا القول، لقد أسدوا إلى الإسلام وعلومه خدمة جليلة سنية ما أرانا اليوم نقدرها حق قدرها.

عصر المماليك بدأ بعد أن ضاعت كنوز التراث الإسلامي، ولقيت خزائنه الكبرى مصيرها التعس في المغرب والمشرق.

وعلماء عصر المماليك هم الذين ندبوا أنفسهم لاستنقاذ بقايا تلك الذخائر النفيسة والكنوز الضائعة، لا بما اقتنوا في خزائنهم الخاصة وما حمله النازحون من ديارهم فحسب، بل وبما وعت صدورهم كذلك وما سجلته سماعاتهم وقراءاتهم على شيوخهم، لمرويات ومصنفات لأئمة السلف، لم تصل إلينا إلا من طريق هؤلاء العلماء، كاملة أو مبثوثة في نقولهم ومصنفاتهم.

☆ ☆ ☆

حياة اليعمري صفحة من كتاب التاريخ العلمي لعصره، شاهدة على ازدهاره، قد عرضتها في الفصل الثاني الخاص بحياة أبي الفتح. في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول : نشأته ودراسته.

المبحث الثاني : رحلاته العلمية.

المبحث الثالث : وظائفه وشخصيته.

☆ ☆ ☆

مهدت لهذا الفصل بعرض موجز للمصادر والمراجع، كان أبو الفتح وتراثه في المرتبة الأولى، ولعل الأجوبة

أسخى وأصل مصدر زودني بمادة موثقة لا أجدها في مصادر أخرى.

يلي تراثه كمصدر، ما كتبه مترجموه من معاصريه وفيهم أقرانه وأصحابه، كالبرزالي، والذهبي، والأدفوي وابن فضل الله العمري والصلاح الصفدى، والتاج السبكي وغيرهم.

ويجب التنويه هنا بمترجمين من هذه الطبقة من معاصريه :

أولهما : «الصلاح الصفدي» وهو من خاصة تلاميذه وأصحابه، رحل إليه من صفد وأقام عنده سنتين في المدرسة الظاهرية بالقاهرة، يقرأ عليه ويأخذ عنه، فعرفه من قرب، ثم اتصل بينهما التراسل بعد عودة الصفدي إلى بلده، حتى آخر سنة من حياة شيخه، ودوّن في (ألحان السواجع) النصوص الكاملة للرسائل المتبادلة بينهما كما أنه في كتبه الأخرى يكثر من النقل عنه، ويذكر أخبارا ومواقف، توضح ملامح شخصيته وجوانب من حياته.

وثانيهما : «الذهبي، شيخ الإسلام» أوجز القول في ترجمة أبي الفتح اليعمرى في (ذيل العبر، ودول الإسلام، وشيوخ التذكرة) لكنه كان سخي العطاء في كتابه الكبير (تاريخ الإسلام)، وفي (معجم شيوخه) حيث دون من أخبار العصر وفي تراجم شيوخه، ما يتصل بأبي الفتح اليعمرى من قرب.

كما دون الذهبي أخبارا عن رحلته إلى مصر للقاء شيوخها حيث صحبه أبو الفتح اليعمري، في آخرين إلى الاسكندرية للسماع. ومنها استطعت أن أؤرخ لرحلة أبي الفتح الثالثة إلى الاسكندرية بعد رحلتين له إليها معروفتين.

ثم تأتي طبقة من مترجميه في القرن التاسع كالسراج ابن الملقن والتقى الفاسي وابن ناصر الدين، والمقريزي، وابن قاضي شهبة، وابن حجر، والبدر العيني، وابن تغري بردي وغيرهم.

وأشير هنا إلى أن ابن الملقن، من تلاميذ أبي الفتح اليعمرى أسمع عليه وأجازه كما أن أغلب رجال هذه الطبقة، أدركوا تلاميذ أبي الفتح وفيهم شيوخ لهم ولعلهم سمعوا منهم، من أخبار أبي الفتح، ما تدوول شفاها، ولم يدون.

وكتاب (ذيل التقييد للتقى الفاسي) أفادني كثيرا في تاريخ الحياة العلمية لأبي الفتح اليعمري وتراجم شيوخه وتلاميذه.

ولا يقل عنه أهمية وجدوى، كتاب الدرر الكامنة، للحافظ شيخ الإسلام ابن حجر. ومعجم شيوخه أيضا «المجمع المؤسس».

وبعد هؤلاء تأتي طبقات من المترجمين في القرن العاشر فما بعده وليست في تراجمهم إضافة جديرة بالتنويه.

☆ ☆ ☆

بعد هذا التمهيد عن المصادر والمراجع تتبعت مسيرته من مهد مولده بالقاهرة حيث حمله والده الفقيه أبو عمرو إلى كبير مسندي العصر النجيب عبد اللطيف الحراني الذي أجازه وكناه أبا الفتح، ثم حضوره المبكر في مجالس الحديث قبل أن يبلغ خمس سنوات إلى أن قام برحلاته العلمية إلى الأسكندرية والشام والحجاز، ورصدت ما تلقاه خلال كل ذلك عن شيوخ الوقت، وفيها اتجهت إليه الأنظار طالب علم متعدد المواهب، جذاب الشخصية، جميل الخط، رائق الشعر، فائق النثر، إلى جانب باعه الطويل في علوم الحديث والرجال، وتابع السير في الحياة العلمية موضع إعجاب من شيوخه وأقرانه ومعاصريه.

☆ ☆ ☆

والراجح أن ظهور مخايل نجابة ابن سيد الناس في ذلك العهد المبكر جعل شيخه ابن دقيق العيد يعرض عليه الذهاب إلى «قوص» لتدريس الحديث بها، وقوص وقتئذ من حواضر العلم بمصر، وهي بلد الشيخ ابن دقيق العيد القشيري وآله القشيريين.

وبعد وفاة شيخه الإسعردى في السبعين من عمره، خلفه على منصبه متصدرا لإفادة طلبة الكاملية - من جهة شيخها ابن دقيق العيد - وهو في نحو الحادية والعشرين من

عمره. وفوض إليه الشيخ «مشيخة دار الحديث المهذبية بظاهر القاهرة».

وفي نحو الخامسة والعشرين من عمره، تصدر لتدريس الحديث بالمدرسة الفخرية خلفا لشيخه المسند «الضياء السبتي».

وغير بعيد من ذلك الوقت، قدمه شيخه الصديق العالم (سنجر الدوادار) إلى السلطان لاجين، وقال :

«أحضرت لك هذا، وهو كبير من أهل العلم».

وزكاه لدى السلطان، مما سمع من شعره ومن كلامه وما رأى من خطه وكتابته فقال : «ينبغي أن يكون في ديوان الانشاء».

ووصفه الذين صحبوه وعرفوه من قرب بجمال الشكل والهيئة وإشراق الطلعة وكرم الأخلاق والظرف والعشرة، وحلاوة النادرة ولطف الدعابة وأنس المحضر، وخفة الظل والروح : (ما رآه أحد إلا أحبه).

وقيل فيه : «لم تر العيون مثله ولا رأى مثل نفسه».

ووصفوه بأنه كان كيسا كثير الحياء والاحتمال، والتواضع ودماثة الطبع ولين الجانب وعذوبة الفطرة والتودد إلى الناس، حتى قال فيه صاحبه الصفدي :

له هزة من أريحية نفسه
تكاد لها الأرض الجديبة تخصب

خلائق لو يلقى «زياد» مثالها
إذن لم يقل : «أي الرجال المهذب» ؟

عجبت له، لم يزه تيها بنفسه
ونحن به، نختال زهوا ونعجب

ويبدو أن هذه السجايا هي التي جذبت إليه رواد ناديه وفيهم عدد من الأمراء وأعيان الدولة، طاب لهم مجلسه الممتع.

فكان أن مسه من صحبتهم ومعاشرتهم أذى وملام من قبل بعض العلماء، ولعل أشد ماغاظهم من هذه المعاشرة، أن شغلته بقدر ما، عن التفرغ للعلم، درسا وتصنيفا، وكان المرجو لو أنه أخلص له وقته وباله، أن يزيد في عطائه ويبلغ غاية ما تؤهله له مواهبه الفذة ورسوخه في العلم رواية ودراية.

وتعجب السلطان الملك الناصر من جنازته الحافلة، وسأل الجلال القزويني في صبيحة ذلك اليوم عنه، فعرفه بحاله وذكر له مقداره، وكان الفخر ناظر الجيوش يغض منه فقال للملك الناصر : «إنه كان مع ذلك يعاشر الأمراء والوزراء قديما ويشهد عندهم».

فذكر الملك الناصر ذلك للجلال القزويني وتقي الدين الأخنائي فبرآه من ذلك وشهدا بعدالته ونزاهته وعفته.

وتذاكر الملك الناصر مع مستشاريه العلماء فيمن يخلف أبا الفتح في مناصبه العلمية وقال : هذا رجل كبير القدر، فما نعطي وظائفه إلا لمن كان مثله. ـ رثاه صاحبه الصفدي فقال :

هيهات ما كان فتح الدين حين مضى
والله إلا فريدا في معاليه

كم حاز فضلا يقول القائلون له
لو حازك الليل لابيضت دياجيه

لا تسأل الناس، سلني عن خلائقه
لتأخذ الماء عني من مجاريه

ماذا أقول ؟، وما للناس من صفة
محمودة قط، إلا ركبت فيه

كالشمس، كل الورى يدري محاسنها
والكاف زائدة، لا كاف تشبيه

☆ ☆ ☆

بعد هذا العرض لحياته الخصبة الحافلة عقدت الفصل الثالث لمشيخته في مبحثين :

أولهما : للشيوخ.

والثاني للمرويات.

فأما الشيوخ فابن سيد الناس ينتمي إلى عصر يعتز علماؤه بلقاء الشيوخ، ويحرص طلاب العلم على الإكثار منهم.

ومترجمو «أبي الفتح» يتناقلون قول الذهبي في ترجمته : «ولعل شيوخه يقاربون الألف».

لكنهم لا يذكرون له، غير عدد قليل، نظروا فيهم إلى علو الإسناد : أو إلى طول الصحبة، والملازمة.

ووجدت أن الحياة العلمية لأبي الفتح، تقتضي أن أستكمل ما استطعت، هذا الجانب الهام الذي لا يغني فيه ذكر بضعة شيوخ من كثرة قاربوا الألف.

فخرجت له معجما، اتجهت فيه أولا إلى تجريد الشيوخ الذين روى عنهم، في أسانيده بكل ما جمعت من تراثه، وأضفت إليهم من وقفت عليهم في تجريدي لكتب التاريخ والطبقات.

وقد تجاوز عددهم مئة وثمانين شيخا، إن يكن عددهم قليلا بالنسبة إلى شيوخ يقاربون الألف، فإنه ليس بقليل إذا قيس بالقلة المذكورين بأسمائهم في ترجمته.

والقدر الذي وصلت إليه، يكفي على أي حال، لاعطاء رؤية شاملة واضحة، لما سبق ذكره في حياته العلمية من سعة مشيخته، ورحابة آفاق دراسته.

ثم خرجت مرويات أبي الفتح عن شيوخه : أفردتها في المبحث الثاني استئناسا بما وصل إلينا من (ورقات عنيزة) حيث كتب أبو الفتح بخطه بعض مسموعاته على نسق خاص : فذكر على الهامش اسم الكتاب والجزء المسموع، مذيلا بكلمة «شيخ» ثم دوّن في المتن طريق الرواية عن الشيخ وسنده إلى مصنف الكتاب وتاريخ السماع ومكانه.

ويحتمل، أن تكون الورقات، بهذا النسق قطعة من برنامج ضاع أكثره، أو أن يكون قد بدأ في تدوين برنامج لم يكمله.

وينبغي أن أنبه هنا، على أنني في تخريج هذه المرويات بأسمائها، أسعفني ما جردته من أسانيده في تراثه، وقابلت كل إسناد، على نظائره، حيثما جاء في كتاب له، مع الاستئناس بما وقفت عليه من أسانيد الحفاظ.

إذن فالتراث اليعمري، كان معتمدي الأول في كل فصول هذه الرسالة.

ومن فضل الله علي، أنه يسر لي من ذوي النبل والمروءة، من أعانوني على تحقيق ما طمحت إليه منذ بدأت صحبتي لابن سيد الناس، في جمع كل المعروف لعصرنا من تراثه الموزع على خزائن شتى بأقطار المشرق والمغرب، ومنه كانت المادة الموثّقة لما قدمت عن البيت اليعمري وميراثه، وعن أولية أبي الفتح ودراسته ورحلاته وشيوخه ومروياته ومناصبه، وفيه تبينت ملامح شخصيته.

ولم أتجه في عرضي للمصنفات اليعمرية إلى تقييمها إذ كل كتاب منها جدير بأن يستقل بدراسة خاصة لا تتسع لها هذه الدراسة.

فاقتصرت على التعريف بها، وتدوين ما وقفت عليه من كتب صنفت عليها، مع ذكر من حملوا تراثه من تلاميذه، رواية وتحديثا.

ابتدأت بكتابه العمدة «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» ويعرف بالسيرة الكبرى وهي أشهر مصنفاته على الإطلاق، فما يكاد يذكر إلا ذكرت معه، وكأنها لشهرتها من كمال التعريف به. ولها الصدارة في تصانيفه عند مترجميه.

وموضعها يأتي كذلك في صدر المصنفات اليعمرية من حيث الترتيب الزمني، ما أعلم له كتابا صنفه قبلها، وقد أحال عليها في تصانيفه المبكرة والمتأخرة.

ومن يوم إخراجها للناس عقد مجالس للتحديث بها، وحرص الطلاب على حملها عنه سماعا وقراءة وإجازة، فلا يحصى عدد من حملها عنه، فاقتصرت على ذكر من وقفت على روايتهم لها ومن حملها عنهم من أعيان الحفاظ.

ومن يوم إخراجها للناس توارد العلماء عليها في المشرق والمغرب مختصرين وشارحين وناظمين.

وأول من صنف عليها أبو الفتح نفسه : اختصرها في كتابه «نور العيون» وهو مطبوع متداول.

كما وقفت على اختصار لأبي عبد الله المرغيتي السوسي وهو من نوادر الخزانة الحسنية بالرباط.

ووقفت على مختصر آخر بعنوان «عين الأثر بمحاسن السير» في خزانة دار الكتب المصرية.

ومن صنف على العيون النور الحلبي في كتابه «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»، وهو مطبوع متداول.

- وفي خزانة بلدية الاسكندرية أرجوزة تقارب الألف عنوانها :

نظم اختصار سيرة الرسول

لليعمري الحافظ النبيل

أما الشروح فوقفت على شرح العز ابن جماعة بخطه.

وشرح الحافظ سبط ابن العجمي الحلبي في كتابه : «نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس».

وشرح ابن المبرد الحنبلي : «الاقتباس في حل مشكل سيرة ابن سيد الناس».

- وفي ترجمة السخاوي لنفسه بالضوء اللامع ذكر أنه ألف ختمة على سيرة ابن سيد الناس سماها «رفع الإلباس في ختم سيرة ابن سيد الناس».

- والواقع أني في تتبعي لموضع (عيون الأثر) في عصر أبي الفتح وما بعده، ظهر بوضوح أنها صارت منذ ألفت الكتاب المدرسي المعتمد للسيرة النبوية، الجامع لما تفرق منها في كتب السير والمغازي والدلائل والشمائل، وروافدها من كتب الصحابة والحديث والسنن والتاريخ والأنساب قدمها حافظ فقيه نظار.

- بعد العيون قدمت ديوان «بشرى اللبيب بذكرى الحبيب» وشرحه.

الديوان تسع وعشرون قصيدة نبوية قوافيها على حروف المعجم، وعليها صنف شرحه.

وقد وصل إلينا في عدة نسخ خطية، بعضها فيه قصائد الديوان مفردة عن الشروح، وبعضها فيه القصائد مع شروحها، وقد ذكرت وصفا للنسخ وأماكن وجودها.

- وعلى غرار ديوان بشرى اللبيب وشرحه : قصيدته الميمية المطولة في أسماء الصحابة الشعراء أصحاب المدح النبوية وقد شرحها في كتابه الجليل «منح المدح»، وقد عرفت بنسخ الكتاب وأماكن وجودها.

وديوان ثالث من شعره هو المقامات العلية في الكرامات الجلية، ذكر فيه كرامات الصحابة رضوان الله عليهم.

- ثم بعد ذلك قدمت كتابه الجليل شرح الترمذي المسمى «النفح الشذي في شرح الترمذي»، وقد وقفت على قطعة منه بالخزانة المحمودية بالمدينة المنورة بخطه الرائق الجميل وهي المسودة، إذ يكثر فيها الضرب والمحو وإضافات مطولة على الهوامش طولا وعرضا، وورقات طيارة بمستدركات له، وتتكامل هذه النسخة مع «نسخة لا له لي باستامبول» التي تحتوي على استدراكات قيمة، وتعاليق ثمينة لعلها لمالك النسخة أحمد ابن العجمي.

وقد ندب الحافظ الإمام زين الدين العراقي نفسه لإكمال هذا الشرح الجليل على نسقه ولم يكمله أيضا.

وقد أتيح لي الوقوف على نسخة من إكمال العراقي بخط الحافظ ابن حجر بالمحمودية، قال في ديباجتها بعد التنويه بجامع الترمذي، «ولكنه ليس عليه شرح يناسبه، ولا يداني التناسب ولا يقاربه، وكتب القاضي الإمام أبو بكر ابن العربي شرحه المسمى بعارضة الأحوذي، وليس المفهوم بتلك العارضة بمعتذ، وشرع الحافظ العلامة (ابن سيد الناس) في شرح أطال الكلام عليه، لكن اخترمته المنية قبل إكماله، وقبل تقضي أمانيه منه وآماله. لاخترامه فجأة بقادح الحمام، فشرعت في البناء عليه».

ومما وقفت عليه من تراثه :

كتاب «هوامش الاستيعاب» وهو من تجريد الحافظ سبط ابن العجمي في نسخة الحافظ ابن سيد الناس لهوامش بخطه على استيعاب ابن عبد البر وما استدركه أبو إسحاق ابن الأمين على ابن عبد البر أيضا.

ووقفت على جزء نفيس من الاستيعاب عليه حواش بخط الحافظ ابن سيد الناس بالرباط، ولعل هذا الجزء الذي وقفت عليه أحد أجزاء النسخة اليعمرية من كتاب الاستيعاب، وهي التي وقف عليها سبط ابن العجمي، وجرد منها ما جرد، وتعتبر أقدم نسخة لكتاب الاستيعاب، ولم تدخل - للأسف - ضمن النسخ المعتمدة لطبع هذا الكتاب الجليل، رغم تعدد طبعاته، إذ لا علم للمحققين بها.

ويضاف إلى تراثه الورقات التي بخطه في عنيزة، وقد سبقت الإشارة إليها في هذا العرض.

بذلك أكون قد ظفرت بكل المعروف من تراثه فيما عدا كتابين، ذكرا له ولم أقف عليهما، وهما :

«تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة».

«ومصنف في العروض».

واستكمالا لآثاره ورواته من تلاميذه ختمت هذا الباب بمن ذكر من أصحابه في كتب التراجم ومعاجم الشيوخ لإيضاح اتساع التلمذة ورحابة مجالها الزمني ممتدة من الذين توفوا في حياته إلى منتصف العقد الثاني من القرن التاسع.

وعن طريقهم اتصلت الرواية لتراثه في الطبقات التالية لهم.

بتراث اليعمري وتلاميذه انتهى الجزء الأول ليبتدئ الجزء الثاني وهو خاص بالنص المحقق للأجوبة.

وأقول مع ذلك إن الجزء الأول بكل فصوله ومباحثه مستمد إلى درجة واضحة من الأجوبة وموطئ لها.

☆ ☆ ☆

والأجوبة نوع من التأليف، من جليل عطاء المدرسة الحديثية يشبه أن يكون مما، تميزت به، وقد جرت العادة أن يتجه أنباه الطلاب إلى شيوخهم الحفاظ الأئمة، بسؤالات عن قضايا شاغلة في الرواية والعلل والرجال، فيجيب الشيوخ عنها، وتدون أجوبتهم وتستقل في مصنفات مفردة، تروى، وتدخل في تصانيف الشيوخ، فتعرف إما بسؤالات من سألوهم، أو بأجوبة من أجابوا.

وهذه الأجوبة جليلة القدر بما تحرر من مسائل دقيقة، ونوادر ومشكلات ربما لا نظفر بها إلا في هذه الأجوبة أو عند من نقل منها.

وقد ظهر هذا الصنف في عصر مبكر، لا أجازف بتحديد بدايته، ولكن يمكن الاطمئنان إلى أن الأجوبة التي وصلت إلينا من القرن الثالث، عليها سمة النضج، بما يشهد أنها ليست البداية الأولى، كأجوبة يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، والبخاري والنسائي.

وتوالي ظهور السؤالات والأجوبة في القرون التالية، فلا تكاد تخلو طبقة من سائلين ومجيبين.

في هذا المجال، تدخل أجوبة ابن سيد الناس.

فأما السائل فهو أحد أعيان الحفاظ في القرن الثامن : أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي أبو الحسين الدمياطي (700 ـ 749 هـ) حلاه تلميذه أبو المحاسن الحسيني بالشيخ الإمام الحافظ المخرج المفيد.

كانت لابن أيبك عناية مشهودة بالحديث، وتخريج معاجم الشيوخ والتنقيب عن الرواة، ومعرفة راسخة بالرجال والتاريخ، ذيل على «وفيات العز الحسيني»، وألف «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد». وتشهد الأسئلة التي وجهها إلى أبي الفتح بمستواه العلمي الرفيع، وسعة أفقه في الرواية، وحرصه على الاطمئنان إلى ما هو موضع نظر أو توقف.

وأما الأسئلة فعددها تسعة وخمسون سؤالا، كتب بها ابن أيبك إلى شيخه الحافظ أبي الفتح في أحد شهور سنة 731 هـ وهي لا تخرج في عمومها عن مجال الحديث ومختلفة، ومتعارضة وعلله ورجاله، وبعض من تكلم فيه من الرواة، وأحوالهم وصحة إجازات وسماعات، وقضايا أخرى تدخل في مصطلح الحديث من اضطراب أحاديث، وتدقيق بعض الألقاب في الجرح والتعديل.

ويشغل رجال الحديث القدر الأكبر من الأجوبة سواء منهم من ترجم لهم ابن سيد الناس جوابا عن أحفظ من لقي، أو من سئل عنهم من أعلام الرواة كابن مسدي، وابن دحية، وابن أبي جمرة، وعبد الخالق النشتبري وغيرهم، والذي في الأجوبة من مباحث فقهية ومسائل أصولية ونكت لغوية متعلق بسؤالات في أحاديث داخلة في هذا المجال.

ونواجه غياب الأجوبة في ثبت مصنفات أبي الفتح عند مترجميه، فلم يذكرها كل من ترجموه، ومنهم تلامذته، بل إن منهم من ترجمه وذكر مصنفاته ولم يذكر معها الأجوبة مع نقله منها واعتماده عليها كالأدفوي في البدر السافر والتاج السبكي في الطبقات الكبرى للشافعية.

ومعهم أيضا طبقة من مترجميه في القرن التاسع ذكروا مصنفاته وأغفلوا ذكر الأجوبة، مع معرفتهم بها وتصريحهم بالنقل منها، كالتقى الفاسي والحافظ ابن حجر.

ولا أجد لهذه الملاحظة من تفسير، إلا أن يكون ثبت مصنفات أبي الفتح قد آل مترجموه فيه إلى أقرب أصحابه إليه... وأوثقهم صلة به، وأكثرهم أخذا عنه، وأعني الصلاح الصفدي، الذي ترجم لشيخه بتوسع في الوافي والأعيان.

والصلاح الصفدي موضع ثقة في ابن سيد الناس، لأنه ينقل ثبت مصنفات شيخه من إجازة له كتب إليه بها أبو الفتح بخطه في جمادى الأولى سنة 728 قبل أن يتلقى سؤالات ابن أيبك فضلا عن أن يجيب عنها.

ومع ذلك فإن الأجوبة لم تكن قط مجهولة ولا مغمورة، بل كانت متداولة بين علماء الحديث والرجال في عصر أبي الفتح فما بعده.

وقد وصل إلينا مخطوط الأجوبة في نسخة وحيدة فيما أعلم، توجد بالاسكوريال كتبت سنة 994 هـ. وقد يجبر انقطاع السند بين تاريخ نسخ النسخة أواخر العاشر وتاريخ كتابة أبي الفتح للأجوبة قبيل وفاته سنة 731 رواية ابن فهد لها بإسناد إذ ضن لنا اتصال الإسناد إلى وفاته أواخر القرن التاسع (871 هـ) فيقرب في الاحتمال إدراك ناسخ الأجوبة لطبقة تلاميذ ابن فهد والرواة عنه.

أما من حيث توثيق نسب الأجوبة إلى أبي الفتح اليعمري، فإن الأسئلة إليه والأجوبة منه، وترد في المتن أسانيد له من طريق شيوخه المعروفين لنا أو مروياته عنهم، وهي متكررة في أكثر مصنفاته، كما ترد إحالاته على مؤلفاته بأسمائها، كشرحه للترمذي، وكتابه عيون الأثر.

وفي الجواب عن أحفظ من لقي، ترجم لستة عشر شيخا، ذكر لقاءه بهم وما روى عنهم، وعنه نقل الناقلون في تراجم هؤلاء الشيوخ مصرحين بالنقل عنه من الأجوبة.

وفي الجواب عن تاريخ وفاة والده وشيوخه المغاربة وبعض مروياته عنهم ما يرفع كل شبهة عن نسبة الأجوبة إلى أبي الفتح اليعمري.

فلم أكن في الواقع بحاجة إلى معاناة توثيق نسب المخطوط إلى أبي الفتح، وإنما كانت الصعوبة حقا في تحقيق المتن من نسخة وحيدة لا تخلو من مواضع اللبس في الخط، واشتباه في الرسم، واضطراب في السياق بسقط أو بياض أو تصحيف في أسماء الأعلام... مما فرض عليّ تحديد نهج للتحقيق، فحاولت تأسيس هذا النهج على أربع دعائم.

- الأولى : حيثما أمكن الرجوع إلى ما كتبه المؤلف في مصنفاته فالمقابلة على ما كتب المؤلف.

- الثانية : حيثما نقل عن مصدر متقدم صرح به، أو رجحت النقل منه، فالرجوع إلى المصدر المتقدم، والمقابلة عليه.

- الثالثة : حيثما آل الناقلون إلى الأجوبة، اعتبرت نقولهم نسخا للمقابلة.

- الرابعة : أعلام المتن، وهي مظنة التحريف والتصحيف، مما ليس للاجتهاد فيه مجال، كانت كتب التراجم المعتمدة مراجعي للتثبت والتصحيح.

وقد أجدى عليّ هذا النهج في إقامة متن الأجوبة بما أطمئن إلى سلامته في الجملة، فيما عدا مواضع ما يزال في النفس منها شيء، لم تسعف عليها الوسائل القاصرة، أو قصرت عنها الطاقة المحدودة.

وبقدر ما أُسعفتني المصادر على إقامة المتن، وتحقيق أعلامه، وتوثيق أسانيده، والتثبت من نقوله، كشفت المقابلة عن رجحان رواية الأجوبة على بعض هذه المصادر.

☆ ☆ ☆

وأود أن أقر هنا بما أدين به للسادة النبلاء الذين أسعفوني بما تعذر علي الوصول إليه من مخطوطات :

- سمو الأمير سعود الفيصل الذي زودني بمخطوطات من خزائن تركيا يعز الوصول إليها.

- والشيخ حبيب محمود أحمد من علماء المدينة المنورة الذي يسر لي الحصول على شرح الترمذي بخط ابن سيد النّاس.

ـ الدكتور نور الدين علي الذي صور لي كتاب «بشرى اللبيب» من طهران.

وإلى القائمين على شؤون الخزائن في المشرق والمغرب وأوربا صادق الامتنان والعرفان بالجميل، الخزانة الحسنية والعامة والصبيحية ودار الحديث بالرباط، وخزانة ابن يوسف بمراكش، وخزانة الجامع الكبير بمكناس، والعامة بتطوان، والقرويين بفاس، وخزانة الاسكوريال وكوبنهاجن وباريس وروما وفرانكفورت، والمدينة المنورة، والقاهرة والاسكندرية.

وأحيي بغاية الإكبار معالي الوزير الفقيه الجليل الأستاذ الحاج محمد أبا حنيني الذي كان لعطفه وتشجيعه ورعايته للبحث وصاحبه أكبر الأثر في إنجازه.

وأدين للأخ الزميل والصديق الحميم معالي الوزير الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بما تعجز العبارة عن الوفاء بحقه، فالله يتولى عني مثوبته.

والشكر الجميل مجددا لأساتذتي الأفاضل الذين تفضلوا بقراءة هذا العمل المرهق فتجشموا من عناء الرسالة والمشاركة في مناقشتها ما لست في حاجة إلى بيانه.

ولأساتذتي المشرفة الاعتذار قبل الشكر، فإن إنجاز هذا العمل لم يكن هينا، ولها الحق أن تصف هذه الولادة بأنها كانت عسرة، فعهدا لها أن أكون لطلابي كما كانت لنا.

وللسادة الأفاضل الذين آنسوني بحضورهم في موقفي هذا أصدق الامتنان والعرفان.

وأعتذر للسادة العلماء المناقشين عما تخلل الطبع من أخطاء فاحشة جارت على تنسيق الأشعار خاصة.

وبعد، فليس من قبيل التزكية لهذا العمل ـ وهو ما لا ينبغي لي ـ الإقرار بأن الذي تعلمته في إعداد هذا البحث جاوز ما قدرته وما تعلق به طموحي ورجائي، ويدخل فيما تعلمته اليقين بأن هذا العلم الشريف «علم الحديث النبوي» بحر لا ساحل له، وأن بلوغ الكمال فيه غاية لا تدرك، بل يظل المجال مفتوحا أبدا لجديد من الإضافة والتصحيح والاستدراك.

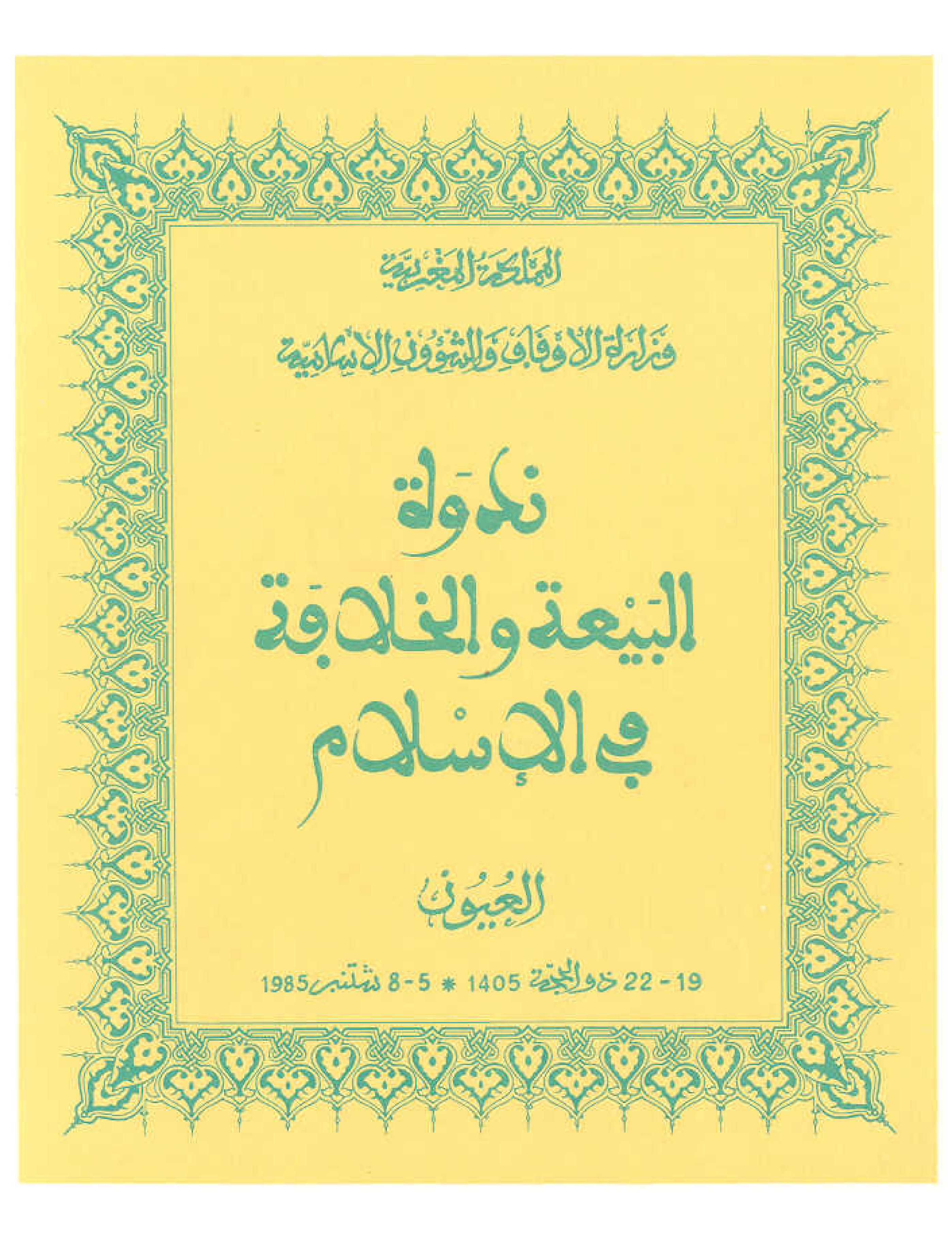
فلا يكون من قبيل التواضع ـ وما أجدرني به ـ توقع ما يكون في بحثي من مظان عثار ومواضع قصور، أتقبل فيها بصدر رحب تعقب أساتذتي العلماء لها وإقالتهم عثاري فيها

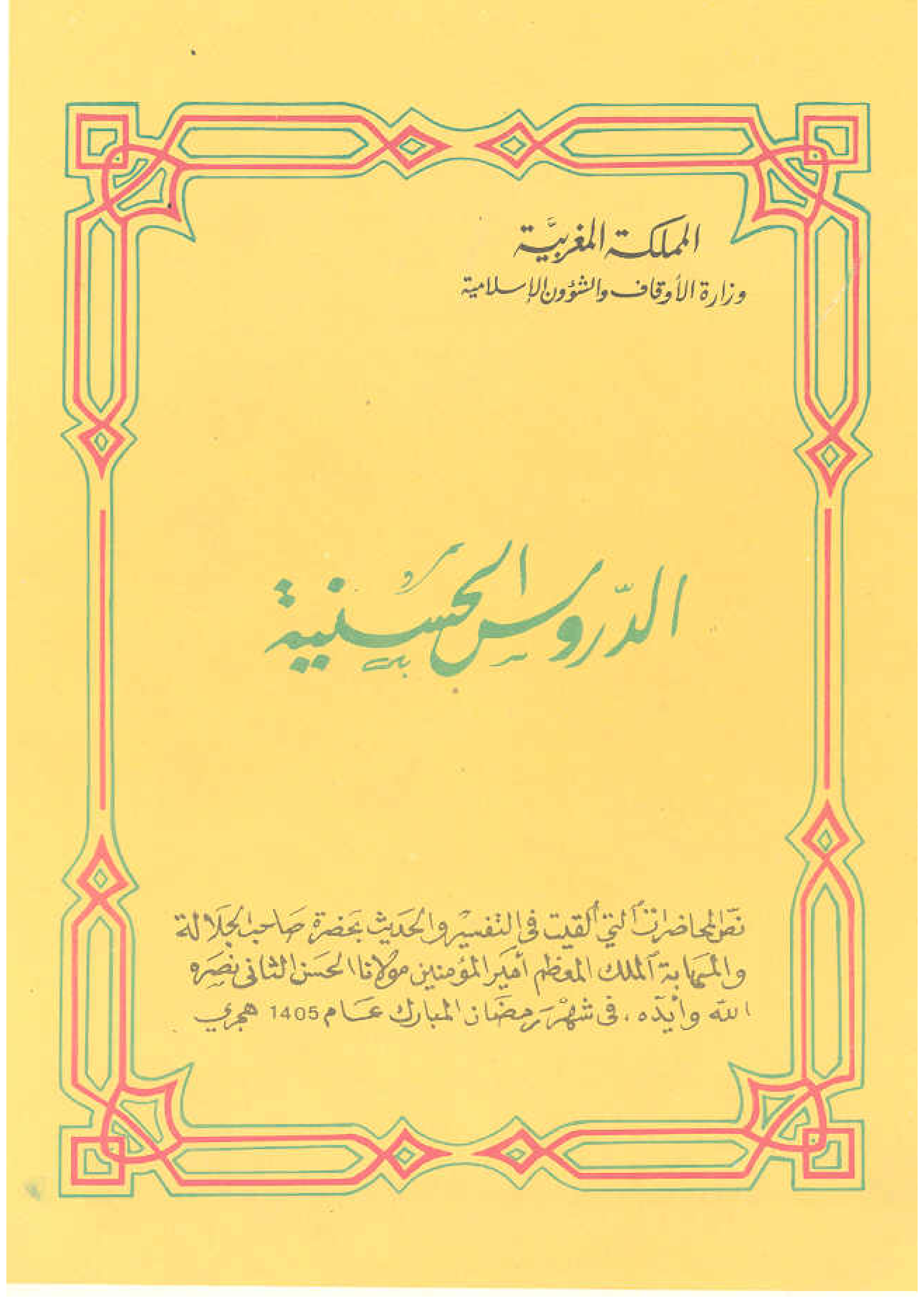
وأما ما حف بهذه الرسالة من دواعي التيسير وأمارات طيب الفأل، ويمن الطالع، وما بذل فيه من صادق الجهد، وإخلاص النية، إشرافا من أستاذتي الجليلة، وخدمة مني فبتوفيق من الله جل جلاله. وهو سبحانه تعالى من وراء القصد.

فهرس العدد 257

• ديوان المجلة

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
ندوة
البيعة والخلافة
في الإسلام
العيون
19 - 22 ذو الحجة 1405 * 5 - 8 شتنبر 1985



المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدروس الحسنية

نص المحاضرات التي ألقيت في التفسير والحديث بحضرة صاحب الجلالة
والمهابة الملك المعظم أمير المومنين مولانا الحسن الثاني نصره
الله وأيده، في شهر رمضان المبارك عام 1405 هجري